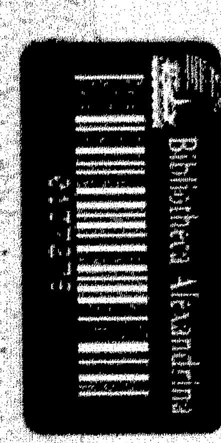


الرسالة القشيرية

للإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري

تحقيق

الإمام الدكتور عبد الحليم محمود
الدكتور محمود بن الشريف

الجزء الأول



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل مخلوق وخير مبعوث ، وعلى آله وأصحابه ومن اتَّبع هديه إلى يوم الدين .

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾

[سورة الكهف : ١٠]

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ والْعَصْرِ ، إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

إن معالم الإيمان ، وسمات التدين ، والفكرة الصحيحة عن الهدف الذى من أجله خلق الإنسان ، والمنطق السليم فى الصلة بين الله والعالم .. إن كل ذلك يكاد – فى العصر الحاضر – يندرس ويتلاشى .

وأنه لمن المؤكد ، أن الأغلبية العظمى من الناس الآن يسيرون فى الحياة دون شعور واضح برسالة السماء ، وتوجيهها ، وهديها !! وإنهم بذلك لفى خسر ، وإنهم بذلك لمن الأشقياء ومع أن رسالة السماء ، لا تعقيد فيها ، ومع أن هدى الله سهل واضح ؛ فإن الإنسان يحاول – منذ أن كانت الرسالة الإلهية – أن ينشق عليها ، وأن يقف منها موقف المتمرد .

هذه الرسالة ، يمكن تلخيصها فى كلمة : « الإسلام » وليس هناك من تعبير أدق ، ولا أجمل من هذا التعبير ، إنه دقيق فى معناه ، جميل فى جرسه .

ورسالة الله إلى الإنسان : هى أن يُلقى الإنسان بقياده إلى خالقه ، هى أن يسلم الإنسان نفسه لربِّه . والمسلم من أسلم لله أمره ، إنه الذى يعتنق مبدأ السلام مع الله فإذا ما اعتنق مبدأ السلام مع الله ، كان قلبه سلامًا بالنسبة إلى نفسه : أى هدوءًا واطمئنانًا ، وسلامًا بالنسبة إلى الله : أى رضا وغبطة ، وسلامًا بالنسبة إلى الخلق ، فيسلم الخلق – للسلام الذى يعمر قلبه – من لسانه ويده .

فإذا ما : « أسلم » الإنسان ، فقد استجاب إلى الدعوة الإلهية .

* * *

هذه الدعوة التى تتسم بالتوحيد ، والوحدة والوحدانية ، والتى يعبَّر عنها بالإسلام : تختلف فى موقفها بالنسبة لتوجيه الإنسان ، بحسب موضوع التوجيه ؛ ذلك أنها توجِّه الإنسان بالنسبة للطبيعة ، للكون المادى للعالم المحس ، وفى هذا المجال تأمره أمرًا ، وتفرض عليه فرضًا ، أن يغزو هذا العالم : فيصل إلى أعماق أعماق الأرض والبحار ، ويرتفع فى الأفق إلى أبعد ما يصل إليه العلم بوسائله وآلاته ، ويغزو الفضاء فيما بين السماء والأرض ، وتترك له الاختيار فى استخدام الوسائل ، لذلك : لا حجر عليه فى الحرية ولا تضييق .

وموقف الدين الإسلامى من العلم واضح كل الوضوح ، فأول كلمة فى الدستور الإسلامى : « القرآن » هى : « اقرأ .. » . ثم إن الآيات القرآنية التى تحث على العلم ، وتبين فضل العلماء كثيرة : يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[1] ، ويقول الله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[2] ويقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[3] .

أما الأحاديث النبوية : فإنها هى الأخرى كثيرة ، من أجمعها : الحديث الذى رواه أبو داود ، والترمذى ، يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« من سلك طريقًا يبتغى فيه علمًا ، سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ، ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهما : إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

وقد وضح هذا الاتجاه فى القرآن ، وفى الأحاديث الشريفة ، وضوحًا بيِّنًا ؛ فاندفع المسلمون إلى البحث فى جميع ميادين الحياة : روحية كانت أو عقلية أو مادية ..

ونشأ عن ذلك : الحضارة الإسلامية التى أنتجت أمثال : جابر بن حيان فى الكيمياء ، وابن الهيثم فى الطبيعيات ، وأبى بكر الرازى فى الطب ، وابن سينا فى الطب كذلك والفلسفة ، والغزالى فى الجانب الروحى ، وابن رشد فى الفلسفة العقلية ، وابن خلدون فى الاجتماع والتاريخ . وكثيرين غيرهم .

وقد أشاد كثيرون من منصفى الغربيين بالحضارة الإسلامية وبمناهجها يقول (غوستاف لوبون) :

« ويعُزى إلى بيكون ، على العموم : أنه أول من أقام التجربة والملاحظة اللتين هما أساس المناهج العلمية الحديثة ، مقام الأستاذ ولكنه يجب أن نعترف ، قبل كل شىء ، بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم .

ويقول العلامة الشهير : « همبولد » بعد أن يذكر أن ما قام على التجربة والملاحظة : هو

---

(١) سورة طه . الآية ١١٤ .
(٢) سورة المجادلة . الآية ١١ .
(٣) سورة فاطر . الآية ٢٨ .

أرفع درجة فى العلوم : إن العرب ارتقوا فى علومهم إلى هذه الدرجة التى كان يجهلها القدماء تقريبًا » .

ويتبين لنا من هذا أن الإسلام :

* يحث على العلم ويشجعه ، ويدعو إليه ، ويأمر بالاستزادة منه .

* وأن روح الإسلام هذه أنتجت حضارة خصبة عمَّت جميع زوايا الحضارة المادية وجوانبها .

* * *

بيد أن : « اقرأ » ، أو الأمر بالعلم والثقافة فى الإسلام قيِّد بأن يكون : « بسم الله » ؛ وبذلك ينتفى الإيذاء والضرر فى العلم ، وبذلك أيضًا تفترق حضارة الإسلام فى هذا الجانب عن الحضارة الغربية ، فالحضارة الغربية لم تنشأ : بـ « بسم الله » وإنما نشأت بسم العلم . ومن أجل ذلك سخِّرت العلم فى التنكيل ، والدمار ، والاستعمار ، وإشقاء الإنسانية !! .

وحضارة الإسلام نشأت بسم الله ، ولم تنشأ بسم العلم ، ومن أجل ذلك كان هدف العلم فى الإسلام إرضاء الله وإسعاد الإنسانية هذا شأن الإسلام بالنسبة للكون المحسّ .

على أن : « اقرأ بسم ربك الذى خلق » حينما نقيِّد العلم والثقافة بأن يكونا بـ : بسم الله ، وحينما نصبغ دراسة الكون بصبغة التوجه إلى الله ، فإنما تضعنا مباشرة أمام توجيه إلهى سافر – لا لبس فيه – يرشدنا إلى وجوب إعطاء جميع الأعمال التى نقوم بها ، صورة العبادة : ذلك أن ما كان بـ : بسم الله ، **فهو** عبادة .

وأن : « اقرأ بسم ربك الذى خلق » تنص على أن القراءة لا تكون : باسم منفعة شخصية ، ولا باسم مصلحة إقليمية ، ولا باسم غاية مادية أيًّا كانت ، ولا باسم وزير ولا أمير ، ولا باسم وطن أو بيئة ، وإنما هى : بسم الله ، وإذا كانت بسم الله ، فإنها تفيد الشخص باعتباره فردًا ، وتفيد المجتمع الخاص الذى نسميه : « وطنا » ؛ وتفيد المجتمع الإسلامى العام ، بل وتفيد الإنسانية جمعاء .

إذا ما تجردت القراءة لله تعالى : وكان هدفها الأول والأخير هو : « الله » : مصدر الخير والنور ، كانت : خيرًا ، وكانت نورًا فى جميع الأرجاء ، وفى جميع الأزمان .

وما كان يقصد القرآن قط بهذه الكلمة الأولى القراءة وحسب ، وإنما كانت القراءة رمزًا لكل ما يأتيه الإنسان فى الجانب الإيجابى وكل ما يدعه الإنسان فى الجانب السلبى :

إن هذه الكلمة الأولى ، تريد أن تقول : اقرأ بسم ربك .. تحرك بسم ربك ، تكلم بسم ربك ، إعمل بسم ربك ..

أما إذا امتنعت عن حركة أو فعل ، فينبغى أن يكون ذلك أيضًا بسم ربك ؛ ويكون معنى الآية فى النهاية : جرد حياتك كلَّها وكيانك كلَّه : أسبابًا وغايات لله سبحانه وتعالى :

وإذا كانت الآية الكريمة واضحة المعنى فى الجانب الإيجابى الذى يحثُّ على القراءة ، والذى يحث على أن تكون القراءة : بسم الله ، فإن الجانب السلبى - قد نزلت فيه - فيما بعد - آيات صريحة الدلالة ، واضحة المعنى ، يقول الله تعالى :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾(١) .

وأما ما ذبح على النصب : فلم يرد به الذابح وجه الله تعالى ، فهو أيضًا فسق ؛ لأنه لم يذكر اسم الله عليه ؛ فكل مالم يذكر اسم الله عليه يجب إذن الامتناع عنه .

أما الإقدام عليه ، فإنه فسق يتفاوت فى درجته من الرجس ، زيادة ونقصانًا .

وهكذا يضعنا الإسلام منذ « اقرأ بسم ربك » : أى منذ اللحظة الأولى من تاريخه ؛ على قمة الإخلاص ، وعلى قمة الإحسان ، وفى خضم من التقوى ، وعلى السنام من الصدق .

فما دامت الحياة كلُّها لله ، فليس هناك مجال للكذب ، والرياء ، والنفاق ، والخديعة ، وإرادة غير الله بالأعمال .

وإزالة لكل لبس فى هذا الجانب ، وحبًّا فى أن يسير الإنسان فى الحياة على بيِّنة من أمره - فيهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيى عن بينة - حدد الله ، سبحانه وتعالى - تحديدًا واضحًا كل الوضوح - الغاية التى خلق الإنسان من أجلها ، يقول سبحانه :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون ﴾(٢) .

والإسلام يريد بذلك أن تكون حياة الإنسان فى جميع اتجاهاتها ، وفى جميع جوانبها وزواياها .. حياة الإنسان أسسًا وبواعث . وحياة الإنسان وسائل ومناهج .. وحياة الإنسان أهدافًا وغايات .. يريد الإسلام أن يكون كل ذلك : عبادة .

وليس ذلك بالأمر المستحيل ؛ فالعمل الواحد يعمله شخص من الأشخاص ، فيكون عملا دنيويا ، ويعمله شخص آخر فيكون العمل دينيا .

---

(١) سورة الأنعام . الآية ١٢١ .

(٢) سورة الذاريات . الآية ٢٦ .

بل إن العمل الواحد يعمله الشخص الواحد فى وقت ما ، فيكون دنيويًّا ، ويعمله هو نفسه فى وقت آخر فيكون عبادة ، وكل ذلك إنما هو بحسب النيَّة ، يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« إنما الأعمال بالنيات ؛ وإنما لكل امرئ ما نوى ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

فإذا ما أراد الإنسان بعمله وجه الله كان العمل : عبادة مهما أغرق فى الصورة الدنيوية ، وأحاديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى هذا الجانب كثيرة معروفة .

بيد أن العبادة من ناحية قيمتها الروحية : درجات لا تحصى ؛ إنها قد تكون شكلًا من الأشكال ، مجرد شكل ، لا قيمة لها ؛ ولا وزن فى مقاييس الروح وموازينها !! وقد تسمو وتسمو ؛ فتصل إلى : « أن تعبد الله ؛ كأنك تراه ؛ فإن لم تكن تراه ؛ فإنه يراك » .

ولقد كان الرسول ؛ صلوات الله وسلامه عليه ، المثل الأعلى لنا فى أن نعبد الله ؛ كأننا نراه ، أو فى أن نرى الله فى جميع ما نأتى وما ندع ؛ فى الكون نذلله ونسخره ، وفى المجتمع نصلحه ونهذبه ، وفى العمل نتقنه ونخلص فيه .. وفى الحديث نتحرى فيه الصدق والأمانة .

لقد حوَّل الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، الحياة إلى عبادة ، فكان العمل عبادة ، وإنَّ من الذنوب ذنوبًا لا يكفِّرها إلا السعى على المعاش ؛ والجهاد عبادة وإن أفضل الأعمال : الإيمان ، ثم الجهاد .

ولقد وصل الأمر به صلوات الله وسلامه عليه : أن جعل الأكل والشرب والمشى عبادة .

وهكذا أصبحت الحياة حركة وسكونًا لله ، سبحانه ، فأصبحت الحياة كلها عبادة : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلك أُمِرْتُ وَأَنَا أَولُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[1] .

ولقد وضح هذا الاتجاه منذ اللحظة الأولى للوحى : ﴿ اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الذَّى خَلَقَ ﴾[2] ثم إن القرآن كله فسره ، ووضحته أعمال الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه : الحياة عبادة ، الأنفاس ، والحركات ، والسكنات والنوم ، واليقظة ؛ الحياة كلها بل ، والموت عبادة .

---

(١) سورة الأنبياء . الآيتان : ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٢) سورة العلق . الآية : ١ .

تلك هى حياة الصوفية ، وذلك هو معنى الدين ؛ وهو معنى الإسلام ، وهو ما أراده الله بصريح آياته الكريمة وهديه المستقيم .

إن توضيح هذا ونشره ، والعمل على إحياء معنى الدين ، ونشر الشعور الدينى ، وبيان معنى : « الإسلام وقيادة الأمم - من أجل سعادة الإنسانية - لتسلم وجهها لله .. ذلك هو المهمة الأولى لعلماء الدين : أجلُّ مهمة ، وأسمى وظيفة .. إنها وظيفة الأنبياء والرسل .

ومن أجل ذلك ومساهمة منا فى توضيح الطريق ، نشرنا هذا الكتاب راجين الله سبحانه ، أن يجعل ذلك فى ميزان حسناتنا .

نشرنا هذا الكتاب الذى يتحدث عن الصوفية وعن التصوف .

ذلك أن الصوفية هى الطائفة التى تعبد الله - فى كل عصر - كأنها تراه .

وهى الطائفة التى تحس إحساسًا واضحًا بالفكرة الدينية فى معناها العميق .

إنهم مثل عليا كأشخاص ، ومثل عليا كمبادئ ، إنهم أمثلة حيَّة لما ينبغى أن يكون عليه المتدين ، وهم أمثلة حاولت الكمال فى الاقتداء برسول الله ﷺ والتخلق بأخلاق القرآن :

١ - وفى نشر هذا الكتاب رسم لفكرة العبودية الصحيحة ، وتوضيح لما ينبغى أن تكون عليه الصلة بين الإنسان وربه ، وبين الإنسان ومجتمعه .

٢ - ومما لاشك فيه أن كل ما يقرؤه الإنسان يؤثر فيه ، ونحن إذن سعداء بالأثر الجميل الذى سيكون - بإذن الله - ثمرة لنشر هذا الكتاب .

٣ - ولقد أحضرنا مخطوطتين للرسالة القشيرية من تونس : إحداهما بخط مشرقى ، والأخرى بخط مغربى ، ويسعدنا أن نخرج النص محققًا صحيحًا .

٤ - ولقد ألَّف الإمام القشيرى ، هذا الكتاب تصحيحًا وتوضيحًا للفكرة الصوفية فى سلامتها ، ونقائها ونحن سعداء بإحياء هذا الكتاب فى هذا العصر الذى شوهت فيه الفكرة عن التصوف ، وأنكر كثير من الناس - عن جهل ، أو متعمدين - المثل العليا فى الأخلاق ، والمعاملات ، التى دعا إليها الصوفية .

٥ - ولقد كان كثير من الباحثين يتمنون أن يكون هذا الكتاب الذى يعتبر مصدرًا أصيلاً من مصادر التصوف - بين أيديهم محققًا مفهرسًا ويسعدنا أن نحقق لهم هذه الرغبة .

ولقد كان من تيسير الله ، لهذا العمل ، أن هذا الكتاب قد شرحه علم من أعلام الإسلام ، هو شيخ الإسلام : زكريا الأنصارى ، وكتبه علم من أعلام الإسلام ، هو شيخ الإسلام :

السيد مصطفى العروسى ، على الشرح حاشية نفيسة .

وقد استفدنا من الشرح والحاشية واغترفنا من أنوارهما الكثير .

* * *

أما مؤلف الكتاب : فإنه الإمام أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيرى النيسابورى الشافعى (٣٧٦ هـ - ٤٦٥ هـ) .

ولد رضى الله عنه سنة : ست وسبعين وثلثمائة ، فى شهر ربيع الأول ، فى بلدة « إستوا » وكان سكانها من العرب الذين قدموا خراسان .

وهو عربىٌّ من قبيلة « قشير بن كعب » .

توفى أبوه وهو صغير ، فرُبِّى يتيمًا ، ولكن النجابة ظهرت فيه من صغره ؛ فتثقف بالأدب والعربية . ولكنه لم يكن يعلم الحساب فذهب إلى « نيسابور » ليتعلم طرفًا من الحساب ، حتى يتمكن من إدارة قرية له بإستوا .

وأرادت المقادير ، أن يحضر درس أبى علىٍّ الدقاق ، فيرى إخلاصًا ويرى تقوى ، ويرى نورًا يرتسم على وجهه ، ويشرق من كلماته فينبر قلوب السامعين ، ويجذبهم إلى الله ، وكانت فطرة القشيرى النقية على استعداد تام لسلوك الطريق ، ورأى الإمام أبو على الدقّاق فيه النجابة ، فقبله فى زمرة مريديه ، ثم اصطفاه فى زمرة أخصائه ، وزوجه ابنته ، مع كثرة أقاربها .

وانتهى الأمر بالقشيرى إلى أن أصبح - كما يقول عنه الإمام عبد الغافر - « الإمام مطلقًا ، الفقيه ، المتكلم ، الأصولى ، المفسر ، الأديب ، النحوى ، الكاتب الشاعر ، لسان عصره وسيد وقته ، وسر الله بين خلقه ، مدار الحقيقة ، وعين السعادة ، وقطب السيادة ، من جمع بين الشريعة والحقيقة ، كان يعرف الأصول على مذهب الأشعرى والفروع على مذهب الشافعى .. » .

ولقد ترجم له صاحب كتاب : « دمية القصر » أبو الحسن الباخرزى فقال :

« جامع لأنواع المحاسن تنقاد له صعابها ذلل المراسن ، فلو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب ، ولو ارتبط إبليس فى مجلس تذكيره لتاب ، وله فصل الخطاب فى فصل المنطق المستطاب ، ماهر فى التكلم على مذهب الأشعرى ، خارج فى إحاطته بالعلوم عن الحد البشرى ، كلماته للمستفيدين فوائد وفرائد ، وأعقاب منبره للعارفين وسائد ، ثم إذا عقد بين

مشايخ الصوفية حَبْوَته ، ورأوا قربته من الحق وحظوته : تضاءلوا بين يديه ، وتلاشوا بالإضافة إليه ، وطواهم بساطه فى حواشيه ، وانقسموا بين النظر والتفكير فيه . وله شعر يتوج به رءوس معاليه ، إذا ختمت به أذناب أماليه .. » .

وقد كتب الإمام القشيرى كثيرًا من الكتب منها :

١ - الرسالة القشيرية التى نقدمها اليوم للقراء مغتبطين ، كتبها المؤلف فى سنة : سبع وثلاثين وأربعمائة « إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام » .

كتبها تصحيحًا لأوضاع كثيرة انحرفت ، وبيانًا لما ينبغى أن يكون عليه المريد الصادق .

لقد كانت هناك جوانب كثيرة فى الأجواء التى تزعم أنها صوفية قد دب إليها الفساد ، وسلك بعض المدَّعين مسالك ، لا تمت إلى الدين ولا إلى التصوف بصلة ، كما هو الشأن دائمًا فى المدعين المزيفين الذين يوجدون فى كل عصر : وفى كل ميدان ؛ فأشفق الإمام القشيرى « على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر : (أى أمر التصوف) على هذه الجملة قد بُنى قواعده ، وعلى هذا النحو سار سلفه » .

وقاده هذا الاشفاق إلى أن يكتب هذه الرسالة ، مبيِّنًا فيها جانبين :

الجانب الأول : سيرة رجال التصوف وبعض أقوالهم ، وذكر فى هذا الجانب كثيرًا من أعلام الصوفية ، كنماذج ، يسير المريد على هديهم .

أما الجانب الثانى : فإنه مبادئ السلوك ومناهجه .. أو كما يقول هو بأسلوبه :

« ذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة فى : آدابهم ، وأخلاقهم ، ومعاملاتهم وعقائدهم ، بقلوبهم ، وما أشاروا إليه من مواجيدهم ، وكيفية ترقيهم من بدايتهم إلى نهايتهم ، لتكون لمريدى هذه الطريقة قوة ، ومنكم لى بتصحيحها شهادة ، ولى فى نشر هذه الشكوى سلوة ، ومن الله الكريم فضلاً ومثوبة » .

ولقد كانت هذه الرسالة ، وماتزال ، النبع الصافى الذى يستقى منه كل دارس للتصوف وكل مستشرق لحياة النور » .

تلك هى الرسالة القشيرية : أما كتبه الأخرى فإن له :

٢ - فى تفسير القرآن : « لطائف الإشارات » طبع حديثا .

٣ - وله كتاب « الفتوى » التى أوردها السبكى فى الطبقات .

٤ - وله كتاب « حياة الأرواح والدليل على طريق الصلاح والفلاح » مخطوط بالأسكوريال .

٥ - وله كتاب « المعراج » فى بانكيبور ، وأخرجه وحققه الدكتور حسن عبدالقادر ، نشر بالقاهرة .

٦ - وله كتاب « شكاية أهل السنة » ذكرها السبكى فى « طبقات الشافعية » كاملة .

٧ - وله كتاب « الفصول » وهو مخطوط بالقاهرة .

٨ - وله كتاب « اللمع » وهو مخطوط بالقاهرة .

٩ - وله كتاب « التوحيد النبوى » وهو مخطوط بالقاهرة .

١٠ - وله كتاب « التيسير فى علم التفسير » وهو مخطوط فى الهندوليدن .

١١ - وله كتاب « ترتيب السلوك » لم يطبع بعد ، وموجود ، مخطوطًا فى الفاتيكان .

١٢ - وله كتاب « التمييز فى علم التذكير » فى استانبول ، وفارس ، والقيروان ، والقاهرة .

١٣ - وله كتاب « القصيدة الصوفية » مخطوط بالقاهرة .

١٤ - وله كتاب « الأربعين حديثا » مخطوط فى ليدن .

١٥ - وله كتاب « شرح أسماء الله الحسنى » مخطوط فى : الموصل ، وفارس ، وتونس ، ودمشق ، وله كتب أخرى .

وقد توفى الإمام القشيرى صبيحة يوم الأحد ، فى السادس عشر من شهر ربيع الأول عام ٤٦٥ هـ خمس وستين وأربعمائة بمدينة « نيسابور » ودفن بجوار شيخه أبى على الدقاق ، رحمهما الله رحمة واسعة .

الدكتور عبدالحليم محمود
الدكتور محمود بن الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذى تفرَّد بجلال ملكوته[1] ، وتوحَّد بجمال جبروته[2] ، وتعزَّز بعلوٍّ أحديته ، وتقدَّس بسموٍّ صمديته[3] ، وتكبر فى ذاته عن مضارعة كل نظير[4] ، وتنزَّه فى صفاته عن كل تناهٍ وقصور ، له الصفات المختصة بحقِّه[5] ، والآيات الناطقة بأنه غير مشبَّه بخلقه .

فسبحانه من عزيز ، لاحدَّ يناله[6] ، ولاعد يحتاله[7] ، ولا أمد[8] يحصره ، ولا أحد ينصره ، ولا ولد يشفعه ، ولا عدد يجمعه ، ولا مكان يمسكه ، ولا زمان يدركه ، ولا فهم يقدره ، ولا وهم يصوِّره .

تعالى عن أن يقال : كيف هو ؟ أو أين هو ؟ أو اكتسَب بصنعه الزين[9] ، أو دَفع بفعله النقص والشين ؛ إذ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، ولا يغلبه حيٌّ ، وهو الخبير القدير .

أحمده على مايُولى ويصنع ، وأشكره على مايزوى[10] ويدفع[11] ، وأتوكل عليه وأقنع ، وأرضى بما يعطى ويمنع .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة موقن بتوحيده ، مستجير بحسن تأييده .

وأشهدُ أن سيدنا محمدًا عبده المصطفى ، وأمينه المجتبى[12] ورسوله المبعوث إلى كافة

---

(١) ملكوته : سلطانه وملكه العظيم .
(٢) جبروته : قهره لغيره أو جبره لكل كسير .
(٣) صمديته : كونه المقصود فى الحوائج على الدوام .
(٤) مضارعة كل نظير : مشابهة كل شبيه .
(٥) وهى صفات الربوبية التى تميز بها عن خلقه .
(٦) لاحد يناله : لا حصر يدرك كنهه .
(٧) لا عد يحتاله : لا كثرة تجمعه وتقدر عليه بالاحتيال .
(٨) أمد : غاية .
(٩) الزين : الكمال والحسن .
(١٠) يزوى : يقبض ويمنع .
(١١) يدفع : يبسط ويمنح .
(١٢) المجتبى : المختار .

الورى . صلى الله عليه وعلى آله مصابيح الدجى ، وعلى أصحابه مفاتيح الهدى ، وسلّم تسليما كثيرًا .

هذه رسالة كتبها الفقير إلى الله تعالى عبدالكريم بن هوازن القشيرى ، إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام ، فى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة .

أما بعد :

– رضى الله عنكم – فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وفضّلهم على الكافة من عباده ، بعد رسله وأنبيائه ، صلوات الله وسلامه عليهم ، وجعل قلوبهم معادن أسراره ، واختصّهم من بين الأمة بطوالع أنواره .

فهم الغياث للخلق ، والدائرون فى عموم أحوالهم مع الحق بالحق .

صفاهم من كدورات[١] البشرية ، ورقّاهم إلى محال[٢] المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية ، ووفّقهم للقيام بآداب العبودية ، وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية[٣] .

فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات تكليف ، وتحققوا[٤] بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف .

ثم رجعوا إلى الله[٥] ، سبحانه وتعالى ، بصدق الافتقار ، ونعت الانكسار ، ولم يتكلوا على ما حصل منهم من الأعمال ، أو صفا لهم من الأحوال ، علمًا منهم بأنه جلّ وعلا يفعل ما يريد ، ويختار من يشاء من العبيد ، لا يحكم عليه خلق ، ولا يتوجه عليه مخلوق حق ، ثوابه : إبتداء فضل ، وعذابه : حكم بعدل ، وأمره قضاء فصل[٦] .

---

(١) صفاهم من كدرات البشرية : خلصهم وطهرهم من حظوظ أنفسهم ، حيث وفقهم للمجاهدة والرياضة الدائمة .

(٢) محال : أماكن ومنازل .

(٣) مجارى أحكام الربوبية : منشأ تصرفاته تعالى فيهم وفى غيرهم من العطاء والمنع والإسعاد والإضلال .

(٤) تحققوا : أى اتصفوا الطمأنينة قلوبهم بما أبرزته القدرة العلية والحكمة الأزلية .

(٥) رجعوا إلى الله : فعملوا بأحكام الله تعالى متبرئين من الحول والقوة ، مراقبين الله فى حركاتهم وسكناتهم ملاحظين أنفسهم بالانكسار والافتقار إليه تعالى .

(٦) وهؤلاء الموصوفون بما ذكر ، هم : المقربون المتصفون بالإحسان . وفى الخبر الصحيح : « ما الإحسان ؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فانه يراك » والأمة درجاتهم متفاوتة ، وينقسمون إلى : أصحاب اليمين ، وإلى المقربين كما دل عليه القرآن الكريم ، فمن صح إيمانه وعمل بما أمر به شرعاً فهو من أصحاب اليمين ، ومن قلت غفلاته وتوالت منه نوافله وطاعاته ، وتوالى على قفيه ذكره ودعواته فهو المقرب والمحسن ، ويعبر عنه بـ « الصوفى » الذى صفا عن الأخلاق المذمومة وتخلق بالأخلاق المحمودة ، حتى أحبه الله وحفظه فى جميع حركاته وسكناته ، كما جاء فى الخبر الصحيح : « ماتقرب المتقربون إلى بمثل أداء ما افترضت عليهم ولا يزال العبد يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به » .

ثم اعلموا ، رحمكم الله ، أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم ، كما قيل :

أمـا الخيـام فـإنها كخيـامهم وأرى نسـاء الحى غـير نسائهـا

حصلت الفترة[١] فى هذه الطريقة .. لا ، بل اندرست[٢] الطريقة بالحقيقة :

مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، وقلَّ الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء ، وزال الورع وطوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رباطُه .

وارتحل عن القلوب حرمة[٣] الشريعة ، فعدُّوا قلة المبالاة بالدين أوثقَ ذريعة[٤] ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام[٥] . ودانوا[٦] بترك الإحترام ، وطرح الاحتشام ، واستخفُّوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى ميدان الغفلات وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات ، والارتفاق[٧] بما يأخذونه من السوقة ، والنسوان ، وأصحاب السلطان .

ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادَّعوا أنهم تحرروا من رقِّ الأغلال[٨] وتحققوا بحقائق الوصال[٩] وأنهم قائمون بالحق ، تجرى عليهم أحكامه ، وهم محو[١٠] ، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وأنهم كُوشفوا بأسرار الأحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية[١١] ، وزالت عنهم أحكام البشرية . وبقوا

---

(١) الفترة : التراخى والتفريط فى طريقة الصوفية .

(٢) اندرست : زالت ومحيت ، يقصد أن طريقة الصوفية فى الحقيقة قد زالت معالمها من نفوس الكثيرين بعد أن غلب عليهم قلة المبالاة ومخالفتهم الشريعة .

(٣) حرمة الشريعة : احترامها .

(٤) أى جعلوا قلة الاهتمام بأحكام الدين أقوى وسيلة يصلون بوساطتها لمقاصدهم الدنيوية الخسيسة .

(٥) لم يفرقوا بين الحلال والحرام ، بل جمعوا بينهما من غير تحر .

(٦) تدينوا بعدم احترام الشيخ والعالم والكبير .

(٧) الارتفاق : الانتفاع .

(٨) زعموا أنهم وصلوا إلى الحقائق العليا ، وتخلصوا من محبة ما سوى الله ، ونفضوا أغلال الرق والعبودية لغير المولى سبحانه . والوصول عند الصوفية هو فناء العبد عن أوصافه وعاداته فى أوصاف الحق سبحانه وتعالى .

(٩) أى زعموا أنهم اتصفوا بالقرب المعنوى من الله .

(١٠) وهذا من تتمة زعمهم : أى أنهم لم يبق فيهم بقية يتعلق بها التكليف لتمام فنائهم حتى صاروا إلى حالة ينتفى فيها العتب ، وينعدم اللوم على كل ما يصدر عنهم .

(١١) أى جذبت قلوبهم وأرواحهم للحق جذباً سريعاً حتى لم يبق فيهم سعة لغيره تعالى .

بعد فنائهم عنهم[١] بأنوار الصمدية ، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا ، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا ، بل صرفوا .

ولما طال الابتلاء فيما نحن فيه من الزمان بما لوحت ببعضه من هذه القصة وكنت لا أبسط إلى هذه الغاية لسان الإنكار ، غيرة على هذه الطريقة أن يذكر أهلها بسوء ، أو يجد مخالف لثلبهم مساغًا[٢]؛ إذ البلوى فى هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة .

ولما كنت أؤمل من مادة هذه الفترة أن تنحسم[٣]، ولعل الله سبحانه يجود بلطفه فى التنبه لمن حاد عن السنة المثلى فى تضييع آداب هذه الطريقة .

ولما أبى الوقت إلا استصعابًا . وأكثر أهل العصر بهذه الديار إلا تماديًا فيما اعتادوه واغترارًا بما ارتادوه[٤] .

أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر[٥] - على هذه الجملة[٦] - بنى قواعده . وعلى هذا النحو سار سلفه .

فعلَّقت[٧] هذه الرسالة إليكم ، أكرمكم الله ، وذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة فى آدابهم ، وأخلاقهم ، ومعاملاتهم ، وعقائدهم بقلوبهم[٨]، وما أشاروا إليه من مواجيدهم[٩]، وكيفية ترقيهم[١٠] من بدايتهم إلى نهايتهم ؛ لتكون لمريدى هذه الطريقة قوة ، ومنكم لى بتصحيحها شهادة[١١]، ولى فى نشر هذه الشكوى سلوة[١٢]، ومن الكريم فضلا ومثوبة .

وأستعين بالله سبحانه فيما أذكره ؛ وأستكفيه ؛ وأستعصمه[١٣]. من الخطأ فيه[١٤] واستغفره واستعينه . وهو بالفضل جدير ، وعلى ما يشاء قدير .

---

(١) أى عن أنفسهم .

(٢) أى لنقصهم مدخلا .

(٣) آمل أن تنقطع الأسباب المفضية إلى التهاون والتكاسل عما به صلاح النفس .

(٤) ارتادوه : اختاروه وتلبسوا به .

(٥) وهو الوصول إلى أعلى الحقائق والأحوال .

(٦) مزاعمهم وادعاءاتهم .

(٧) علقت : جمعت وألفت .

(٨) ومعتقداتهم فى قلوبهم .

(٩) مواجيدهم : ما تجده قلوبهم من الإلهامات الإلهية .

(١٠) انتقالهم من كمال إلى كمال أعلى منه .

(١١) شهادة : إقرار بأنه صحح طريق السلف ، بايضاح ما كانوا عليه .

(١٢) سلوة : بغضاً لأولئك الزاعمين المدعين .

(١٣) أستكفيه وأستعصمه ، أطلب منه الكفاية والعصمة والحفظ .

(١٤) وفى نسخة أخرى « وأستعفيه » أى أطلب منه العفو عن الخطأ .

فصــل
فى بيان اعتقاد هذه الطائفة فى مسائل الأصول[١]

اعلموا ، رحمكم الله ، أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة[٢] فى التوحيد ، صانوا بها عقائدهم عن البدع[٣] ودانوا[٤] بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة : من توحيد ليس فيه تمثيل[٥] ولا تعطيل[٦]، وعرفوا ما هو حق القدم[٧]. وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم[٨] .

ولذلك قال سيِّد هذه الطريقة « الجنيد »[٩]، رحمه الله : « التوحيد إفراد القدم من الحدث[١٠].

---

(١) أصول علم التوحيد ومسائله المتعلقة بذات الله تعالى وصفاته ، وما يجب له وما يجوز ، وما يستحيل فى حقه .

(٢) قال الشيخ العروسى فى حاشيته « نتائج الأفكار القدسية » : « إن الدين بستان والشريعة سياجه ، والطريقة رياضه ، والحقيقة ثمراته ، فمن لا شريعة له لا دين له ، ومن لا طريقة له لا شريعة له ، ومن لاحقيقة له لا طريقة له ، ثم قال : « إن طريقة الصوفية تشتمل على عشرة أشياء : أحدها حقيقة التصوف ، وهى ترجع إلى صدق التوجه إلى الله تعالى ، والثانى : أن مدار ذلك على إفراد القلب والقالب لله وحده ، والثالث : أنه من الدين بمنزلة الروح من الجسد ، والرابع أن نظر الصوفى فى وجه الكمال والنقص ، والخامس : أن نظر الفقيه فيما يسقط الحرج ، والأصولى ، فيما يصح به الإيمان ويثبت ، فنظر الصوفى أخص من نظرهما ولذلك صح إنكارهما عليه ، ولا يصح إنكاره على أحدهما ، « فصوفى الفقهاء خير من فقيه الصوفية » . والسادس : إظهار شرف التصوف ودليله : برهانًا ونصًا ، والسابع أن الفقه شرط فى صحته ، فلذلك قدم عليه ؛ والثامن : ذكر الاصطلاح واختصاصه بكل فن على حسبه ، والتاسع مفاتيح الفتح فيه أربعة أحكام : المبادىء ؛ وصدق الرغبة فى الوصول ، والتشوف للحقائق ، وعدم التقيد بالمنقول مع التحقيق . والعاشر : أنه طريق عجيب وغريب ومبناه على اتباع الأحسن دائمًا ، ففى العقائد على اتباع السلف ، وفى الأحكام على الفقه ، وفى الفضائل على مذهب المحدثين ، وفى الآداب على ما به صلاح القلوب » .

(٣) البدع : جمع بدعة ، وهى ما يجرى على أصول الشَريعة من نص الكتاب أو الحديث ، أو الإجماع ، أو القياس .

(٤) اتخذوا ما وجدوا عليه السلف من الاعتقادات والأعمال ديناً لهم .

(٥) تمثيل : تشبيه بحادث من الحوادث .

(٦) تعطيل : أى بنفى الصفات فراراً من تعدد القدماء كما ذهب إليه جماعة « المعطلة » .

(٧) أى اعتقدوا بما يجب فى حقه تعالى وما يجوز وما يستحيل ؛ والمراد بالقدم : القديم ، وهو الله سبحانه وتعالى .

(٨) التزموا الخضوع والافتقار إليه سبحانه ، واتخذوا العبودية شعاراً ، فلم ينازعوا فى شىء من أحكام الربوبية ، والموجود عن العدم ، هو : الحادث الذى وجد بعد أن لم يكن .

(٩) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى الخزاز ، مولده ووفاته ببغداد « ٢٩٧ هـ - ٩١٠ م » وعرف بالخزاز لأنه كان يعمل الخز ، قال أحد معاصريه : ما رأت عيناى مثله ؛ الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه ، والشعراء لفصاحته ، والمتكلمون لمعانيه ، وهو أول من تكلم فى علم التوحيد ببغداد . وقال ابن الأثير فى وصفه : إمام الدنيا فى زمانه ؛ وعده العلماء شيخ مذهب التصوف ، لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة ، ولكونه مصوناً من العقائد الذميمة ، محمى الأساس من شبه الغلاة ، سالمًا من كل ما يوجب اعتراض الشرع .

(١٠) افراده سبحانه من الحدث : أى الحدوث ، وذلك إنما يتم بعد معرفة ما يجب له تعالى ، وما يجوز ، وما يستحيل .

وأحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ، ولائح الشواهد .

كما قال أبو محمد الجريرى[١]، رحمه الله : « من لم يقف على علم التوحيد بشاهد من شواهده زلت به قدم الغرور فى مهواة من التلف » يريد بذلك : أن من ركن إلى التقليد ، ولم يتأمل دلائل التوحيد ؛ سقط عن سنن[٢] النجاة ؛ ووقع فى أسر الهلاك .

ومن تأمل ألفاظهم ، وتصفح كلامهم ، وجد فى مجموع أقاويلهم ومتفرقاتها ما يثق - بتأمله - بأن القوم لم يقصروا فى التحقيق[٣] عن شأو[٤]، ولم يعرجوا فى الطلب على تقصير .

ونحن نذكر فى هذا الفصل جملا من متفرقات كلامهم فيما يتعلق بمسائل الأصول .

ثم نحرر على الترتيب بعدها ما يشتمل على ما يحتاج إليه فى الاعتقاد ، على وجه الإيجاز والاختصار ، إن شاء الله تعالى .

سمعت : الشيخ أبا عبدالرحمن محمد بن الحسين السلمى[٥]، رحمه الله ، يقول : سمعت عبدالله بن موسى السلامي يقول : سمعت أبا بكر الشبلى[٦] يقول : « الواحد : المعروف قبل الحدود[٧] وقبل الحروف » وهذا صريح من الشبلى أن القديم - سبحانه - لا حدَّ لذاته[٨]، ولا حروف لكلامه .

سمعت أبا حاتم الصوفى ، يقول : سمعت أبا نصر الطوسى يقول : سئل رُويم[٩] عن أول فرض افترضه الله عزَّ وجلَّ على خلقه ما هو ؟ فقال : المعرفة ؛ لقوله جلَّ ذكره : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[١٠]. قال ابن عباس : إلا ليعرفون[١١].

---

(١) هو أبو محمد أحمد بن محمد بن حسن الجريرى ، من كبار أصحاب الجنيد توفى سنة ٣١١ هـ .

(٢) سنن : طريق .

(٣) أى التحقيق للعقائد .

(٤) شأو : غاية .

(٥) من علماء المتصوفة ولد سنة (٣٣٠ هـ - ١٩٤٢ م) وتوفى سنة (٤١٢ هـ ١٠٢١ م) مولده ووفاته فى نيسابور ، له عدة كتب منها : «حقائق التفسير» وهو مختصر على طريقة أهل التصوف، «وطبقات الصوفية» و «أدب الصحبة» و «الفتوة».

(٦) أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى ، بغدادى المولد والنشأة توفى سنة ٣٣٤ هـ وتفقه على مذهب الإمام مالك ؛ وصحب الجنيد .

(٧) الحدود : الجهات . والحروف : الأصوات .

(٨) لا حد لذاته : لا جهة تحويه .

(٩) رويم هو أبو محمد رويم بن أحمد ، مات سنة ٣٠٢ هـ ببغداد ، وكان عالما بالقرآن عارفاً بالتصوف .

(١٠) آية ٥٦ من سورة الذاريات .

(١١) فهو تعالى إنما خلق العالم ليستدل به عليه ، كما قال تعالى ﴿ وَفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ ولهذا قيل « أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه » .

وقال الجنيد : إن أول مـا يحتاج إليه العبـد من عقد الحكمة[١] : معرفة المصنوع صانعه[٢]، والمحدث كيف كان إحداثه ، فيعرف صفة الخالق من المخلوق ، وصفة القديم من المحدَث ، ويذل لدعوته ، ويعترف بوجوب طاعته ؛ فإن من لم يعرف مالكه لم يعترف بالملك لمن استوجبه .

أخبرنى محمد بن الحسين ، قال : سمعت محمد بن عبدالله الرازى يقول : سمعت أبا الطِّيب المراغى يقول : للعقل دلالة[٣]، وللحكمة[٤] إشارة ، وللمعرفة شهادة ؛ فالعقل يدل . والحكمة تشير . والمعرفة تشهد : أن صفاء العبادات لا ينال إلا بصفاء التوحيد .

وسئل الجنيد عن التوحيد ، فقال : إفراد الموحَّد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته : أنه الواحد ، الذى لم يلد ، ولم يولد . بنفى الأضداد ، والأنداد ، والأشباه ، بلا تشبيه . ولا تكييف ، ولا تصوير ولا تمثيل[٥] ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[٦] .

أخبرنا محمد بن يحيى الصوفى ، قال : أخبرنا عبدالله بن على التميمى الصوفى ، يحكى عن الحسين بن على الدامغانى ، قال : سئل أبو النصراباذى عن المعرفة ، فقال : المعرفة : اسم ، ومعناه وجود تعظيم فى القلب يمنعك عن التعطيل والتشبيه .

وقال أبو الحسن البوشنجى[٧]، رحمه الله : التوحيد : أن تعلم أنه غير مشبه للذوات ، ولا منفىِّ الصفات .

أخبرنا الشيخ أبو عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله تعالى ، قال : سمعت محمد بن محمد بن غالب . قال : سمعت أبا نصر أحمد بن سعيد الأسفنجانى يقول ، قال : الحسين بن منصور[٨] : ألزم الكلَّ الحدث[٩]، لأنَّ القدم له، فالذى بالجسم ظهوره[١٠] فالعرضَ يلزمه، والذى بالأداة[١١]

---

(١) عقد الحكمة : اعتقادها .

(٢) بصفاته التى يتميز بها عن سائر الممكنات .

(٣) براهين يستدل بها على وحدانية الله سبحانه .

(٤) الحكمة : هى العلم بحقائق الأشياء ، وأوصافها ، وخواصها ، وأحكامها وارتباط الأسباب بالمسببات ، والعمل بمقتضى ذلك كله .

(٥) أى أن التوحيد هو اعتقاد الوحدة لله تعالى اعتقاداً ناشئاً عن نظر ، نافياً الضد والند ، بلا كيف ولا صورة .

(٦) آية ١١ من سورة الشورى .

(٧) أبو الحسن على بن أحمد بن سهل البوشنجى توفى سنة ٣٤٨ هـ بنيسابور .

(٨) هو الحلاج : أبو مغيث الحسين بن منصور . فيلسوف متعبد زاهد ؛ أصله من بيضاء فارس ، نشأ فى العراق . ظهر أمره سنة ٢٩٩ هـ وتوفى سنة ٣٠٩ هـ كثرت الوشايات به إلى المقتدر العباسى فسجن وعذب وهو صابر .

(٩) أحكم بأن جميع المخلوقات حادثة .

(١٠) فالحادث الذى يدرك بالجسم .

(١١) بالأداة : بالأسباب ، كالحياة ، وغيرها .

اجتماعه[١] فقواها تمسكه[٢] والذى يؤلِّفه وقت يفرقه وقت ، والذى يقيمه غيره فالضرورة تمسه[٣]. والذى الوهم يظفر به[٤] فالتصوير يرتقى إليه ؛ ومن آواه محل أدركه أين[٥]، ومن كان له جنس طالبه مكيِّف[٦] .

إنه سبحانه لا يظلّه فوق[٧]، ولا يقله تحت[٨]، ولا يقابله حد[٩] ولا يزاحمه عند[١٠]، ولا يأخذه[١١] خلْف ، ولا يحدُّه أمام ، ولم يظهره قبل ولم يفنه بعد[١٢] ولم يجمعه كلٌ ولم يوجده كان[١٣]، ولم يفقده ليس .

وصفه : لا صفة له[١٤]. وفعله : لا علة له[١٥]؛ وكونه : لا أمد له[١٦]. تنزَّه عن أحوال خلقه ، ليس له من خلقه مزاج ، ولا فى فعله علاج[١٧]. باينهم بقدمه ، كما باينوه بحدوثهم .

إن قلت : متى[١٨]، فقد سبق الوقتَ كونه[١٩]. وإن قلت : هو ، فالهاء والواو خلْقه وإن قلت : أين ، فقد تقدَّم المكانَ وجوده .

فالحروف آياته[٢٠]. ووجوده إثباته[٢١] ومعرفته توحيده[٢٢]. وتوحيده تمييزه من خلقه .

---

(١) اجتماعه : أى اجتماع حواسه الظاهرة والباطنة .
(٢) أى قوى هذه الأسباب تمسكه عن التفرق .
(٣) أى والذى يكون وجوده بغيره ، فشدة الافتقار إلى ذلك الغير لازمة له لزوماً ذاتيا .
(٤) يتخيله الذهن ويتعلق به .
(٥) أى ومن ثبت له التحيز والمكان جاز أن يسأل عنه بلفظ « أين » ، التى يسأل بها عن المكان .
(٦) أى سائل « بكيف » التى يسأل بها عن الحال ، وعن تميز أنواع الجنس الواحد .
(٧) فوق : علو ، أى ليس فوقه شيء .
(٨) لا يحمله سفل ، لأن ذلك تحيز وهو من عوارض الأجسام والله منزه عن ذلك .
(٩) حد : جهة .
(١٠) عند : محل .
(١١) يأخذه : يحده ويحصره .
(١٢) بل هو ظاهر قبل وجود الخلق وبعد .
(١٣) لا يقال فى حقه تعالى وجد فى وقت كذا .. لحدوث الزمان والحق - تعالى - أزلى قديم . ولثبوت قدمه لا يقبل الانتفاء (وهذا معنى قوله لا يفقده ليس) .
(١٤) أى لا كيفية له ولا يمكن إدراك حقيقة وصفه حتى يكيف ويصور .
(١٥) علة : غرض وباعث .
(١٦) وجوده لا نهاية له .
(١٧) معالجة بوسايط وأسباب للإيجاد .
(١٨) متى : أى متى وجد .
(١٩) كونه : وجوده .
(٢٠) أى مادة آياته ودلائله المنزلة على نبيه محمد ﷺ .
(٢١) لا يكفى مجرد الاعتقاد بوجوده ، بل لابد من إقامة الأدلة على ثبوته .
(٢٢) معرفته بصفاته وليده توحيده .

ما تُصوِّر فى الأوهام فهو بخلافه ، كيف يحلُّ به ما منه بدأه ؟ أو يعود إليه ما هو أنشأه ؟ لا تماقله[١] العيون ، ولا تقابله الظنون[٢] قربه كرامته[٣]، وبُعده إهانته ، علوهُ من غير توقُّل[٤] ومجيئه من غير تنقلٍ[٥] .

هو : الأول[٦]، والآخر[٧]، والظاهر[٨]، والباطن ، القريب البعيد الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

سمعت أبا حاتم السجستانى[٩] يقول : سمعت أبا نصر الطوسىَّ السرَّاج يحكى عن يوسف ابن الحسين ، قال : قام رجل بين يدى ذى النون المصرى[١٠]، فقال :

أخبرنى عن التوحيد : ما هو ؟ فقال هو : أن تعلم قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج ، وصنعه للأشياء بلا علاج ، وعلّة كل شىء صنعه[١١]، ولا علَّة لصنعه . وليس فى السموات العلا ، ولا فى الأرضين السفلى مدبِّر غير الله ، وكل ما تصوّر فى وهمك فالله بخلاف ذلك .

وقال الجنيد : التوحيد : علمك وإقرارك بأن الله فرد فى أزليته[١٢] لا ثانى معه ولا شىء يفعل فعله .

وقال أبو عبدالله بن خفيف : الإيمان : تصديق القلوب بما أعلمه الحق من الغيوب[١٣] .

وقال أبو العباس السيارى[١٤] : عطاؤه على نوعين : كرامة ، واستدراج فما أبقاه عليك فهو كرامة ، وما أزاله عنك فهو استدراج ، فقل : أنا مؤمن إن شاء الله تعالى . وأبو العباس السيارى كان شيخ وقته .

---

(١) لاتماقلة العيون : لا تراه بالمقل .
(٢) لا تدركه الأوهام والعقول ، لقصور الحادث عن إدراك القديم جل شأنه .
(٣) قربه من عبده إحسان له وإكرام .
(٤) علوه على عبده جلالة وعظمة ، لا علو مكان .
(٥) مجىء فضله ونزول أمره من غير حركة أو انتقال .
(٦) قبل كل شىء بلا بداية .
(٧) بعد كل شىء بلا نهاية .
(٨) آثار قدرته .
(٩) هو سهل بن محمد بن عثمان الجشمى توفى سنة ٢٤٨ هـ ، من أهل البصرة عالم له نيف وثلاثون كتاباً .
(١٠) هو أبو الفيض ذو النون المصرى الإخميمى . عالم صوفى ، ورع توفى سنة ٢٤٥ هـ .
(١١) قدرته أوجدت الكائنات فلا صانع غيره .
(١٢) منفرد فى أزليته ، لأنه كان ولا شىء معه .
(١٣) أى جزم القلوب وتصديقها بحقية الذى أعلمه الحق لنبيه من الأحكام والشرائع التى كانت تعد قبل البعثة مما غاب عن الخلق ، ولم تعلم إلا بوساطته ﷺ .
(١٤) ستأتى ترجمته .

سمعت الأستاذ أبا على الدَّقاق ، رحمه الله ، يقول : غمزَ رَجلٌ رِجل أبى العباس السيارى : فقال : تغمز رِجلا ما نَقلتها قط فى معصية الله عزَّ وجل !! .

وقال أبو بكر الواسطى[١] : من قال « أنا مؤمن بالله حقا » قيل له : الحقيقة تشير[٢] إلى إشراف ، وإطلاع ، وإحاطة ، فمن فقده بطل دعواه فيها .

يريد بذلك ما قاله أهل السنَّة : إن المؤمن الحقيقى من كان محكوما له بالجنة[٣] فمن لم يعلم ذلك من سرِّ حكمة الله تعالى[٤]، فدعواه : بأنه مؤمن حقا غير صحيحة .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى يقول : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت أبا الحسن العنبرى يقول : سمعت سهل بن عبدالله التسترى[٥] يقول : ينظر إليه ، تعالى ، المؤمنون[٦] بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية .

وقال أبو الحسين النورى[٧] : شاهد الحقُّ القلوبَ ، فلم ير قلبًا أشوق إليه من قلب محمد ﷺ ، فأكرمه بالمعراج ، تعجيلا للرؤية والمكالمة .

سمعت الإمام أبا بكر محمد بن الحسن بن فورك[٨]، رحمه الله تعالى ، يقول : سمعت محمد ابن المحبوب - خادم أبى عثمان المغربى - يقول : قال لى أبو عثمان المغربى يومًا :

يامحمد ، لو قال لك أحد : أين معبودك ؟ إيش تقول ؟

قال : قلت : أقول حيث لم يزل[٩] .

قال : فإن قال : أين كان فى الأزل[١٠] ؟ إيش تقول ؟

---

(١) هو أبو بكر محمد بن موسى الواسطى ؛ عالم كبير من خراسان من كبار اتباع الجنيد توفى بمرو سنة ٣٢٠ هـ .

(٢) تشير : تستلزم والمراد من العبارة أن الإيمان المجرد عن النظر الصحيح المؤدى إلى التصديق بكل ما جاء من عند الله لا ينفع وأن من لم يحصل له اعتقاد صحيح مستند إلى نظر قوى بطلت دعواه بأنه مؤمن بالله حقاً .

(٣) لاستناده إلى البرهان القوى الذى أوصله إلى الإيمان الحقيقى .

(٤) بأن نطق بالإيمان بلسانه مع خلو قلبه عن معانيه فدعواه غير صحيحة ؛ إذ النطق باللسان مع خلو القلب عن معانى الإيمان لا يغنى فى الخروج من أسر الجهالات والضلالات .

(٥) صوفى ورع ، لقى ذا النون وأخذ عنه الأكابر طبقة بعد طبقة . توفى بالبصرة سنة ٢٨٣ هـ .

(٦) فى الآخرة لقوله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة .

(٧) هو : أبو الحسين أحمد بن محمد النورى . بغدادى المولد والمنشأ ، من أقران الجنيد ، قال الخطيب البغدادى : هو أعلم العراقيين بلطائف القوم . توفى سنة ٢٩٥ هـ .

(٨) الأنصارى الأصبهانى ، من كبار الصوفية وفقهاء الشافعية توفى على مقربة من نيسابور ودفن بها سنة ٤٠٦ هـ .

(٩) أى على الحالة والصفة اللائقين به فيما لا يزال من الزمن المتجدد .

(١٠) على أى صفة كونه فى القدم ؟

قال : قلت : أقول حيث هو الآن ، يعنى : أنه كما كان ولا مكان فهو الآن كما كان[١] .

قال : فارتضى منى ذلك ، ونزع قميصه وأعطانيه .

سمعت الإمام أبا بكر بن فورك ، رحمه الله تعالى ، يقول : سمعت أبا عثمان المغربى ، يقول : كنت أعتقد شيئًا من حديث الجهة[٢]، فلما قدمت بغداد زال ذلك عن قلبى[٣]، فكتبت إلى أصحابنا بمكة : أنى أسلمت الآن إسلامًا جديدًا .

سمعت محمد بن الحسين السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا عثمان المغربى يقول ، وقد سئل عن الخلق ، فقال : قوالب وأشباح تجرى عليهم أحكام القدرة[٤] .

وقال الواسطى : لما كانت الأرواح والأجساد قامتا بالله[٥]، وظهرتا به لا بذواتها ، كذلك قامت الخطرات والحركات بالله لا بذواتها ، إذ الحركات والخطوات فروع الأجساد والأرواح[٦] . صرَّح بهذا الكلام أن أكساب العباد[٧] مخلوقة لله تعالى ، وكما أنه لا خالق للجواهر إلا الله تعالى ، فكذلك لا خالق للأعراض إلا الله تعالى .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن عبدالله يقول : سمعت أبا جعفر الصيدلانى يقول : سمعت أبا سعيد الخراز[٨] يقول : من ظنَّ أنه يبذل الجهد[٩] يصل إلى مطلوبه فمتَعنٍ[١٠]، ومن ظن أنه بغير الجهد يصل فمتمنٍ .

---

(١) لا مكان له ولا زمان .

(٢) أى كنت أميل إلى القول بالجهة له تعالى وأنه تعالى على العرش .

(٣) بعد أن سمع كلام المحققين والبراهين الدالة على تنزيهه عن الجهة .

(٤) تصرفهم قدرة الله ولا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًا .

(٥) وجدت بقدرته .

(٦) الحركات تابعة للأجسام ، والخواطر تابعة للأرواح ، والأرواح والأجسام موجودة بقدرة الله ، وهى أصل ، والحركات والخواطر فرع ، وماثبت للأصل من كونه وجد بقدرة الله يثبت كذلك للفرع .

(٧) أكتساب العباد : أفعالهم البدنية والقلبية .

(٨) هو : أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز ، من بغداد توفى سنة ٢٧٧ هـ . شيخ الصوفية . عارف بالله ، صحب ذا النون المصرى وغيره من أقطاب الصوفية . له كتاب « الطريق إلى الله » وغيره .

(٩) الجهد : فتح الجيم وضمها : الطاقة .

(١٠) متعن : متعب نفسه ، مجهد لها . وقال الشيخ العروسى « إن الوصول بمعنى القرب من رحمته سبحانه وتعالى ، لا يلزم ترتبه على العمل ، بل الاعتبار بما سبق به القضاء الأزلى ، مما لا إطلاع لنا عليه ، وحينئذ فلا يصح الاعتماد على خير العمل ، ولا القنوط من شر ، لجهل المقدر ، فعلى العبد الامتثال مع التفويض إليه تعالى : وغاية الأمر أن الاستقامة على الأعمال الخيرية علامة على حسن العاقبة .

وقال الواسطى : المقامات[1] أقسام قُسِّمت[2]، ونعوت أجريت ، كيف تُستجلب بحركات ؟ أو تنال بسعايات[3] ؟ .

وسئل الواسطى عن الكفر بالله أو لله ، فقال : الكفر والإيمان ، والدنيا والآخرة : من الله ، وإلى الله ، وبالله ، ولله : من الله ابتداءً وإنشاء ، وإلى الله مرجعًا وانتهاءً ، وبالله بقاءً وفناءً ، ولله ملكًا وخلقًا .

وقال الجنيد : سئل بعض العلماء عن التوحيد ، فقال : هو اليقين .

فقال السائل : بيِّن لى ما هو ؟

فقال : هو : معرفتك ، أن حركات الخلق وسكونهم ، فعل الله عزَّ وجلَّ ، وحده ، لا شريك له فإذا فعلت ذلك فقد وحَّدته .

سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ، يقول : سمعت عبدالواحد بن على ، يقول : سمعت القاسم بن القاسم يقول سمعت محمد بن موسى الواسطى يقول محمد بن الحسين الجوهرى يقول : سمعت ذا النون المصرى يقول ، وقد جاءه رجل فقال : ادع الله لى فقال :

إن كنت قد أيدت فى علم الغيب[4] بصدق التوحيد ، فكم من دعوة مجابة قد سبقت لك ، وإلا فإن النداء لا يُنقذ الغرقى[5] .

وقال الواسطى : ادَّعى فرعون الربوبية على الكشف[6] ، وادَّعت المعتزلة على الستر ، نقول : ما شئت فعلت[7] .

وقال أبو الحسين النورى : التوحيد : كلُّ خاطر يشير إلى الله تعالى ، بعد أن لا تزاحمه خواطر التشبيه .

وأخبرنا الشيخ أبو عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله تعالى ، قال : سمعت عبدالواحد بن على

---

(١) المقامات : الطرق الموصلة إليه تعالى كالزهد والورع وغيرهما .

(٢) قسمت : قدرت بتقدير الله .

(٣) وما دامت الأعمال والحركات لا توصل إلى الدرجات العالية ، فاللازم فى حق العبيد القيام بمقتضى الأمر والنهى مع تفويض القبول وعدمه إلى الله تعالى ، حتى يدوم لهم الخوف والرجاء اللذان بهما تتحقق لهم العبودية .

(٤) أى فى علم الله .

(٥) أى وإن لم تكن مؤيداً فى علم الغيب ، فمجرد الدعاء لا ينتج حصول المطلوب بعينه ، كمجرد نداء الغريق بدون اتخاذ الأسباب لإخراجه من الغرق .

(٦) أى بصريح العبارة حيث قال « أنا ربكم الأعلى » .

(٧) المعتزلة ، ذهبوا إلى أنهم خلقوا أفعالهم الاختيارية ، وقالوا « ماشئنا فعلنا » والحق أنه لا يفعل ما يشاء إلا الحق سبحانه وتعالى .

بكر ، يقول : سمعت هلال بن أحمد يقول : سئل أبو على الروذبارى[١] عن التوحيد ، فقال : التوحيد : استقامة القلب بإثبات مفارقة التعطيل ، وإنكار التشبيه ، والتوحيد فى كلمة واحدة : كل ما صورَّه الأوهام والأفكار فالله سبحانه بخلافه ، لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[٢].

وقال أبو القاسم النصر أباذى[٣] : الجنة باقية بإبقائه ، وذكرُه لك ، ورحمته ، ومحبته لك باق ببقائه ، فشتان بين ما هو باق ببقائه ، وبين ما هو باق بإبقائه[٤] .

وهذا الذى قاله الشيخ أبو القاسم النصر أباذى ، هو غاية فى التحقيق ؛ فإن أهل الحق قالوا صفات ذات القديم سبحانه : باقيات ببقائه تعالى . فنبه على هذه المسألة وبين أن الباقى باقٍ ببقائه بخلاف ما قاله مخالفو أهل الحق[٥] « فخالفوا الحق » .

أخبرنا محمد بن الحسين ؛ قال : سمعت النصر أباذى يقول : أنت متردد بين صفات الفعل وصفات الذات ، وكلاهما صفته تعالى ، على الحقيقة ، فإذا هيمَّك[٦] فى مقام التفرقة قرّنك بصفات فعله ، وإذا بلَّغك إلى مقام الجمع قرنك بصفات ذاته ، وأبو القاسم النصر أباذى كان شيخ وقته .

سمعت الإمام أبا إسحق الإسفراينى ، رحمه الله ، يقول : لما قدمت من بغداد كنت أدرس فى جامع نيسابور مسألة الروح ، وأشرح القول فى أنها مخلوقة ، وكان أبو القاسم النصر أباذى قاعدًا متباعدًا عنا ؛ يصغى إلى كلامى ، فاجتاز بنا بعد ذلك يومًا – بأيام قلائل ، فقال لمحمد الفراء : اشهد أنى أسلمت جديدًا على يد هذا الرجل ، وأشار إلىّ[٧] .

سمعت محمد بن الحسين السلمى ، يقول : سمعت أبا حسين الفارسى يقول : سمعت إبراهيم بن فاتك يقول : سمعت الجنيد يقول : متى يتصل من لا شبيه له ولا نظير له بمن له

---

(١) هو : أبو على أحمد بن محمد الروذبارى . أقام بمصر ومات بها سنة ٣٢٢ هـ وولد ببغداد ، كان إماما من أئمة الصوفية ، وأعلم أهل زمانه بها .

(٢) آية ١١ من سورة الشورى .

(٣) هو : أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر أباذى ، كان محدثا زاهداً ورعاً وكان فى علم التصوف إماماً ، مات بمكة سنة ٣٦٦ هـ .

(٤) الجنة . وما أعده الله فيها للمؤمنين ، كل ذلك من الذى يبقى بإبقاء الله تعالى له ، ومحبة الله : وذكره لعبده ، من الذى يبقى ببقاء الذات : فالثانى أفضل وأشرف من الأول .

(٥) من أنه لا يبقى شيء ببقائه . والغرض مما قاله الشيخ : أنه ينبغى للعبد أن يكون مشتغلا بنيل ذكر الله له . ومحبته له وشرف منزلته عنده ، دون ما يخلقه له من كرامة دنيوية أو أخروية .

(٦) هيمك : فرق قلبك ووزعه .

(٧) لأنه كان يعتقد قدم الروح ؛ فلما سمع منه أدلة حدوثها صرح بذلك للتصريح السابق .

شبيه ونظير ؟! هيهات ، هذا ظن عجيب إلا بما لطف اللطيف من حيث لا درك ، ولا وهْم ، ولا إحاطة إلا إشارة اليقين وتحقيق الإيمان .

أخبرنا محمد بن الحسين ، رحمه الله تعالى ، قال : سمعت عبدالواحد بن بكر يقول : حدثنى أحمد بن محمد بن على البرذعى ، قال : حدثنا طاهر بن إسماعيل الرازى ، قال : قيل ليحيى بن معاذ : أخبرنى عن الله عزَّ وجل .

فقال : إله واحد .

فقيل له : كيف هو ؟

فقال : ملك قادر .

فقيل : أين هو ؟

فقال : هو بالمرصاد .

فقال السائل : لم أسألك عن هذا !! ..

فقال : ما كان غير هذا كان صفةَ المخلوق .فأما صفته فما أخبرتك عنه .

وأخبرنا محمد بن الحسين ، قال : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول : كل ماتوهمه[١] متوهم بالجهل أنه كذلك ، فالعقل يدل على أنه بخلافه .

وسأل ابن شاهين الجنيدَ عن معنى : مع[٢] .

فقال : مع ، على معنيين : مع الأنبياء بالنصرة والكلاءة[٣]، قال الله تعالى ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾[٤] .

ومع العامة بالعلم والإحاطة[٥]، قال تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾[٦] .

فقال ابن شاهين : مثلك يصلح أن يكون دالاًّ للأمة على الله .

وسئل ذو النون المصرى عن قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ .

---

(١) توهمه : تخيله . وكل تخيل بالنسبة لله تعالى إنما هو وهم .

(٢) فيما فيه المعية من الله بالنسبة إلى خلقه ، نحو قوله تعالى « وهو معكم أينما كنتم » وقوله « إن الله مع الذين اتقوا » .

(٣) الكلاءة : الحفظ .

(٤) آية ٤٦ من سورة طه .

(٥) وبهذا التفسير ظهر استحالة أن يكون معنى « المعية المصاحبة أو المجاورة أو المداناة .

(٦) آية ٧ من سورة المجادلة .

فقال : أثبتَ ذاته ونفى مكانه ، فهو موجود بذاته ، والأشياء موجودة بحكمه ، كما شاء سبحانه .

وسئل الشبلى[١] عن قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ فقال : الرحمن لم يزل[٢]، والعرش محدث والعرش بالرحمن استوى[٣]. وسئل جعفر بن نصير عن قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ فقال : استوى علمه بكل شىء فليس شىء أقرب إليه من شىء وقال جعفر الصادق[٤] : من زعم أن الله فى شىء ، أو من شىء ، أوعلى شىء ، فقد أشرك ؛ إذ لو كان على شىء لكان محمولاً ، ولو كان فى شىء لكان محصورًا ، ولو كان من شىء لكان محدثًا[٥] .

وقال جعفر الصادق أيضًا فى قوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ : من توهَّم أنه بنفسه دنا جعل ثَمَّ مسافة ، إنما التدانى أنه كلما قرب منه بَعَّده عن أنواع المعارف[٦] إذ لا دنوَّ ولا بُعد .

ورأيت بخط الأستاذ أبى علىّ أنه قيل لصوفىّ : أين الله ؟ .

فقال : أسحقك الله !! تطلب مع العين أين ؟! .

أخبرنا الشيخ أبو عبدالرحمن السلمى ، سمعت أبا العباس بن الخشاب البغدادى يقول : سمعت أبا القاسم بن موسى يقول : سمعت محمد بن أحمد يقول : سمعت الأنصارى[٧] يقول : سمعت الخراز يقول :

حقيقة القرب : فقد حِس الأشياء من القلب وهدوء الضمير إلى الله تعالى :

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن على الحافظ يقول : سمعت أبا معاذ

---

(١) هو : أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى ، بغدادى المولد والمنشأ ، ولد سنة ٢٤٧ هـ وتوفى ٣٣٤ هـ ، صحب الجنيد ، وكان إمام زمانه علماً وورعًا ومعرفة .

(٢) أى قديم .

(٣) أى والعرش بقدرة الرحمن استوى . فهو تعالى مستغن عنه وعن غيره ، وإنما خلقه إظهاراً لعظمته ، لامكاناً لذاته ، لتعاليه عن ذلك .

(٤) هو أبو عبد الله ، جعفر بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين ، الهاشمى القرشى ، سادس الأئمة الأثنى عشر عند الإمامية كان من التابعين وعنه أخذ جماعة منهم : أبو حنيفة ومالك وجابر بن حيان . ولد سنة ٨٠ هـ وتوفى سنة ١٤٨ هـ .

(٥) سئلت أم سلمة رضى الله عنها عن قوله « الرحمن على العرش استوى » فقالت : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والجحود له كفر .

وسئل عنه الإمام مالك رضى الله عنه فقال : « الاستواء منه غير مجهول والكيف به غير معقول . والإيمان به سنة والسؤال عنه بدعة » .

(٦) قرب منه بقلبه ومناجاته ، بعدت عنه أنواع المعارف الدنيوية الحسية : لاشتغاله بمولاه لا بما عداه .

(٧) هو : أحمد بن عمر بن محمد الأنصارى المرسى .

القزوينى يقول : سمعت أبا الدقّاق يقول : سمعت أبا عبدالله بن قهرمان يقول : سمعت إبراهيم الخواص[١] يقول :

انتهيت إلى رجل ، وقد صرعه الشيطان ، فجعلت أؤذن فى أذنه ، فنادانى الشيطان من جوفه : دعنى أقتله ؛ فإنه يقول القرآن مخلوق .

وقال ابن عطاء[٢] : إن الله تعالى : لما خلق الأحرف جعلها سرًا له ، فلما خلق آدم عليه السلام بث فيه ذلك السر[٣]، ولم يبث ذلك السر فى أحد من ملائكته ، فجرت الأحرف على لسان آدم عليه السلام بفنون الجريان وفنون اللغات ، فجعلها الله صورًا لها[٤]. صرح ابن عطاء القول بأن الحروف مخلوقة .

وقال سهل بن عبدالله : إن الحروف لسان[٥] فعل ، لا لسان ذات ؛ لأنها فعل[٦] فى مفعول[٧] .

قال : وهذا أيضًا تصريح بأن الحروف مخلوقة .

وقال الجنيد فى جوابات مسائل الشاميين : التوكل عمل القلب ، والتوحيد قول القلب ، قال : هذا قول أهل الأصول ، إن الكلام : هو المعنى الذى قام بالقلب من معنى الأمر والنهى ، والخبر ، والاستخبار .

وقال الجنيد فى جوابات مسائل الشاميين أيضًا : تفرد الحق بعلم الغيوب ، فعلم ما كان ، وما يكون ، وما لايكون : أن لو كان كيف كان يكون .

وقال الحسين بن منصور : من عرف الحقيقة فى التوحيد سقط عنه[٨] : لِمَ وكيف .

أخبرنا محمد بن الحسين ، قال : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت جعفر بن محمد يقول : قال الجنيد : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد .

وقال الواسطى : ما أحدث الله شيئًا أكرم من الروح . صرَّح بأن الروح مخلوقة .

---

(١) هو : أبو اسحق إبراهيم بن أحمد الخواص ، لازم الجنيد ، وتوفى سنة ٢٩١هـ .
(٢) أحمد بن عطاء الروذبارى .
(٣) علمه إياه .
(٤) أى أصبحت هذه الحروف قوالب للمعانى على حسب اختلاف اللغات .
(٥) أى دالة .
(٦) أى مخلوق من جملة ما خلق .
(٧) أى فى مختلف اللغات .
(٨) أى سقط عنه الاعتراض على ما يشاهده ، ولم يقع منه سؤال بلم كان كذا ؟ ، أو كيف كان كذا ؟.

قال الأستاذ الإمام زين الإسلام أبو القاسم[1]، رحمه الله : دلت هذه الحكايات على أن عقائد مشايخ الصوفية توافق أقاويل أهل الحق[2] فى مسائل الأصول .

وقد اقتصرنا على هذا المقدار خشية خروجنا عما أثرناه من الإيجاز والاختصار .

---

(١) القشيرى .

(٢) أهل السنة والجماعة .

فصـــل

قال الأستاذ زين الإسلام أبو القاسم ، أدام الله عزَّه :

وهذه فصول تشتمل على بيان عقائدهم فى مسائل التوحيد ذكرناها على وجه الترتيب .

قال شيوخ هذه الطريقة ، على مايدلُّ عليه متفرقات كلامهم ، ومجموعاتها ، ومصنفاتهم فى التوحيد :

إن الحق ، سبحانه وتعالى : موجود ، قديم[١]، واحد[٢]، حكيم[٣]، قادر[٤]، عليم[٥]، قاهر[٦]، رحيم ، مريد ، سميع ، مجيد ، رفيع[٧]، متكلم ، بصير ، متكبر[٨]، قدير ، حيٌّ ، أحد ، باق[٩]، صمد[١٠] .

وأنه عالم بِعِلم ، قادر بقدرة ؛ مريد بإرادة ؛ سميع بسمع ؛ بصير ببصر ؛ متكلم بكلام ؛ حيٌّ بحياة ؛ باقٍ ببقاء .

وله يدان هما صفتان ؛ يخلق بهما ما يشاء ، سبحانه ، على التخصيص

وله الوجه[١١]. وصفات ذاته[١٢] مختصة بذاته ، لا يقال هى هو ، ولا هى أغيار له ، بل هى صفات أزلية[١٣]، ونعوت سرمدية[١٤]، وأنه أحديُّ الذات ، ليس يشبه شيئًا من المصنوعات ، ولا

---

(١) قديم : لا أول لوجوده .
(٢) واحد : لا ثانى له فى الألوهية .
(٣) حكيم : يضع الشىء فى موضعه .
(٤) قادر : لا يعجزه شىء .
(٥) عليم : لا يعزب عن علمه شىء .
(٦) قاهر : غالب .
(٧) رفيع : عظيم .
(٨) متكبر : متعظم ومتعال على غيره .
(٩) باق : باق على الدوان فلا يلحقه العدم .
(١٠) صمد : مقصود .
(١١) الوجه : الذات وفى نسخة : الوجه الجميل .
(١٢) كالعلم والقدرة ، مختصة بذاته لا تتجاوزه إلى غيره ؛ لأنها قديمة ، وغيره حادث والقديم لا يتعلق بالحادث .
(١٣) أزلية : قديمة ، نسبة إلى الأزل وهو القدم .
(١٤) أوصاف دائمة .

يشبهه شيء من المخلوقات ، ليس بجسم ، ولا جوهر ولا عرض ، ولا صفاته أعراض ، ولا يتصورٌ فى الأوهام ، ولا يتقدَّر فى العقول ، ولا له جهة ولا مكان ، ولا يجرى عليه وقت وزمان ، ولا يجوز فى وصفه زيادة ولا نقصان ، ولا يخصُّه هيئة وقد[١]، ولا يقطعه[٢]نهاية وحدٌّ ، ولا يحله حادث ، ولا يحمله على الفعل باعث[٣]، ولا يجوز عليه لون ولا كوْن ، ولا ينصره مدد ولاعون ؛ ولا يخرج عن قدرته مقدور ؛ ولا ينفك عن حكمه مفطور[٤] ؛ ولا يعزب[٥] عن علمه معلوم ؛ ولا هو على فعله كيف يصنع ملوم ؛ لا يقال له : أين ؛ ولا حيث ؛ ولا كيف[٦]؛ ولا يُستفتح له وجود : فيقال : متى كان : ولا ينتهى له بقاء : فيقال استوفى الأجل والزمان ، ولايقال : لِمَ فعل ما فعل ؛ إذ لا علَّة لأفعاله[٧]؛ ولايقال ما هو ؛ إذ لا جنس له فيتميز بأمارة عن أشكاله[٨] يُرى لا عن مقابلة ، ويَرى غيره لا عن مماقلة ، ويصنع لا عن مباشرة ومزاولة . له الأسماء الحسنى ، والصفات العلا ، يَفعل ما يريد ، ويذل لحكمه العبيد ، لا يجرى فى سلطانه إلا ما يشاء ، ولا يحصل فى ملكه غير ما سبق به القضاء ، ما علم أنه يكون من الحادثات أراد أن يكون ، وما علم أنه لا يكون ، مما جاز أن يكون : أراد أن لا يكون ، خالق أكساب العباد : خيرها وشرِّها . ومبدع ما فى العالم من الأعيان والآثار : قُلها وكُثْرها ومرسل الرسل إلى الأمم من غير وجوب عليه .

ومتعبِّد الأنام على لسان الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ؛ بما لا سبيل لأحد باللوم والاعتراض عليه ، ومؤيد نبينا محمد ﷺ ، بالمعجزات الظاهرة ، والآيات الباهرة ، بما أزاح به العذر ، وأوضح به اليقين والنُكر ، وحافظ بيضة[٩] الإسلام بعد وفاته ، ﷺ ، بخلفائه الراشدين ، ثم حارس الحق وناصره بما يوضحه من حجج الدين على ألسنة أوليائه ، عصم الأمة الحنفية عن الاجتماع على الضلالة ، وحسم مادة[١٠] الباطل بما نصب من الدلالة ، وأنجز ما وعد من نصرة الدين بقوله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[١١] .

فهذه : فصول تشير إلى أصول المشايخ على وجه الإيجاز . وبالله التوفيق .

---

(١) هيئة وقد : كيفية ومقدار .
(٢) يقطعه : يعدمه .
(٣) لأنه منزه عن الغرض والعلة وإن كانت أفعاله لا تخلو من حكمة .
(٤) مفطور : مخلوق .
(٥) يعزب : يغيب .
(٦) لأنه منزه عن المكان والكيفية .
(٧) لا يسأل عما يفعل .
(٨) أشكاله : أمثاله .
(٩) عزه وجماعته .
(١٠) مادة : أصل ومنشأ .
(١١) آية : ٣٣ من سورة التوبة .

بـاب

فى ذكر مشايخ هذه الطريقة[١]

وما يدلُّ من سيرهم وأقوالهم على تعظيم الشريعة[٢]

اعلموا ، رحمكم الله تعالى ، أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ :

لم يتسمَّ أفاضلهم فى عصرهم بتسمية عَلَم ، سوى صحبة رسول الله ﷺ ، إذ لا فضيلة فوقها ، فقيل لهم : الصحابة .

ولمَّا أدركهم أهل العصر الثانى سمى من صحب الصحابة : التابعين . ورأوا فى ذلك أشرف سِمة[٣]. ثم قيل لمن بعدهم : أتباع التابعين .

ثم اختلف الناس ، وتباينت المراتب ، فقيل لخواص الناس مِمَّن لهم شدة عناية بأمر الدين : الزّهاد والعُبَّاد .

ثم ظهرت البدع ، وحصل التداعى[٤] بين الفرق ، فكل فريق ادَّعوا أن فيهم زهادًا .

فانفرد خواصُّ أهل السُّنة المراعون أنفاسهم[٥] مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم « التصوف » .

واشتهر هذا الأسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة .

ونحن نذكر فى هذا الباب أسامى جماعة من شيوخ هذه الطريقة ، من الطبقة الأولى إلى وقت المتأخرين منهم ، ونذكر جُملا من سِيَرهم ، وأقاويلهم ، بما يكون فيه تنبيه على أصوله ، وآدابهم إن شاء الله تعالى .

---

(١) أى الطريقة المعنوية المعبر بها عن القيام بوظائف العبادات ، والمتوصل بها إلى المقامات : كالزهد والورع وغيرها .

(٢) الشريعة : ما شرعه الله لعباده من الدين .

(٣) سمة : علامة .

(٤) التداعى : التنازع .

(٥) الدائمون على الاشتغال بالعبادة مع المراقبة ، فلا يخرج لهم نفس إلا حاسبوا أنفسهم عليه .

فمنهم :

أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور

من كُورة بلخ ، رضى الله تعالى عنه .

كان من أبناء الملوك ، فخرج يومًا متصيِّدًا ، فأثار ثعلبًا أو أرنبًا وهو فى طلبه ، فهتف به هاتف[١] : يا إبراهيم ، ألهذا خلقتَ ، أم بهذا أُمرت ؟ .

ثم هُتف به أيضًا من « قربوس »[٢] سرجه : والله ما لهذا خُلقت ، ولا بهذا أُمرت .

فنزل عن دابته .

وصادف راعيًا لأبيه ، فأخذ جُبَّةً للراعى من صوف ، ولبسها وأعطاه فرسه وما معه ، ثم إنه دخل البادية ، ثم دخل مكة ، وصحب بها سفيان الثورى[٣] .

والفضيل[٤] بن عياض ، ودخل الشام ومات بها .

وكان يأكل من عمل يده ، مثل : الحصاد ، وحفظ البساتين ، وغير ذلك .

وأنه رأى فى البادية رجلًا علَّمه « اسم الله الأعظم » فدعا به بعده[٥] ، فرأى الخضر عليه السلام ، وقال له : إنما علَّمك أخى داود اسم الله الأعظم .

---

(١) من ملك أو حاطر وقع فى قلبه ملهمًا .

(٢) القربوس (بفتح القاف) حنو السرج أى : قسمة المقوس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره .

(٣) هو : سفيان بن سعيد الثورى ولد سنة ٩٧ هـ وتوفى بالبصرة سنة ١٦١ هـ وكان عالمًا عابدًا زاهدًا ، كانوا يسمونه أمير المؤمنين فى الحديث وكان لا يعلم أحدًا العلم إلا إذا تعلم الأدب والتزمه ، وكان يقول : إذا فسد العلماء فمن بقى فى الدنيا يصلحهم ؟ ثم ينشد :

يـــا معشـــر العلماء يـــا مـلح البـلد ٭ من يصلح الملح إذا المـلح فســـد ؟

وكان إذا جلس للعلم ، وأعجبه منطقه ، يقطع الكلام – خوفًا من الغرور – ويقوم ويقول : أخذنا ونحن لا نشعر ، وكان يملى الحديث ، ويقول : والله لو رآنى عمر بن الخطاب لضربنى بالدرة وأقام لى ، وقال « مثلك لا يصلح للحديث » .

وكان يقول للناس – إذا طلبوا منه الحديث : والله ما أرى نفسى أهلًا لإملاء الحديث ، ولا أنتم أهلًا لأن تسمعوه وما مثلى ومثلكم إلا كما قال القائل : « افتضحوا فاصطلحوا » . وكان قد امتنع من الجلوس للعلم فقيل له فى ذلك ، فقال : والله لو علمت أنهم يريدون بالعلم وجه الله لأتيتهم فى بيوتهم وعلمتهم ولكن إنما يريدون به المباهاة وقولهم حدثنا سفيان » . وكان رحمه الله من أعلم هذه الأمة وأعبدها وأزهدها .

(٤) هو أبو على الفضيل بن عياض بن مسعود التميمى اليربوعى شيخ الحرم من أكابر العباد الصلحاء . كان ثقة فى الحديث : أخذ عنه الإمام الشافعى . ومولده فى سمر قند سنة ١٠٥ هـ وتوفى بمكة سنة ١٨٧ هـ .

(٥) أى بعد انصراف الرجل .

أخبرنا بذلك الشيخ أبو عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، قال : حدثنا محمد بن الحسين بن الخشاب قال : حدثنا أبو الحسن على بن محمد المصرى ، قال : حدثنا أبو سعيد الخراز قال : حدثنا إبراهيم بن بشَّار قال : صحبت إبراهيم بن أدهم ، فقلت : خبِّرنى عن بدء أمرك فذكر هذا .

وكان إبراهيم بن أدهم كبير الشأن فى باب الورع ، ويحكى عنه أنه قال :

أطب مطعمك ، ولا حرج عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار

وقيل : كان عامة[1] دعائه : « اللهم انقلنى من ذلِّ معصيتك إلى عزِّ طاعتك » وقيل لإبراهيم بن أدهم : إن اللحم قد غلا !! .

فقال : أرخصوه أى : لا تشتروه . وأنشد فى ذلك :

وإذا غـلا شيء عـلىَّ تركتـه   فيكون أرخص ما يكون إذا غـلا

أخبرنا محمد بن الحسين ، رحمه الله تعالى ، قال : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت محمد بن حامد يقول سمعت أحمد بن خضرويه يقول ، قال إبراهيم بن أدْهم لرجل فى الطواف :

أعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات :

أولاها : تغلق[2] باب النعمة ، وتفتح[3] باب الشدَّة .

والثانية : تغلق باب العزِّ ، وتفتح باب الذلِّ .

والثالثة : تغلق باب الراحة ، وتفتح باب الجهد .

والرابعة : تغلق باب النوم ؛ وتفتح باب السهر .

والخامسة : تغلق بابا الغنى ، وتفتح باب الفقر .

والسادسة تغلق باب الأمل ، وتفتح باب الاستعداد للموت .

وكان إبراهيم بن أدهم يحفظ كَرْمًا ، فمرَّ به جندى ، فقال : أعطنا من هذا العنب فقال : ما أمرنى به صاحبُه .

---

(١) عامة : أكثر .

(٢) تغلق : تعرض .

(٣) تفتح : تتعرض .

فأخذ يضربه بسوطه ، فطأطأ رأسه وقال :

اضرب رأسًا طالما عصى الله . فأعجز الرجل ومضى .

قال سهل بن إبراهيم : صحبت إبراهيم بن أدهم ، فمرضت ، فأنفق عليَّ نفقته فاشتهيت شهوة ، فباع حماره وأنفق عليَّ ثمنه ، فلما تماثلت ، قلت :

يا إبراهيم ، أين الحمار ؟ فقال : بعناه ، فقلت : فعلى ماذا أركب ؟ فقال : يا أخى على عنقى ، فحملنى ثلاث منازل .

ومنهم :

أبو الفيض ذو النون المصرى

واسمه : ثوبان بن إبراهيم ، وقيل الفيض بن إبراهيم ، وأبوه كان نوبيا[١].

تُوفى سنة : خمس وأربعين ومائتين . فائق فى[٢] هذا الشأن ، وأوحد وقته علمًا ، وورعًا ، وحالا ، وأدبًا .

سعَوا به إلى المتوكِّل ، فاستحضره من مصر ، فلما دخل عليه وعظَه فبكى المتوكِّل وردَّه إلى مصر مكرَّمًا ، وكان المتوكل إذا ذُكر بين يديه أهل الورع يبكى ويقول : إذا ذكر أهل الورع فحيهلا[٣] بذى النون .

وكان رجلًا نحيفًا ، تعلوهُ حمرة ، ليس بأبيض اللحية .

سمعت أحمد بن محمد يقول : سمعت سعيد بن عثمان يقول : سمعت ذا النون يقول : مدار الكلام على أربع :

حبُّ الجليل ، وبغض القليل ، واتِّباع التنزيل ، وخوف التحويل[٤] .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ؛ يقول : سمعت سعيد بن أحمد بن جعفر يقول : سمعت محمد بن أحمد بن سهل يقول : سمعت سعيد بن عثمان يقول : سمعت ذا النون المصرى يقول :

من علامات المحبِّ لله عزَّ وجل : متابعة حبيب الله ، ﷺ ، فى أخلاقه ، وأفعاله ، وأوامره ، وسننه .

---

(١) أصله من النوبة ، ثم نزل بأخميم من ديار مصر فأقام بها .

قال ابن يونس : امتحن وأوذى « لكونه أتى بعلم لم يعهد ، روى عن مالك والليث ، وروى عنه كثيرون منهم : الحسن بن مصعب ، وابن صبيح ، والطائى .

سمع يومًا صوت لهو دفاف ، فقال : ما هذا ؟ قيل له : عرس ، وسمع بجانبه بكاء وصياحًا ، فقال : ما هذا ؟ قيل : فلان مات . فقال : أعطى هؤلاء فما شكروا وابتلى هؤلاء فما صبروا .

ومن كلامه : « من راقب العواقب سلم » و « والزهاد ملوم الآخرة وهم فقراء العارفين » و « من وثق بالمقادير لم يغتم » و « الأنس بالله نور ساطع والأنس بالناس سم قاطع » و « مفتاح العبادة الفكرة » و « علامة الإصابة مخالفة النفس ، والعبودية أن تكون عبده فى كل حال كما هو ربك فى كل حال » .

(٢) فى نسخة بدون : فى .

(٣) أى فأسرع بذكره ؛ فإنه أفضلهم .

(٤) التحويل : التغيير من حال إلى حال أسوأ ، وزيد فى بعض النسخ بعد العبارة الماضية « فإذا عرف العبد ربه ودنياه ، وتمت استقامته . وخاف على نفسه من الخاتمة فقد استقامت أحواله » .

وسئل ذو النون عن السِّفلة فقال : من لا يعرف الطريق إلى الله ، ولا يتعرفه .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر محمد بن عبدالله ابن شاذان يقول : سمعت يوسف بن الحسين يقول :

حضرت مجلس ذى النون يومًا ؛ وجاءه سالم المغربى ، فقال له : يا أبا الفيض ، ما كان سبب توبتك ؟ قال : عجب لا تطيقه ، قال : بمعبودك إلا أخبرتنى .

فقال ذو النون : أردت الخروج من مصر إلى بعض القرى ، فنمت فى الطريق فى بعض الصحارى ، ففتحت عينى ، فإذا أنا[1] بـ « قنبرة » عمياء سقطت من وكرها على الأرض ، فانشقت الأرض ، فخرج منها « سكرجتان »[2] : إحداهما ذهب ، والأخرى فضة وفى إحداهما سمسم ، وفى الأخرى ماء ، فجعلت تأكل من هذا ، وتشرب من هذا .

فقلت : حسبى ، قد تبت ، ولزمت الباب إلى أن قبلنى الله عز وجل .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت علىَّ بن عمر الحافظ يقول : سمعت ابن رشيق : يقول : سمعت أبا دجانة يقول : سمعت ذا النون يقول :

لا تسكن الحكمة[3] معدة مُلئت طعامًا .

وسئل ذو النون عن التوبة[4] فقال :

توبة العوام[5] تكون من الذنوب ، وتوبة الخواصِّ تكون من الغفلة[6].

---

(١) طائر .

(٢) سكر جتان (مثنى ، والواحدة سكرجة بضم السين) وهى : الصفحة التى يوضع فيها الأكل :

(٣) الحكمة : العلم النافع مع العمل المتقن . قال العروسى : « إن الحكمة حكمتان : منطوق بها ، وهى : علوم الشريعة والطريقة ، ومسكوت عنها ، وهى أسرار الحقيقة التى لا يفهمها علماء الرسوم والعامة ؛ والحكمة المجهولة : هى ما غاب عنا وجهها من أحكام سر القدر الذى استأثر الله بعلمه .. وكل ذلك إنما يتوصل إليه بالجوع الموجب للنشاط فى العبادة ، والمؤثر فى تنوير القلوب حتى تدرك جواهر العلوم قال ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، حسب المسلم أكلات يقمن صلبه . فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه وثلث لنفسه » .

(٤) وهى – على الحقيقة – إقلاع التائب عما يتوب عنه ، وعزمه على أن لا يعود إليه ، ورده ظلامه الآدمى إن تعلقت به ..

(٥) قال العروسى « اعلم أنهم يريدون من العوام : القائمين بما عليهم من أحكام الأوامر والنواهى » ثم قال : « حرية العامة بالتخلص من رق الشهوات ، والخاصة بالتخلص من رق العادات ، وخاصة الخاصة بالتخلص من الوقوف مع الأحوال والمقامات حيث تكون لهم أنفة لا ترضى إلا بمشاهدة الذات » .

(٦) أى الغفلة عن الطاعات .

ومنهم :

أبو على الفضيل بن عياض[١]

خرسانى [٢] ، من ناحية مرو .

وقيل إنه وُلد بسمرقند ، ونشأ بأبيَورد مات بمكة فى المحرم سنة : سبع وثمانين ومائة .

سمعت محمد بن الحسين يقول : أخبرنا أبو بكر محمد بن جعفر قال : حدثنا الحسن بن عبدالله العسكرى ، قال : حدثنا ابن أخى أبى زرعة ، قال : حدثنا محمد بن إسحق بن راهويه قال : حدثنا أبو عمار ، عن الفضل بن موسى ، قال :

كان الفضيل شاطرًا[٣]: يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس ، وكان سبب توبته : أنه عشق جارية ، فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تاليًا يتلو : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِين آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ ﴾[٤] فقال : يارب قد آن .

فرجع .. فآواه الليل إلى خرِبة ، فإذا فيها رُفقة[٥]، فقال بعضهم : نرتحل ، وقال قوم : حتى نصبح ، فإن فضيلا على الطريق يقطع علينا .

فتاب الفضيل[٦] وأمَّنهم . وجاور الحرم حتى مات .

وقال الفضيل بن عياض : إذا أحبَّ عبدًا أكثر غمَّه[٧]، وإذا أبغض عبدًا وسَّع عليه دنياه[٨] .

وقال ابن المبارك : إذا مات الفضيل ارتفع الحزن[٩] .

---

(١) هو : الفضيل بن مسعود بن بشر التميمى ، كان إمامًا ربانيًا صمديًا عابدًا شديد الخوف دائم الفكر ، من كلامه « قلوب العارفين : الهموم عمرانها والأحزان أوطانها » و « جعل الله الشر كله فى بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه الزهد فيها » و « من خاف الله لم يضره شىء ومن خاف غيره لم ينفعه شىء » و « يهابك الخلق على قدر هيبتك لله » .

(٢) ولد بخراسان . بكورة أبيورد ، وقدم الكونة وهو كبير .

(٣) شطر (بضم الطء) شطارة : اتصف بالدهاء والخباثة فهو شاطر ، والشاطر أيضًا : من أعجزه أهله بخبثه .

(٤) آية ١٦ من سورة الحديد .

(٥) جماعة .

(٦) أى جدد توبته وأظهرها .

(٧) بتذكره أمر آخرته ، وبتقصيره فى أمر دينه .

(٨) قال الشيخ زكريا الأنصارى : « .. أى شغله عنه بحبه لها » .

(٩) لكونه أكثر الناس حزنًا فى وقته .

وقال الفضيل :

لو أن الدنيا بحذافيرها عُرِضت علىَّ ولا أحاسب بها لكنت أتقذرها ، كما يَتقذَّر أحدكم الجيفة إذا مرَّ بها أن تصيب ثوبه .

وقال الفضيل :

لو حلفت أنِّى مُراء أحبُّ إلىَّ من أن أحلف أنِّى لست بمراء .

وقال الفضيل :

ترك العمل لأجل الناس[١] هو الرياءُ ، والعمل لأجل الناس[٢] هو الشرك .

وقال أبو علىٍّ الرازى : صحبت الفضيل ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكًا[٣]،ولا مبتسمًا ، إلا يوم مات ابنه على ، فقلت له فى ذلك ، فقال :

إن الله أحبَّ أمرًا فأحببت ذلك .

وقال الفضيل :

إنى لأعصى الله ، فأعرف ذلك فى خُلق حمارى[٤] وخادمى .

---

(١) أى لأجل ثنائهم .

(٢) حبا فى الحمد ؛ أو نيلًا لعرض فان .

(٣) فيه دليل على كمال حزنه فى سائر أوقاته ، وإنما تكلف الضحك والسرور بموت ولده على خلاف عادته ، لأنه علم أن الله تعالى يحب منه هذه الحالة ، لكونها دليل الرضا بقضائه ..

(٤) أى بأن يتعاصي عليه حماره .. وهذا يفعله الله حفظًا لأوليائه إذا قصروا فى أحوالهم فيما بينهم وبينه ، أدبهم ليرجعوا إليه بسرعة ، وتارة يعكس عليهم أسباب دنياهم . وتارة أخرى أسباب آخرتهم من تغير قلوبهم ، وعدم نشاطهم ، فإذا رجعوا إليه بالتذلل والسؤال من عليهم بشريف نواله ..

ومنهم :

أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي[١]

كان من المشايخ الكبار ، مجاب الدعوة[٢]، يُستشفَى بقبره .

يقول البغداديون : قبر معروف ترياق مجرَّب .

وهو من موالي عليٍّ بن موسى الرضا[٣]، رضى الله عنه ، مات سنة مائتين : وقيل : سنة إحدى ومائتين ، وكان أستاذ السّرى السقطى ، وقد قال له يومًا : إذا كانت لك حاجة إلى الله فأقسم عليه بي .

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقاق ، رحمه الله تعالى ، يقول : كان معروف الكرخي أبواه نصرانيان ، فسلَّموا معروفًا إلى مؤدبهم ، وهو صبي ، فكان المؤدب يقول له : قل ثالث ثلاثة . فيقول بل هو واحد . فضربه المعلم يومًا ضربًا مبرحًا ، فهرب معروف ، فكان أبواه يقولان : ليته يرجع إلينا على أيِّ دين يشاء ، فنوافقه عليه .

ثم إنه أسلم على يدى « عليٍّ بن موسى الرضا » .. ورجع إلى منزله .. ودقَّ الباب . فقيل : من بالباب ؟ فقال : معروف . فقالوا : على أى دين جئت ؟

فقال : على الدين الحنيفي . فأسلم أبواه .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا بكر الحربي يقول : سمعت سريا السقطي يقول : رأيت معروفًا الكرخي في النوم كأنه تحت العرش ، فيقول الله عز وجل لملائكته : من هذا ؟ فيقولون : أنت أعلم يارب .

---

(١) لم يكن فى العراق فى وقته من يربى المريدين مثله ، وجميع المشايخ يعرفون فى ذلك فضله . قال الغزالى : « كان أحمد بن حنبل وابن معين يختلفان إليه ويسألانه . ولم يكن فى علم الظاهر مثلهما » والكرخى « نسبة إلى كرخ » وهى قرية ببغداد .

(٢) قال خليل الصياد : غاب ولدى فتألمت ، فجئت إلى معروف ، فقلت : غاب ولدى . قال وما تريد ؟.

قلت : رجوعه . فقال : اللهم إن السماء سماؤك والأرض أرضك وما بينهما لك إئت بمحمد ، فأتيت باب الشام فإذا هو واقف ، فقلت : أين كنت ؟ قال : كنت الساعة بالأنبار ولا أعلم ما صار .

(٣) ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، أجله المأمون وعهد إليه الخلافة من بعده ومات قبل أن يمكنه بنو آلعباس منها ، ولد فى المدينة سنة ١٤٨ هـ ومات بطوس سنة ٢٠٣ هـ .

له كرامات كثيرة : منها أنه قال لرجل صحيح سليم : استعد لما لابد منه « فمات بعد ثلاثة أيام ؛ وروى الحاكم أن أبا حبيب قال : « رأيت المصطفى عليه الصلاة والسلام فى النوم . فى المنزال الذى ينزله الحاج ببلدنا ، فوجدت عنده طبقًا من خوص فيه تمر (صيحانى) ، فناولنى ثمانى عشرة تمرة . وبعد عشرين يومًا قدم على الرضا من المدينة ونزل ذلك المنزل ، وفزع الناس للسلام عليه ، ومضيت نحوه فإذا هو جالس بالموضع الذى رأيت المصطفى جالسًا فيه ، وبين يديه طبق فيه تمر صيحانى فناولنى قبضة فإذا عدتها بعدد ما ناولنى المصطفى ، فقلت : زدنى . فقال : لو زادك رسول الله ﷺ لزدناك .

فيقول هذا معروف الكرخى ، سَكر من حُبى ، فلا يفيق إلا بلقائى .

وقال معروف : قال لى بعض أصحاب داود الطائى : إياك أن تترك العمل ؛ فإن ذلك الذى يقرِّبك إلى رضا مولاك . فقلت : وما ذلك العمل ؟ .

فقال : دوام طاعة ربك ، وخدمة[1] المسلمين ، والنصيحة لهم .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن عبد الله الرازى يقول : سمعت علىَّ بن محمد الدَّلال يقول : سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت أبى يقول :

رأيت معروفًا الكرخى فى النوم ، بعد موته ، فقلت له : ماذا فعل الله بك ؟ فقال : غفر لى .

فقلت : بِزهدك وورعك ؟ فقال : لا ، بقبولى موعظة ابن السماك ، ولزوم[2] الفقر ، ومحبتى للفقراء .

وموعظة ابن السماك : ما قاله معروف :

كنت مارا بالكوفة ، فوقفت على رجل يقال له : « ابن السماك » وهو يعظ الناسَ .

فقال فى خلال كلامه : من أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة .. ومن أقبل على الله بقلبه أقبل الله برحمته إليه[3] ، وأقبل بجميع وجوه الخلق إليه ، ومن كان مرَّة ومرَّة فالله يرحمه وقتًا ما ، فوقع كلامه فى[4] قلبى ، فأقبلت على الله تعالى ، وتركت جميع ما كنت عليه ، إلا خدمة مولاى « على بن موسى الرضا » .

وذكرت هذا الكلام لمولاى ، فقال : يكفيك بهذا موعظة إن اتعظت .

أخبرنى بهذه الحكاية محمد بن الحسين ، قال : سمعت عبد الرحيم بن على الحافظ ببغداد يقول :

سمعت محمد بن عمر بن الفضل يقول : سمعت على بن عيسى يقول : سمعت سريا السقطى يقول : سمعت معروفًا يقول ذلك .

وقيل لمعروف فى مرض موته : أوصِ .

---

(١) وفى بعض النسخ « وحرمة المسلمين » أى إحترامهم .

(٢) وفى بعض النسخ « ولزومى » .

(٣) وفى نسخة « عليه » .

(٤) وفى نسخة « على » .

فقال : إذا متُّ فتصدَّقوا بقميصى ؛ فإنى أريد أن أخرج من الدنيا عريانًا كما دخلتها عريانًا :

ومرَّ معروف بسقَّاء يقول : رحم الله من يشرب ، وكان صائمًا[١] ، فتقدَّم فشرب ، فقيل له ألم تكن صائمًا ؟ فقال : بلى ، ولكنى رجوت دعاءه[٢] .

---

(١) صيام نفل وتطوع والرسول ﷺ قال : الصائم المتطوع أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء أفطر .

(٢) ومن كلامه : طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، ورجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق ، وقال : التصوف : الأخذ بالحقائق واليأس مما بأيدى الخلائق .

وقال : طول الأمل يمنع خير العمل .

وقال : ما أكثر الصالحين وأقل الصادقين منهم .

وقال : إذا عمل العالم بعلمه استوت له قلوب المؤمنين ، فلا يكرهه إلا من بقلبه مرض ..

وقال : احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم ..

وقال : حقيقة الوفاء : إفاقة السر من رقدة الغفلات ، وفراغ الهم عن فضول الآفات .

ومنهم :

أبو الحسن سرى بن المغلس السقطى[1]

خال الجنيد ، وأستاذه .

وكان تلميذ معروف الكرخى ؛ كان أوحد زمانه فى الورع ، وأحوال السنة[2] وعلوم التوحيد :

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت عبد الله بن على الطوسى يقول : سمعت أبا عمرو ابن علوان يقول : سمعت أبا العباس بن مسروق يقول :

بلغنى أن السرىَّ السقطى كان يتَّجر فى السوق ، وهو من أصحاب معروف الكرخى ، فجاءه معروف يومًا ، ومعه صبى يتيم ، فقال : اكس هذا اليتيم . قال سرى : فكسوته ، ففرح به معروف ، وقال : بغّض الله إليك الدنيا ، وأراحك مما أنت فيه .

فقمت من الحانوت وليس شىء أبغض إلىَّ من الدنيا .

وكل ما أنا فيه من بركات معروف .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا عمر الأنماطى يقول : سمعت الجنيد يقول :

ما رأيت أعبدَ من السرى : أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤى مضطجعًا إلا فى علة الموت .

ويحكى عن السرى أنه قال :

التصوُّف : اسم لثلاث معان[3] :

وهو الذى لا يطفئ نورُ معرفته نورَ ورعه[4] .

---

(١) بغدادى المولد والوفاة ، كان إمام البغداديين وشيخهم فى وقته : أخذ عن الكرخى وسمع الحديث من الفضيل وروى عنه الجنيد وأبو العباس بن مسروق . وهو أول من أظهر ببغداد لسان التوحيد وتكلم فى الحقائق والإشارات ، من كلامه « عجباً لضعيف كيف يعصى قوياً » و « احذر أن تكون ثناء منشوراً وعيباً مستوراً » .

(٢) وفى نسخة و « الأحوال السنية » .

(٣) أى ومن قامت به هذه المعانى فهو الصوفى .

(٤) يقول العروسى : والمعنى أن نور المعرفة الذى من جملته علم ويقين لا يطفئ نور الورع المفيد للاجتهاد وبذل الوسع فى الطاعة والعمل فلا يجوز ترك العمل والاعتماد على ما سبق به القضاء .

ولا يتكلَّم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة .

ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله .

مات السرى سنة : سبع وخمسين ومائتين .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدَّقاق يحكى عن الجنيد ، رحمه الله ، أنه قال :

سألنى السرى يومًا عن المحبَّة ، فقلت : قال قوم : هى الموافقة ، وقال قوم : الإيثار ، وقال قوم :كذا .. وكذا .. فأخذ السرى جلدة ذراعه ، ومدها ، فلم تمتدّ ، ثم قال : وعزَّته تعالى ، لو قلت :إن هذه الجلدة يبستْ على هذا العظم من محبته لصدقت .

ثم غشى عليه ، فدار وجهه كأنه قمر مشرق ، وكان السرىُّ به أُدمة[1] .

ويحكى عن السرىِّ أنه قال : منذ ثلاثين سنة أنا فى الاستغفار[2] من قولى : الحمد لله مرّة .

قيل : وكيف ذلك ؟ فقال : وقع ببغداد حريق ، فاستقبلنى رجل ، فقال لى : نجا حانوتك .

فقلت : الحمد لله . فمنذ ثلاثين سنة أنا نادم على ما قلت ، حيث أردت لنفسى خيرًا مما حصل للمسلمين !!.

أخبرنى به عبد الله بن يوسف قال : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا بكر الحربى يقول : سمعت السرىَّ يقول ذلك .

ويحكى عن السرىِّ أنه قال : أنا أنظر فى أنفى فى اليوم كذا .. وكذا مرَّة ، مخافة أن يكون قد اسودَّ ، خوفًا من الله أن يسود صورتى لِما أتعاطاه[3] .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن الحسن بن الخشاب يقول : سمعت جعفر بن محمد بن نصير يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرَّى يقول : أعرف طريقًا مختصرًا قصدًا إلى الجنة :

فقلت له : ما هو ؟.

فقال : لا تسأل من أحد شيئًا ، ولا تأخذ من أحد شيئًا ، ولا يكن معك شىء تعطى منه أحدًا .

---

(١) سمرة .

(٢) وفى نسخة عن .

(٣) أى من التقصير فى كمال التعظيم لله .

سمعت عبد الله بن يوسف الأصبهانى يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج الطوسى يقول : سمعت جعفر بن محمد بن نصير يقول : سمعت الجنيد بن محمد يقول : سمعت السرى يقول : أشتهى أن أموت ببلد غير بغداد ، فقيل له : ولم ذلك ؟ فقال : أخاف ألا يقبلنى قبرى فأفتضح .

سمعت عبد اللهبن يوسف الأصبهانى يقول : سمعت أبا الحسن بن عبد الله الغوطى الطرسوسى يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرىَّ يقول :

اللهم مهما عذبتنى بشىء فلا تعذبنى بذلِّ الحجاب[1] .

سمعت عبد الله بن يوسف الأصبهانى يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت الجريرى يقول : سمعت الجنيد يقول : دخلت يومًا على السرىَّ السقطى وهو يبكى ، فقلت له : ما يبكيك ؟

فقال : جاءتنى البارحة الصبيَّة[2] ،فقالت :

يا أبتى ، هذه ليلة حارَّةٌ ، وهذا الكوز أُعلِّقه هاهنا .

ثم إنى حملتنى[3] عيناى فنمت ، فرأيت جارية من أحسن الخلق قد نزلت من السماء ، فقلت : لمن أنت ؟ فقالت : لمن لا يشرب الماء المبرَّد فى الكيزان[4] .

فتناولت الكوز فضربت به الأرض فكسرته[5] .

قال الجنيد : فرأيت الخزف لم يرفعه ولم يمسَّه ، حتى عفا[6] عليه التراب .

---

(١) قال الأنصارى : أراد بالحجاب الجهل والضلال أو كل ما يشغل العبد عن الحق ، ومن أكثف الحجب : حجاب الدنيا ، والخلق ، والشيطان ، والنفس .

(٢) بنته .

(٣) وفى نسخة ثم « إنه غلبتنى » .

(٤) أى لمن يمنع نفسه منه مع رغبته فيه .

(٥) هذه اللفظة ساقطة فى بعض النسخ .

(٦) عفا : درس .

ومنهم :

أبو نصر بشر بن الحارث الحافى

أصله من « مرو » وسكن بغداد ، ومات بها ، وهو ابن أخت علىٍّ ابن خشرم . مات سنة سبع وعشرين ومائتين[١] . وكان كبير الشأن[٢] .

وكان سبب توبته : أنه أصاب فى الطريق كاغدة[٣] مكتوبًا فيها اسم الله عزَّ وجلَّ قد وطئتها الأقدامُ ، فأخذها واشترى بدرهم كان معه غالية[٤] ، فطيَّب بها الكاغدة ، وجعلها فى شق حائط .. فرأى فيما يرى النائم كأن قائلًا يقول له :

يا بشر ، طيَّبت اسمى ، لأطيبنَّ اسمك فى الدنيا والآخرة .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

مرَّ بشر ببعض الناس ، فقالوا : هذا الرجل لا ينام الليل كلَّه ، ولا يفطر إلا فى كل ثلاثة أيام مرة ؛ فبكى بشر ، فقيل له فى ذلك فقال :

إنى لا أذكر أنى سهرت ليلة كاملة ، ولا أنى صمت يومًا لم أفطر من ليلته ، ولكن الله سبحانه وتعالى يلقى فِى القلوب أكثرَ مما يفعله العبد لطفًا منه ، سبحانه ، وكرمًا .. ثم ذكر ابتداء أمره : كيف كان على ما ذكرناه .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، يقول : سمعت محمد بن عبد الله الرازى يقول : سمعت عبد الرحمن بن أبى حاتم يقول : بلغنى أن بشر بن الحارث الحافى قال :

رأيت النبى ﷺ فى المنام ، فقال لى : يا بشر ، أتدرى لم رفعك الله من بين أقرانك ؟ قلت : لا ، يا رسول الله .

قال : باتِّباعك لسنَّتى ، وخدمتك للصالحين ، ونصيحتك لإخوانك ، ومحبتك لأصحابى ، وأهل بيتى : وهو الذى بلَّغك منازل الأبرار .

---

(١) وولد سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧) م . وصحب الفضيل بن عياض ورأى سريا السقطى .

(٢) استشفع المأمون بأحمد بن حنبل فى أن يأذن الحافى للمأمون فى زيارته فأبى الحافى .

ومن كلامه : « من أراد أن يلقن الحكمة فلا يعصى الله » « إذا أعجبك الكلام فاصمت أو السكوت فتكلم » « من سأل الله الدنيا فانما يسأله طول الوقوف بين يديه » « هب أنك ما تخاف أما تشتاق ؟ » .

(٣) كاغدة : ورقة .

(٤) نوع من الطيب .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن عبد الله الرازى يقول : سمعت بلالا الخواص يقول : كنت فى تيه بنى إسرائيل ، فإذا رجل يماشينى ، فتعجبت منه ، ثم ألهمت أنه الخضر عليه السلام ، فقلت له : بحقِّ الحقِّ من أنت ؟

فقال : أخوك الخضر ؛ فقلت له : أريد أن أسألك ، فقال : سل . فقلت : ما تقول فى الشافعى[1] رحمه الله ؟

فقال : هو من الأوتاد[2] .

فقلت : ما تقول فى أحمد بن حنبل[3] رضى الله عنه ؟ قال رجل صدِّيق .

قال : فما تقول فى بشر بن الحارث الحافى ؟

قال : لم يخلق[4] بعده مثله[5] .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله تعالى ، يقول :

أتى بشر الحافى باب المعافى بن عمران ، فدقَّ الحافى عليه الباب ، فقيل : من ؟ فقال : بشر الحافى .

فقالت له بُنيةٌ من داخل الدار : لو اشتريت لك نعلاً بدانقين[6] لذهب عنك اسم الحافى .

أخبرنى بهذه الحكاية محمد بن عبد الله الشيرازى ، قال :

حدّثنا عبد العزيز بن الفضل قال : حدثنى محمد بن سعيد ، قال : حدثنى محمد بن عبد الله قال : سمعت عبد الله المغازلى يقول : سمعت بشرًا الحافى يذكر هذه الحكاية .

وسمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا الحسين الحجاجى يقول : سمعت المحاملى يقول : سمعت الحسن المسوحى يقول : سمعت بشر بن الحارث يحكى هذه الحكاية .

---

(١) هو : محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمى القرشى ، أحد الأئمة الأربعة ولد فى غزة سنة ١٥٠ هـ وقصد مصر سنة ١٩٩ هـ وتوفى فى القاهرة سنة ٢٠٤ هـ أقبل على الفقه والحديث وأفتى وهو ابن عشرين سنة .

(٢) قال العروسى : (الأوتاد : هم الرجال الأربعة الذين هم على منازل الجهات الأربع . من العالم : أى الشرق والغرب والشمال والجنوب يحفظ الله تلك الجهات كلها بهم) .

(٣) هو : أبو عبدالله أحمد بن حنبل ، إمام المذهب الحنبلى ، وأحد الأئمة الأربعة . ولد فى بغداد سنة ١٦٤ هـ ، وتوفى سنة ٢٤١هـ « ٨٥٥ م » تفقه على الشافعى .

وفى أيامه دعا المأمون إلى القول بخلق القرآن ومات قبل أن يناظر ابن حنبل تولى المعتصم فسجن ابن حنبل قرابة سنتين لامتناعه عن القول بخلق القرآن .

(٤) وفى نسخة أخرى « لم يخلف » .

(٥) أى فى زمنه .

(٦) الدانق : سدس الدرهم .

وسمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا الفضل العطّار يقول : سمعت أحمد بن على الدمشقى يقول : قال لى أبو عبد الله بن الجلاء :

رأيت ذا النون ، وكانت له العبارة[١] ، ورأيت سهلا ، وكانت له الإشارة ، ورأيت بشر بن الحارث ، وكان له الورع .

فقيل له : فإلى من كنت تميل ؟. فقال : لبشر بن الحارث أستاذنا .

وقيل : إنه اشتهى الباقلاء[٢] سنين ، فلم يأكله ، فرؤى فى المنام بعد وفاته فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غَفر لى ، وقال : كُلْ يا من لم يأكل ، واشرب يا مَنْ لم يشرب .

أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، قال : أخبرنا عبيد الله بن عثمان بن يحيى قال : حدثنا أبو عمرو بن السماك قال : حدثنا محمد بن العباس قال : حدثنا أبو بكر ابن بنت معاوية قال : سمعت أبا بكر بن عفان يقول : سمعت بشر بن الحارث يقول :

إنى لأشتهى الشِّواء منذ أربعين سنة ما صفا لى ثمنه !!

وقيل لبشر : بأىِّ شيء تأكل الخبز ؟ فقال : أذكر العافية وأجعلها إدامًا .

أخبرنا به محمد بن الحسين ، رحمه الله ، قال : أخبرنا عبيد الله بن عثمان قال : أخبرنا أبو عمرو بن السماك قال : حدثنا عمر بن سعيد قال : حدثنا ابن أبى الدنيا قال : قال رجل لبشر الحكاية المذكورة .

وقال بشر : لا يحتمل الحلالُ السرف[٣] .

ورؤى بشر فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟

فقال : غفر لى ، وأباح لى نصف الجنة ، وقال لى :

يا بشر ، لو سجدتَ لى على الجمر ما أديتَ شكرَ ما جعلته لك فى قلوب عبادى .

وقال بشر : لا يجدُ حلاوة الآخرة رجل يُحِبُّ أن يعرفه الناس .

---

(١) أى النطق بالحكمة ، وكانت له : أى اشتهر بها .

(٢) الفول .

(٣) لعزة الحلال وقلته .

ومنهم :

أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى

عديم النظير فى زمانه علمًا ، وورعًا ، ومعاملة ، وحالاً[١] .

بصريُّ الأصل ، مات ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومائتين .

قيل : إنه ورث من أبيه سبعين ألف درهم فلم يأخذ منها شيئًا ، قيل ، لأن أباه كان يقول بالقدر[٢] ، فرأى من الورع أن لا يأخذ من ميراثه شيئًا ، وقال : صحَّت الرواية عن النبى ﷺ ، أنه قال : « لا يتوارث أهل ملَّتين شيئًا » .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت الحسين بن يحيى يقول : سمعت جعفر بن محمد بن نصير يقول : سمعت محمد بن مسروق يقول : مات الحارث بن أسد المحاسبى وهو محتاج إلى درهم ، وخلف أبوه ضِياعًا وعقارًا ، فلم يأخذ منه شيئًا .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمه الله تعالى ، يقول :

كان الحارث المحاسبى إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرَّك على أصبعه عِرق ، فكان يمتنع منه .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : اقتدوا بخمسة من شيوخنا ، والباقون سلموا لهم حالهم :

الحارث بن أسد المحاسبى ، والجنيد بن محمد ، وأبو محمد رُويم ، وأبو العباس بن عطاء ، وعمرو بن عثمان المكىِّ ؛ لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبد الله على الطوسى يقول : سمعت جعفرًا الخلدى يقول : سمعت أبا عثمان البلدى يقول : قال الحارث المحاسبى :

من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص زين الله ظاهرَه بالمجاهدة واتِّباع السنَّة .

---

(١) (قال التميمى : هو إمام المسلمين فى الفقه والتصوف والحديث والكلام . وقال الغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » : « المحاسبى خير الأمة فى علم المعاملة . وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال » .

ومن كلامه : فقدنا ثلاثة أشياء : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الأمانة . وسمى بالمحاسبى ؛ لأنه كان يحاسب نفسه عملا بقول الرسول : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا » .

(٢) كان من القدرية القائلين بإنكار عموم القدر الذى يجب الإيمان به .

ويحكى عن الجنيد أنه قال : مرَّ بى يومًا الحارث المحاسبى ، فرأيت فيه أثر الجوع ، فقلت : يا عم ، تدخل الدار وتتناول شيئًا ؟ فقال : نعم .

فدخلت الدار وطلبت شيئًا أقدِّمه إليه ، فكان فى البيت شىء من طعام حمل إلىَّ من عرس قوم ، فقدَّمته إليه ، فأخذ لقمة وأدارها فى فمه مرات ، ثم إنه قام وألقاها فى الدهليز ، ومرَّ .

فلما رأيته بعد ذلك بأيام قلت له فى ذلك ، فقال :

إنى كنت جائعًا ، وأردت أن أسرَّك بأكلى وأحفظ قلبك ، ولكن بينى وبين الله ، سبحانه ، علامة : أن لا يسوغنى طعامًا فيه شبهة ، فلم يمكنِّى ابتلاعه ، فمن أين كان لك ذلك الطعام ؟.

فقلت : إنه حُمل إلىّ من دار قريب لى من العرس ، ثم قلت : تدخل اليوم ؟ فقال : نعم . فقدمت إليه كِسرًا يابسة كانت لنا ، فأكل وقال :

إذا قدمت إلى فقير شيئًا فقدِّم إليه مثل هذا .

ومنهم :

أبو سليمان داود بن نصير الطائى

وكان كبير الشأن[١] . أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، قال : أخبرنا أبو عمرو بن مطر قال : حدثنا محمد بن المسيَّب قال : حدثنا ابن خُبيق قال ، قال يوسف ابن سباط :

ورث داود الطائى عشرين دينارًا فأكلها فى عشرين سنة .

سمعت الأستاذ أبا علىٍّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول : كان سبب زهد داود الطائى : أنه كان يمرُّ ببغداد ، فمرَّ[٢] يومًا ، فنحّاه[٣] المطرقون[٤] بين يدى حميد الطوسى ، فالتفت داود فرأى حميدًا ، فقال داود : أُفٍّ لدنيا سبقك بها حميد .

ولزم البيت وأخذ فى الجهد والعبادة .

وسمعت ببغداد بعض الفقراء يقول : إن سبب زهده أنه سمع نائحة تنوح وتقول :

بأىِّ خديك تبدى البلى ... وأى عينيك إذًا سالا

وقيل : كان سبب زهده : أنه كان يجالس أبا حنيفة ، رضى الله عنه ، فقال له أبو حنيفة يومًا :

يا أبا سليمان ، أمّا الأداة[٥] فقد أحكمناها فقال له داود : فأى شىء بقى ؟ فقال : العمل به .

قال داود : فنازعتنى نفسى إلى العُزلة ، فقلت لنفسى : حتى تجالسهم ولا تتكلم فى مسألة .

قال : فجالستهم سنة لا أتكلم فى مسألة ، وكانت المسألة تمرُّ بى ، وأنا إلى الكلام فيها أشد نزاعًا من العطشان إلى الماء البارد ولا أتكلَّم به .

---

(١) قال الذهبى : « كان إمامًا فقيهًا ذا فنون عديدة ثم تعبد وآثر الوحدة وأقبل على شأنه وساد أهل زمانه توفى سنة ١٦٦ هـ . بالكوفة » .

ومن كلامه : إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهى بهم ذلك إلى آخر سفرهم ؛ فإن استطعت أن تقدم فى كل مرحلة زادًا لما بين يديها فافعل ، وقال : لا تمهر الدنيا دينك ، فمن أمهرها دينه زفت إليه الندم » .

(٢) لفظة « فمر » ساقطة فى بعض النسخ .

(٣) رده إلى جانبها .

(٤) الموسعون لها .

(٥) أى العلم .

ثم صار أمره إلى ما صار .

وقيل : حجم « جنيدُ الحجام » داود الطائى ، فأعطاه دينارًا ، فقيل له : هذا إسراف .

فقال : لا عبادة لمن لا مروءة له .

وكان يقول بالليل : إلهى همُّك عطَّل علىَّ الهموم الدنيوية ، وحال بينى وبين الرقاد .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفىّ يقول : حدثنا محمد بن يوسف قال : حدثنا سعيد بن عمرو قال : حدثنا علىٌّ بن حرب الموصلى قال : حدثنا إسماعيل بن زياد الطائىّ قال : قالت دايةُ[1] داود الطائى له :

أما تشتهى الخبز ؟ فقال : بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءةُ خمسين آية .

ولما تُوفى داود رآه بعض الصالحين فى المنام وهو يعدُو فقال له : مالك ؟

فقال : الساعة تخلَّصت من السجن .

فاستيقظ الرجل من منامه ، فارتفع الصياح يقول للناس : مات داود الطائى .

وقال له رجل : أوصنى . فقال له : عسكرُ الموتِ[2] ينتظرونك .

ودخل بعضهم عليه ، فرأى جرَّة ماء انبسطت عليها الشمس ، فقال له : ألا تحوِّلها إلى الظل ؟

فقال : حين وضعتها لم يكن شمس ، وأنا أستحى أن يران الله أمشى لما فيه حظُّ نفسى .

ودخل عليه بعضهم ، فجعل ينظر إليه ، فقال : أما علمت أنهم كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام ؟

أخبرنا عبد الله بن يوسف الأصبهانى قال : أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكى :

قال : حدثنا قاسم بن أحمد ، قال : سمعت ميمونًا الغزالى قال : قال أبو الربيع الواسطى :

قلت لداود الطائى : أوصنى .

فقال : صُمْ عن الدنيا ، واجعل فطرك الموت ، وفر من الناس كفرارك من السبع .

---

(١) جارية ، وقالت له ذلك حينما رأته لا يأكل الخبز ، بل يشرب الفتيت .

(٢) وفى نسخة « عسكر الموتى » .

ومنهم :

أبو على شقيق بن إبراهيم البلخى

من مشايخ خراسان[١] . له لسان فى التوكُّل[٢] ، وكان أستاذ حاتم الأصم .

قيل : كان سبب توبته : أنه كان من أبناء الأغنياء ، خرج للتجارة إلى أرض الترك[٣] ، وهو حدث ، فدخل بيتًا للأصنام ، فرأى خادمًا للأصنام فيه ؛ قد حلق رأسه ولحيته ، ولبس ثيابًا أُرجوانية[٤] ، فقال شقيق للخادم ؛ إنَّ لك صانعًا حيًّا ، عالمًا ، قادرًا ، فاعبده .. ولا تعبد هذه الأصنام التى لا تضرُّ ولا تنفع !!.

فقال : إن كان كما تقول ، فهو قادر على أن يرزقك ببلدك ، فلم تعنَّيت إلى هاهنا للتجارة ؟.

فانتبه شقيق .. وأخذ فى طريق الزهد .

وقيل : كان سبب زهده : أنه رأى مملوكًا يلعب ويمرح فى زمان قحط ، وكان الناس مهتمين به[٥] ، فقال شقيق : ما هذا النشاط الذى فيك ؟ أما تَرى ما فيه الناس من الجدب[٦] والقحط ؟.

فقال ذلك المملوك : وما علىّ من ذلك ، ولمولاى قريةٌ خالصة يدخل له منها ما نحتاج نحن إليه ، فانتبه شقيق ، وقال : إن كان لمولاه قرية ، ومولاه مخلوق فقير ، ثم إنه ليس يهتم لرزقه ، فكيف ينبغى أن يهتم المسلم لرزقه ومولاه غنى ؟!.

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا الحسين بن أحمد العطار البلخى يقول : سمعت أحمد بن محمد البخارى يقول : قال حاتم الأصم :

---

(١) أخذ الفقه عن أبى حنيفة ، وقال الذهبى : سافر أبو على شقيق البلخى ومعه ثلاثمائة فقير ، فتوسل إليه المأمون حتى اجتمع به ، واجتمع به قبله أبوه الرشيد ، وقال له : أنت شقيق الزاهد ؟ فقال : نعم ، شقيق ، ولست بالزاهد فقال له : أوصنى قال : إن الله قد أجلسك مكان الصديق وإنه يطلب منك مثل صدقه ، ومكان الفاروق ويطلب منك الفرق بين الحق وغيره ومكان عثمان ويطلب منك مثل حيائه وكرمه ، ومقام على ، ويطلب منك مثل علمه وعدله .

(٢) أى توسع فى معانيه .

(٣) وفى نسخة أخرى إلى « ارض الشرك » .

(٤) أى مصبوغة بالأرجوان ، وهو صبغ أحمر شديد الحمرة .

(٥) وفى نسخة « كان الناس فيه مهتمين أى بتحصيل قوتهم » .

(٦) وفى نسخة أخرى « من الحزن » .

كان شقيق بن إبراهيم موسرًا ، وكان يتفتى[1] ويعاشر الفتيان ، وكان علىٌّ بن عيسى بن ماهان أميرَ بلخ ، وكان يحب كِلاب الصيد ، ففقد كلبًا من كلابه ، فسعى برجل أنه عنده ، وكان الرجل فى جوار شقيق ، فطلب الرجل ، فهرب .. فدخل دار شقيق مستجيرًا ، فمضى شقيق إلى الأمير ، وقال :

خلوا سبيله ، فإن الكلب عندى أرده إليكم إلى ثلاثة أيام .

فخلوا سبيله ، وانصرف شقيق مهتما لما صنع . فلما كان اليوم الثالث كان رجل من أصدقاء شقيق غائبًا من بلخ فرجع إليها ، فوجد فى الطريق كلبًا عليه قلادة ، فأخذه ، وقال : أهديه إلى شقيق ، فإنه يشتغل بالتفتىِّ .

فحمله إليه ، فنظر شقيق فإذا هو كلب الأمير ، فسرَّ به ، وحمله إلى الأمير وتخلّص من الضمان فرزقه الله الانتباه ، وتاب مما كان فيه وسلك طريق الزهد .

وحكى أن حاتمًا الأصمَّ قال : كنا مع شقيق فى مصاف[2] نحارب الترك فى يوم لا ترى فيه إلا رءوسًا تندر[3] ، ورماحًا تنقصف ، وسيوفًا تنقطع ، فقال لى شقيق :

كيف ترى نفسك يا حاتم فى هذا اليوم ؟ تراه مثل ما كنت فى الليلة التى زفّت إليك امرأتك ؟

فقال : لا والله .

قال : لكنّى والله أرى نفسى فى هذا اليوم مثلَ ما كنتُ تلك الليلة .

ثم نام بين الصفّين ودرقته[4] تحت رأسه حتى سمعت غطيطه .

وقال شقيق : إذا أردتَ أن تعرف الرجل فانظر إلى ما وعده الله ووعده الناس ، فبأيهما يكون قلبه أوثق[5] ؟

وقال شقيق : تُعرف تقوى الرجل فى ثلاثة أشياء : فى أخذِه ، ومنعِه ، وكلامِه .

---

(١) أى يفعل فعل الفتيان والشباب .

(٢) مصاف : جمع صف واحد الصفوف : التى تكون تلقاء وجه العدو فى الحرب .

(٣) تسقط .

(٤) الدرق (بفتح الدال والراء) = الترس من جلد ليس فيه خشب .

(٥) قال العروسى : المقصود الحمل على عدم الغفلة عن النفس ، بل يلزم الإنسان دائما تفتيشها وامتحانها فيما توهمته من المقامات والأحوال ، حتى يتحقق رسوخها ، وبعد هذا فلا يركن إلى ما منح ، بل يدوم على الجد لينال ما فوق ذلك ، أو ليدوم له ما هو فيه .. إذ قد يسلب السائر من حيث لا يشعر . وفيه تنبيه على أنه قوى وثوقه بما وعده الله من ثواب الامتثال ، وأنه انقطع عن الحظوظ ..

ومنهم :

أبو يزيد بن طيفور بن عيسى البسطامى

وكان جدُّه مجوسيا أسلم .

وكانوا ثلاثة إخوة : آدم ، وطيفور ، وعلىّ . وكلهم كانوا زهّادًا عبَّادًا .

وأبو يزيد كان أجلَّهم حالاً[1] .

قيل مات سنة : إحدى وستين ومائتين ، وقيل : أربع وثلاثين ومائتين .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول :سمعت أبا الحسن الفارسى ، يقول : سمعت الحسن بن علىّ يقول : سئل أبو يزيد : بأى شىء وجدتَ هذه المعرفة ؟

فقال : ببطن جائع ، وبدن عار .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول :سمعت عمى البسطامى يقول : سمعت أبى يقول : سمعت أبا يزيد يقول : عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئًا أشدَّ علىَّ من العلم ومتابعته ، ولولا اختلاف العلماء لبقيت ، واختلاف العلماء رحمة إلا فى تجريد التوحيد .

وقيل : لم يخرج أبو يزيد من الدنيا حتى استظهر القرآن كلَّه .

حدثنا أبو حاتم السجستانى قال : أخبرنا أبو نصر السرَّاج ، قال : سمعت طيفور البسطامى يقول : سمعت المعروف بعمِّى البسطامى يقول : سمعت أبى يقول : قال لى أبو يزيد : قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية ، وكان رجلاً مقصودًا مشهورًا بالزهد ، فمضينا إليه ؛ فلما خرج من بيته ، ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلِّم عليه ، وقال : هذا غيرُ مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ ؛ فكيف يكون مأمونًا على ما يدَّعيه ؟

وبهذا الإسناد قال أبو يزيد : لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفينى مؤنة الأكل ومؤنة النساء ، ثم قلت : كيف يجوز لى أن أسأل هذا ولم يسأله رسول الله ﷺ إياه ؟ فلم أسأله ، ثم

---

(١) ذكر ابن عربى أنه كان القطب الغوث فى زمانه .

ومن كلامه : ليس العالم من يحفظ من كتاب الله فإذا نسى ما حفظ صار جاهلاً ؛ بل من يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء بلا تحفظ ودرس . وهذا هو العلم الربانى . وقال : أخذتم علمكم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت .

إن الله سبحانه وتعالى كفانى مؤنة النساء ؛ حتى لا أبالى استقبلتنى امرأة أو حائط .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت الحسن بن على يقول : سمعت عمى البسطامى يقول : سمعت أبى يقول :سألت أبا يزيد عن ابتدائه وزهده ، فقال :

ليس للزهد منزلة . فقلت : لماذا ؟ فقال : لأنى كنت ثلاثة أيام فى الزهد .

فلما كان اليومُ الرابع خرجت منه : اليوم الأول : زهدت فى الدنيا وما فيها ، واليوم الثانى : زهدت فى الآخرة وما فيها ، واليوم الثالث : زهدت فيما سوى الله ، فلما كان اليوم الرابع لم يبق لى سوى الله .. فهِمْتُ ، فسمعت ، هاتفًا يقول :

يا أبا يزيد لا تقوى معنا . فقلت : هذا الذى أريده .

فسمعت قائلاًيقول : وجدتَ ، وجدت .

وقيل لأبى يزيد : ما أشد ما لقيتَ فى سبيل الله ؟ فقال : لا يمكن وصفه .

فقيل له : ما أهون ما لقيَت نفسُك منك ؟

فقال : أمّا هذا فنعم ، دعوتها إلى شىء من الطاعات فلم تجبنى ، فمنعتها الماءَ سنة .

وقال أبو يزيد : منذ ثلاثين سنة أصلِّى ، واعتقادى فى نفسى عند كل صلاة أصليها : كأنى مجوسى أريد أن أقطع زُنّارى[1] .

سمعت محمد بن الحسين رحمه الله يقول : سمعت عبد اللهبن على يقول : سمعت موسى بن عيسى يقول ، قال لى أبى : قال أبو يزيد : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى[2] فى الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الامر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة[3] .

وحكى عمى البسطامى عن أبيه أنه قال : ذهب أبو يزيد ليلة إلى الرباط ، ليذكر الله ، سبحانه ، على سور الرباط ، فبقى إلى الصباح لم يذكر ، فقلت له فى ذلك ، فقال : تذكّرتُ كلمة جرت على لسانى فى حال صباى[4] ، فاحتشمت أن أذْكره سبحانه وتعالى .

---

(١) ما يشد به الوسط ، أراد به كدورات الحظوظ والرغبات .

(٢) وفى نسخة يرتفع ، وفى أخرى يتربع .

(٣) مراد الحث على اتباع الكتاب والسنة وعدم الخروج عن سننها ، أو الغرور بمن حاله يخالفها ، فهو وإن كان صادقا فى الحقيقة ، فلا يتابع بحكم الطريقة كما قال العروسى .

(٤) فيه أشعار بعدم صدور المخالفات منه بعد التكليف ، وإلا لكان أسرع تذكرًا لها وأكثر معرفةً بها .

ومنهم :

أبو محمد سهل بن عبدالله التسترى

أحد أئمة القوم ، لم يكن له فى وقته نظير فى المعاملات والورع[١] .

وكان صاحب كرامات ، لقى ذا النون المصرى بمكة سنة خروجه إلى الحج .

تُوفى ، كما قيل ، سنة : ثلاث وثمانين ومائتين ، وقيل : ثلاث وسبعين ومائتين .

وقال سهل : كنت ابن ثلاث سنين ، وكنت أقوم بالليل أنظر إلى صلاة خالى محمد بن سوار ، وكان يقوم بالليل ، فربما كان يقول لى : ياسهل اذهب فنمْ فقد شغلتَ قلبى .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله يقول : سمعت أبا الفتح يوسف بن عمر الزاهد يقول : سمعت عبدالله بن عبدالحميد يقول : سمعت عبيدالله بن لؤلؤ يقول : سمعت عمر بن واصل البصرى يحكى عن سهل بن عبدالله قال : قال لى خالى يومًا :

ألا تذكر الله الذى خلقك ؟ .

فقلت : كيف أذكره ؟ فقال لى : قل بقلبك عند تقلبك فى ثيابك ثلاث مرات . من غير أن تحرِّك به لسانك : الله معى ، الله ناظرٌ إلىّ ، الله شاهد علىّ .

فقلت ذلك ثلاث ليال ، ثم أعلمته ، فقال لى :

قل فى كل ليلة سبع مرات . فقلت ذلك ثم أعلمته ، فقال : قل فى كل ليلة إحدى عشرةَ مرةً ، فقلت ذلك ، فوقع فى قلبى له حلاوة .

فلما كان بعد سنة قال لى خالى : احفظ ما علَّمتك ، ودُم عليه إلى أن تدخل القبر ، فإنه ينفعك فى الدنيا والآخرة .

فلم أزل على ذلك سنين ، فوجدت لها حلاوة فى سرِّى .

ثم قال لى خالى يومًا : ياسهل ، من كان الله معه : وهو ناظر إليه وشاهده ، أيعصيه ؟ إيَّاك والمعصيةَ .

---

(١) حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وكان يسأل عن دقائق الزهد والورع وفقه العبارة وهو ابن عشر فيحسن الإجابة .
ومن قوله : ما أعطى أحد شيئًا أفضل من علم يستزيد به افتقارًا إلى الله . وقال : ما عبد الله بشىء أفضل من مخالفة الهوى .
وقال « حياة القلب الذى يموت بذكر الحى الذى لا يموت . وقال : كل عالم خاض فى الدنيا فلا تصغ لكلامه ، بل يتهم فيما يقول ؛ لأن كل إنسان يدفع ما لا يوافق محبوبه .

فكنت أخلو ، فبعثونى[1] إلى الكتَّاب ، فقلت :

إنى لأخشى أن يتفرق علىَّ همِّى[2] ، ولكن شارطوا المعلِّم : أنى أذهب إليه ساعة ، فأتعلَّم ، ثم أرجع .

فمضيت إلى الكتَّاب ، وحفظتُ القرآن ، وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين ، وكنت أصوم الدهر ، وقوتى خبز الشعير ، إلى أن بلغت اثنتى عشرة سنة ، فوقعت لى مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة ، فسألت أهلى أن يبعثونى إلى البصرة أسأل عنها ، فجئت البصرة وسألت علماءها فلم يشف أحد منهم عنى شيئًا !! .

فخرجت إلى « عبادان » ، إلى رجل يُعرف بأبى حبيب حمزة بن عبدالله العبادانى ، فسألته عنها فأجابنى ، وأقمت عنده مدَّة أنتفع بكلامه وأتأدب بآدابه ، ثم رجعت إلى « تستر » فجعلت قوتى اقتصارًا على أن يشترى لى بدرهم من الشعير « الفرْق[3] » فيطحن ويخبز لى ، فأفطر عند السحر كلَّ ليلة على أوقية واحدة بحتا ، بغير ملح ولا إدام فكان يكفينى ذلك الدرهم سنة .

ثم عزمت على أن أطوى ثلاث ليال ، ثم أفطر ليلة ، ثم خمسًا ، ثم سبعًا ، ثم خمسًا وعشرين ليلة . وكنت عليه[4] عشرين سنة . ثم خرجتُ أسيح فى الأرض سنين ، ثم رجعت إلى « تستر » وكنت أقوم الليل كله .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت إبراهيم بن فراس يقول : سمعت نصر بن أحمد يقول : قال سهل بن عبدالله :

كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء ، طاعة كان أو معصية ، فهو عيش النفس[5]، وكلُّ فعل يفعله بالاقتداء فهو عذاب على النفس[6] .

---

(١) وفى نسخة « فبعثوا بى » .

(٢) أى ما أهتم به وهو ذكر ربى مع حضور قلبى فى الخلوة .

(٣) مكيال يكال به .

(٤) وفى نسخة « فكنت عليها » .

(٥) أى حظها .

(٦) وقال سهل : دخلت الفتنة على العامة من الرخص والتأويلات ، وعلى العارفين من تأخير الحق الواجب إلى وقت آخر .
وقال : من أعظم المعاصى الجهل بالجهل ، والنظر إلى العامة ، وسماع كلام أهل الغفلة .
وقال : أصول طريقنا سبعة التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصى ، والتوبة ، وأداء الحقوق .

ومنهم :

أبو سليمان عبدالرحمن بن عطية الدارانى

و « داران » قرية من قرى دمشق . مات : سنة خمس عشرة ومائتين .

سمعت محمد الحسين يقول : سمعت عبدالله بن محمد الرازىّ يقول : أخبرنا إسحق بن إبراهيم بن أبى حسان يقول : سمعت أحمد بن أبى الحوارى يقول : سمعت أبا سليمان يقول : مَن أحسن فى نهاره كوفئَ فى ليله ، ومن أحسن فى ليله كوفئَ فى نهاره . ومن صدّق فى ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه ، والله تعالى أكرم من أن يعذِّب قلبًا بشهوة تُركت له .

وبهذا الإسناد قال : إذا سكنت الدنيا القلب ترحَّلت منه الآخرة .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت الحسين بن يحيى يقول : سمعت جعفر بن محمد بن نصير ، يقول : سمعت الجنيد يقول : قال أبو سليمان الدارانى : ربما يقع فى قلبى النكتة[1] من نكت القوم أيامًا ، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب ، والسنَّة .

وقال أبو سليمان : أفضل الأعمال : خلاف هوى النفس .

وقال : لكلِّ شىء عَلَم[2]، وعَلَمُ الخذلان[3] ترك البكاء .

وقال : لكل شىء صدأ ، وصدأ نور القلب شبَعُ البطن .

وقال : كلُّ ما شغلك عن الله تعالى من أهل ، أو مال ، أو ولد فهو عليك مشئوم .

وقال : أبو سليمان : كنت ليلة باردة فى المحراب ، فأقلقنى البرد : فخبَّأت إحدى يدى من البرد ، وبقيت الأخرى ممدودة[4]، فغلبتنى عيناى فهتف بى هاتف : يا أبا سليمان ، وقد وضعنا فى هذه ما أصابها ، ولو كانت الأخرى لوضعنا فيها .

فآليت على نفسى أن لا أدعو إلا ويداى خارجتان ، حرًّا كان الزمن أو بردًا .

---

(١) كلمة الحكمة .

(٢) علامة .

(٣) عدم القبول .

(٤) أى ممدودة للدعاء .

وقال أبو سليمان : نمت عن وردى ، فإذا أنا بحوراء تقول لى : تنام وأنا أَرَبى لك فى الخدور منذ خمسمائة عام !! .

أخبرنا عبدالله بن يوسف الأصبهانى ، قال : أخبرنا أبو عمرو الجولستى ، قال : أخبرنا محمد بن إسماعيل قال : حدثنا أحمد بن أبى الحوارى قال : دخلتُ على أبى سليمان يوما وهو يبكى ، فقلت له ما يبكيك ؟ .

فقال : يا أحمد ، ولم لا أبكى ، وإذا جنَّ الليل ، ونامت العيون ، وخلا كلُّ حبيب بحبيبه ، وافترش أهل المحبة أقدامهم ، وجرت دموعهم على خدودهم ، وتقّطرت فى محاربهم ، وأشرف الجليل ؛ سبحانه وتعالى ؛ فنادى : يا جبريل ، بعينى من تلذّذ بكلامى واستراح إلى ذكرى ، وإنى لمطّلع عليهم فى خلواتهم .. أسمع أنينهم .. وأرى بكاءهم ، فلم لا تنادى فيهم ياجبريل : ما هذا البكاء ؟! .

هل رأيتم حبيبًا يعذِّب أحباءه ؟

أم كيف يجمل بى أن آخذ قومًا إذا جنّهم الليل تملّقوا[1] لى فبى حلفت : أنهم إذا وردوا علىّ يوم القيامة لأكشفنَّ لهم عن وجهى الكريم ، حتى ينظروا إلىّ وأنظر إليهم[2] .

---

(١) أى إذا سترهم الليل توددوا .

(٢) ومن أقواله :

لا ينبغى لفقير أن يزيد فى نظافة ثوبه على نظافة قلبه ، ليتشاكل باطنه ظاهره . ليت قلبى فى القلوب كثوبى فى الثياب . .

من صارع الدنيا صرعته ، ومن سكنت الدنيا قلبه ترحلت منه الآخرة ..

من أظهر الانقطاع إلى الله تعالى لزمه خلع ما دونه من عنقه ..

إذا بلغ العبد غاية الزهد أخرجه إلى التوكل ..

القناعة أول الرضا ، والورع أول الزهد ..

مفتاح الآخرة الجوع ، ومفتاح الدنيا السره ، ومفتاح كل خير الخوف من الله تعالى .

ومنهم :

أبو عبدالرحمن حاتم بن علوان

ويقال حاتم بن يوسف الأصم ، من أكابر مشايخ خراسان :

وكان تلميذ شقيق ، وأستاذ أحمد بن خضرويه .

قيل : لم يكن أصمَّ ، وإنما تصامم[1] مرَّة فسُمِّى به .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

جاءت امرأة فسألت حاتمًا عن مسألة ، فاتفق أنه خرج منها فى تلك الحالة صوت ، فخجلت ، فقال حاتم : ارفعى صوتك فأرى[2] من نفسه : أنه أصمُّ ، فسرَّت المرأة بذلك ، وقالت :

إنه لم يسمع الصوت ، فغلب عليه اسم الصمم .

أخبرنا الشيخ أبو عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، قال : سمعت أبا علىّ سعيد بن أحمد يقول : سمعت أبى يقول : سمعت محمد بن عبدالله يقول : سمعت خالى محمد بن الليث يقول : سمعت حامدًا اللقاف يقول : سمعت حاتمًا الأصمَّ يقول :

ما من صباح إلا والشيطان يقول لى : ماذا تأكل ؟ وماذا تلبس ؟ وأين تسكن ؟ فأقول له ، آكل الموت ، وألبس الكفن ، وأسكن القبر .

وبإسناده قيل له : ألا تشتهى ؟ .

فقال : أشتهى عافية يوم إلى الليل .

فقيل له : أليست الأيام كلها عافية ؟ .

فقال : إن عافية يومى ، أن لا أعصى الله فيه .

وحكى عن حاتم الأصمِّ ، أنه قال : كنت فى بعض الغزوات ، فأخذنى شخص فأضجعنى للذبح فلم يشتغل به قلبى ، بل كنت أنظر ماذا يحكم الله تعالى فىَّ ..

فبينما هو يطلب السكين من حقةً أصابه سهم غرْب[3]. فقتله ، وطرحه عنى فقمتُ .

---

(١) تصامم : تكلف الصمم .

(٢) فأرى : فأظهر .

(٣) أى أتاه من حيث لا يدرى .

سمعت عبدالله بن يوسف الأصبهانى يقول : سمعت أبا نصر منصور بن محمد بن إبراهيم الفقيه يقول : سمعت أبا محمد جعفر بن محمد بن نصير يقول : روى عن حاتم أنه قال :

من دخل فى مذهبنا هذا فليجعل فى نفسه أربع خصال من الموت :

موتًا أبيض ، وهو الجوع .

وموتًا أسود ، وهو : احتمال الأذى من الخلق .

وموتًا أحمر ، وهو : العمل الخالص من الشوْب فى مخالفة الهوى .

وموتًا أخضر ، وهو : طرح الرقاع بعضها على بعض[1] .

---

(١) أى ترقيع الثياب .

ومنهم :

أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازى الواعظ

نسيج وحدَه فى وقته ، له لسان[1] فى الرجاء خصوصًا ، وكلام فى المعرفة . خرج إلى بلخ ، وأقام بها مدَّة .

ورجع إلى « نيسابور » ومات بها سنة : ثمان وخمسين ومائتين .

سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ، يقول : سمعت عبدالله بن محمد بن أحمد بن حمدان الكعبرى يقول : سمعت أحمد بن محمد بن السرِّى يقول : سمعت أحمد بن عيسى يقول : سمعت يحيى بن معاذ يقول : كيف يكون زاهدًا من لا وَرع له ؟! تورَّع عما ليس لك ، ثم ازهد فيما لك .

وبهذا الإسناد قال :

جوع التوَّابين تجربة ، وجوع الزاهدين سياسة ، وجوع الصدِّيقين تكرمة .

وقال يحيى : الفوت أشد من الموت ؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق ، والموت انقطاع عن الخلق .

وقال يحيى : الزهد[2] ثلاثة أشياء ، القلَّة ، والخلوة ، والجوع .

وقال يحيى : لا تربح على نفسك بشىء أجلّ من أن تشغلها فى كل وقت بما هو أولى بها .

وقيل : إن يحيى بن معاذ تكلم ببلخ فى تفضيل الغنى على الفقر ، فأُعطى ثلاثين ألف درهم ، فقال بعض المشايخ : لا بارك الله له فى هذا المال فخرج إلى نيسابور ، فوقع عليه اللص وأخذ المال منه .

أخبرنا عبدالله بن يوسف الأصبهانى قال : أنبأنا[3] أبو القاسم عبدالله بن الحسين بن بالويه الصوفى قال : سمعت محمد بن عبدالله الرازى يقول : سمعت الحسين بن علوية يقول : سمعت يحيى بن معاذ الرازى يقول :

من خان الله فى السرِّ هتك الله ستره فى العلانية .

---

(١) أى كلام .

(٢) أى علامات الزهد .

(٣) وفى نسخة أخرى « أخبرنا » .

سمعت عبدالله بن يوسف يقول : سمعت أبا الحسين محمد بن عبدالعزيز المؤذّن يقول : سمعت محمد بن محمد الجرجانى يقول : سمعت عليّ بن محمد يقول : سمعت يحيى بن معاذ الرازى يقول :

تزكية الأشرار لك هُجْنة بك[1]، وحبُّهم لك عيب عليك ، وهانَ عليك من احتاج إليك[2].

(١) قبح ونقص .

(٢) ومن كلامه : مفاوز الدنيا تقطع بالأقدام ومفاوز الآخرة بالقلوب . وقال : العقلاء ثلاثة : من ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وهيأ قبره قبل أن يدخله ، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه .

ومنهم :

أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخى

من كبار مشايخ خراسان ، صحب أبا تراب النخشبى .

قدم نيسابور ، وزار أبا حفص ، وخرج إلى بسطام فى زيارة أبى يزيد البسطامى وكان كبيرًا فى الفتوة[1] .

وقال أبو حفص : ما رأيت أحدًا أكبر همَّة ، ولا أصدق حالاً من أحمد بن خضرويه .

وكان أبو يزيد يقول : أستاذنا أحمد .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت محمد بن حامد يقول : كنت جالسًا عند أحمد بن خضرويه ، وهو فى النزع ، وكان قد أتى عليه خمس وتسعون سنة .

فسأله بعض أصحابه عن مسألة ؛ فدمعت عيناه ، وقال :

يابنى ، بابٌ كنت أدقه منذ خمس وتسعين سنة ، وهو ذا يُفتح لى الساعة لا أدرى أبالسعادة يُفتح أم بالشقاوة ؟ أنَّى لى أوان الجواب ؟ .

قال : وكان عليه سبعمائة دينار ، وغرماؤه عنده ، فنظر إليهم . وقال :

اللهم إنك جعلت الرهون وثيقة لأرباب الأموال ، وأنت تأخذ عنهم وثيقَتَهم فأدِّعنىٍّ .

قال : فدّق داقٌ الباب وقال : أين غرماء أحمد ؟ فقضى عنه .

ثم خرجت روحه . ومات ، رحمه الله ، سنة أربعين ومائتين .

وقال أحمد بن خضرويه : لا نوم أثقل من الغفلة ، ولا رقّ أملك من الشهوة ، ولولا ثقل الغفلة عليك لما ظفرت بك الشهوة[2] .

---

(١) قوة البذل للمال والجاه والعلم ، وصفه بعضهم فقال : ولى عارف ، سخى يبذل التالد والطارف ، أيس من الفضول ، فأونس بالوصول ، كان يجلب القلوب بوعظه ، وينثر الدرر برقيق لفظه ، ما رآه فقيه جاحد ، أو مكابر منتقد ، إلا اعترف ، ووقف على شاطئ التسليم ، وربما اغترف .

(٢) وقال : أفضل الأعمال رعاية السر عن الالتفات إلى شىء غير الله .

وقال : القلوب أوعية فإذا امتلأت من الحق فاضت زيادة أنوارها على الجوارح .

وقال : الصبر زاد المضطرين ، والرضا درجة العارفين .

وقال : حقيقة المحبة معرفته تعالى بالقلب ، وذكره باللسان ، مع الحضور والاحترام ، ورفع الهمة عن كل ما سواه .

ومنهم :

أبو الحسين أحمد بن أبي الحوارى[١]

من أهل دمشق ، صحب أبا سليمان الدارانى وغيره ، مات سنة : ثلاثين ومائتين . وكان الجنيد يقول : أحمد بن أبي الحوارى : ريحانة الشام .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى يقول : سمعت أبا أحمد الحافظ يقول : سمعت سعيد ابن عبدالعزيز الحلبى يقول : سمعت أحمد بن أبي الحوارى يقول :

من نظر إلى الدنيا نظرة إرادة وحبٍّ لها أخرج الله نور اليقين والزهد من قلبه ، وبهذا الإسناد يقول : من عمل عملاً بلا اتباع سنة رسول الله ﷺ ، فباطل عمله .

وبهذا الإسناد قال أحمد بن أبي الحوارى :

أفضل البكاء : بكاء العبد على ما فاته من أوقاته على غير الموافَقَة[٢].

وقال أحمد : ما ابتلى الله عبدًا بشيء أشد من الغفلة والقسوة .

---

(١) يروى أنه طلب العلم ثلاثين سنة ، فلما بلغ ، حمل كتبه إلى البحر فأغرقها ، وقال : ياعلم ، لم أفعل بك هذا هوانًا بك ولا استخفافًا بحقك ، بل كنت أطلب لأهتدى بك إلى ربى والآن استغنيت عنك .

ومن حكمه : « لا دليل على الله سواه » و « إذا حدثتك نفسك بترك الدنيا عند إدبارها فهو خدعة ، وإذا حدثتك بتركها عند إقبالها فذاك » .

(٢) أى لما جاءت به السنة .

ومنهم :

أبو حفص عمر بن مسلمة الحداد

من قرية يقال لها « كورداباذ » على باب مدينة نيسابور ، على طريق « بخارى » .

كان أحد الأئمة والسادة[1] . مات سنة نيِّف وستين ومائتين .

قال أبو حفص : المعاصى بريد[2] الكفر ، كما أن الحمىَّ بريد الموت .

قال أبو حفص : إذا رأيت المريد يحب السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة .

وقال : حُسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن .

وقال : الفتوةً : أداء الإنصاف ، وترك مطالبة الإنصاف[3] .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا الحسن محمد بن موسى يقول : سمعت أبا على الثقفي يقول : كان أبو حفص ، يقول : من لم يزن أفعاله وأحواله فى كل وقت بالكتاب والسنة ، ولم يتهم خواطره ، فلا نعدُه فى ديوان الرجال[4] .

---

(١) هو أول من أظهر طريقة التصوف بنيسابور ، صحب ابن خضروية والأبيوردى وكان حدادًا فبينما غلامه ينفخ غاب فكره فى ذكر محبوبه ففنى عن الحس البشرى ونسى أن يخرج الحديد من الكير بالآلة فأخرجه بيده ؛ فصاح الغلام : الحديد فى يدك بلا آلة ، فرماه به ، وخرج سائحًا فى البرية وهو يقول : شرط المحبة الستر والكتمان لا الافتضاح والإعلان .

ومن كلامه : الزاهد حقًا لا يذم الدنيا ، ولا يمدحها ولا ينظر إليها ، ولا يفرح بها إذا أقبلت ولا يحزن عليها إذا أدبرت « وسئل عن التوبة ، فقال : ليس للعبد من التوبة شيء ؛ لأن التوبة إليه ، لا منه » .

(٢) أى رسله ومقدماته .

(٣) أى لا يطلب النصفة من أحد فإن طلبها دليل على تقصيره .

(٤) أى الذين قال الله فيهم : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » .

ومنهم :

أبو تراب عسكر بن حصين النخشبى

صحب حاتمًا الأصمَّ ، وأبا حاتم العمَّار المصرى .

مات سنة : خمس وأربعين ومائتين[1] .

قيل : مات بالبادية نهسته[2] السباع .

وقال ابن الجلاء : صحبت ستمائة شيخ ، ما لقيت فيهم مثل أربعة : أوَّلهم : أبو تراب النخشبى .

قال أبو تراب : الفقير قُوتُه : ما وجده ، ولباسه : ماستره ، ومسكنه : حيث نزل .

وقال أبو تراب : إذا صدق العبد فى العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله ، فإذا أخلص فيه وجد حلاوته ولذَّته وقت مباشرة الفعل .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت جدِّى إسماعيل بن نجيد يقول : كان أبو تراب النخشبى إذا رأى من أصحابه ما يكره زاد فى اجتهاده وجدَّد توبته ويقول :

بشؤمى دفعوا إلى ما دُفعوا إليه ، لأن الله عز وجل يقول : ﴿ إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم ﴾ قال : وسمعته يقول أيضًا لأصحابه : من لبس منكم مُرَقعة فقد سأل ، ومن قعد فى خانقاه أو مسجد فقد سأل ، ومن قرأ القرآن مِن مصحف ، أو كيما يسمع الناس فقد سأل .

قال : وسمعته يقول : كان أبو تراب يقول : بيني وبين الله عهد أن لا أمد يدى إلى حرام إلا قصرت يدى عنه .

ونظر أبو تراب يومًا إلى صوفى من تلامذته قد مدَّ يده إلى قشر بطيخ ، وقد طوى ثلاثة أيام ، فقال له أبو تراب :

تمد يدك إلى قشر البطيخ ؟ أنت لا يصلح لك التصوف ، الزم السوق .

---

(١) تفقه على مذهب الإمام الشافعى ، وأخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل ، ومن حكمه : الناس يحبون ثلاثة وليست لهم : النفس والروح ، وهما لله . والمال وهو للورثة : ويطلبون اثنين ولا يجدونهما : الفرح والراحة وهما فى الجنة .

(٢) أخذت لحمه بمقدم أسنانها .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت أبا عبدالله الفارسى يقول سمعت أبا الحسين الرازى يقول : سمعت يوسف بن الحسين يقول : سمعت أبا تراب النخشبى يقول :

ما تمنت نفسى علىّ شيئًا قط[1]، إلا مرة واحدة : تمنت علىّ خبزًا وبيضًا ، وأنا فى سفرى ، فعدلت عن الطريق إلى قرية ، فوثب رجل وتعلق بى وقال : كان هذا مع اللصوص ، فبطحونى وضربونى سبعين خشبة . قال : فوقف علينا رجل صوفى ، فصرخ وقال : ويحكم هذا أبو تراب النخشبى ، فخلونى واعتذروا إلىَّ وأدخلنى الرجل منزله ، وقدَّم إلىَّ خبزًا وبيضًا ، فقلت[2] : كلْها بعد سبعين جلدة .

وحكى ابن الجلاء قال : دخل أبو تراب مكة طيِّب النفس ، فقلت : أين أكلت أيُّها الأستاذ ؟ فقال : أكلة بالبصرة ، وأكلة بالنباج ، وأكلة هاهنا .

---

(١) أى منذ أخذ فى الرياضة .

(٢) أى فى نفسى لنفسى .

ومنهم :

أبو محمد عبدالله بن خبيق

من زهّاد المتصوِّفة ، صحب يوسف بن أسباط .

كان كوفىَّ الأصل ، ولكنه سكن أنطاكية .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا الفرج الورثانى يقول : سمعت أبا الأزهر الميافارقينى يقول : سمعت فتح بن شخرف يقول : حدثنى عبد الله بن خبيق أول ما لقيته فقال لى :

ياخراسانى ، إنما هى أربع لا غير : عينك ، ولسانك ، وقلبك ، وهواك .. فانظر عينك ، لا تنظر بها إلى ما لا يحل ، وانظر لسانك ، لا تقل به شيئًا يعلم الله تعالى خلافه من قلبك ؛ وانظر قلبك ، لا يكن فيه غلٌّ ولا حقد على أحد من المسلمين ، وانظر هواك لا تهوى به شيئًا من الشرِّ ، فإذا لم يكن فيك هذه الأربع من الخصال ، فاجعل الرماد على رأسك ؛ فقد شقيت .

وقال ابن خُبيق : لا تغتمَّ إلا من شىء يضرك غدًا ، ولا تفرح إلا بشىء يسرُّك غدًا .

وقال ابن خبيق : وحشة العباد عن الحق ، أو حشتْ منهم القلوب ، ولو أنهم أنسوا بربِّهم لأنس بهم كل أحد .

وقال : أنفع الخوف ما حجزك عن المعاصى ، وأطال منك الحزن على ما فاتك ، وألزمك الفكرة فى بقية عمرك ، وأنفع الرجاء : ما سهَّل عليك العمل .

وقال : طول الاستماع إلى الباطل يطفئ حلاوة الطاعة من القلب .

ومنهم :

أبو على أحمد بن عاصم الأنطاكى

من أقران بشر بن الحارث ، والسرىّ السقطى ، والحارث المحاسبىّ .

وكان أبو سليمان الدارانى يسميه : جاسوس القلب ، لحدة فراسته .

وقال أحمد بن عاصم : إذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك[1] .

وقال أحمد بن عاصم : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُم وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ونحن نستزيد من الفتنة[2] .

---

(١) إنما خص اللسان بالذكر لعظم جرائمه التى تؤثر فى القلب ظلمة زائدة ، فعلى العاقل أن يشغل لسانه بالذكر والتلاوة ، ليتنور قلبه .

(٢) ومن كلامه : « احذر الغيبة كما تحذر عظيم البلاء ؛ فإنها إذا ثبتت فى القلب أتتها أخواتها من النميمة والبغى وسوء الظن والبهتان . وهى مجانبه للإيمان » .

« كفى بالعبد عارًا أن يدعى دعوة لا يحققها بفعله ، أو يجعل لغير ربه من قلبه نصيبًا أو يستوحش مع ذكره » .

« من كان بالله أعرف ، كان منه أخوف » .

وكان ، رضى الله عنه ، من المحدثين .

ومنهم :

أبو السرى منصور بن عمار[1]

من أهل مرو ، من قرية يقال لها : « يرانقان » .

وقيل إنه من « بوشنج » أقام بالبصرة : وكان من الواعظين الأكابر .

وقال منصور بن عمار : من جزع من مصائب الدنيا تحوَّلت مصيبته فى دينه .

وقال منصور بن عمار : أحسن لباس العبد : التواضع ، والانكسار ، وأحسن لباس العارفين : التقوى ، قال الله تعالى : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ .

وقيل : إن سبب توبته أنه وجد فى الطريق رقعة مكتوبًا عليها « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فرفعها ، فلم يجد لها موضعًا[2] فأكلها ، فرأى فى المنام كأن قائلا قال له :

فتح الله عليك باب الحكمة ؛ باحترامك لتلك الرقعة .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول سمعت أبا العباس القاصّ يقول سمعت أبا الحسن الشعرانى يقول :

رأيت منصور بن عمار فى المنام ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟

فقال قال لى : أنت منصور بن عمار ؟ فقلت : بلى يارب .

قال : أنت الذى كنتَ تزهدٍّ الناس فى الدنيا وترغب فيها ؟

قلت : قد كان ذلك يارب ، ولكنى ما اتخذت مجلسًا إلا بدأت بالثناء عليك وثنَّيت بالصلاة على نبيك ؛ ﷺ ، وثلَّثت بالنصيحة لعبادك .

---

(١) ويسمى « المرزوى » مات ببغداد سنة خمس وعشرين ومائتين .

كتب إليه بشر المريسى : ما قولك فى القرآن ، أمخلوق أم لا ؟ .

فكتب إليه : أما بعد ، عافانا الله وإياك من كل فتنة ، فإن يفعل فأعظم بها من نعمة ، وإلا فهو الهلكة ، اعلم أن الكلام فى القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب ، فتعاطى السائل ما ليس له ، وتكلف المجيب ما ليس له ، والله تعالى الخالق ، وما دون الله مخلوق ، والقرآن كلام الله ، وانته إلى أسمائه التى سماه الله بها تكن من المهتدين ، ولا تبتدع فى القرآن من قبلك اسمًا تكن من الضالين « وذر الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » .

(٢) أى يليق بها .

٧٥

فقال : صدق ، ضعوا له كرسيا ، يمجدنى فى سمائى بين ملائكتى ، كما كان يمجِّدنى فى أرضى بين عبادى[1] .

---

(١) قال العروسى : هذه القصة تشير إلى أن العبرة بما سبق من العناية ، وإن ظهر خلاف طريق الهداية ، لتحقق فائدة الرجاء والأمل ، لكل من عمل ومن لم يعمل ، وذلك بواسطة فيوضات الكرم ، من خزائن ولى النعم – ومع هذا فعلى المكلف دوام الامتثال ، وتفويض القبول لرب الأفضال ، فلا يغتر الإنسان بكثرة العبادات ، ولايقنط بكبير المخالفات ، لثبوت الجهل بما علمه العليم ، مما قضاه بحكمه القويم ، فيلزم أن يكون عمله بين الرجاء والخوف ، ولا يضيع وقته ما بين عسى وسوف ، حيث ذلك من علامة الخذلان ، والقائد إلى دركات النيران ، هذا ما تحرر فى أحكام الشريعة ، والمعول عليه فى أصول الحقيقه .

ومنهم :

أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار

نيسابورى ، منه انتشر مذهب الملامتية[١] بنيسابور .

صحب سلما[٢] الباروسى ، وأبا تراب النخشبى .

مات : سنة إحدى وسبعين ومائتين .

سئل حمدون : متى يجوز للرجل أن يتكلم على الناس[٣] ؟ .

فقال : إذا تعين عليه أداء فرض من فرائض الله تعالى فى علمه ، أو خاف هلاك إنسان فى بدعة ، وهو يرجو أن ينجيه الله تعالى منها[٤] .

وقال : من ظن أن نفسه خير من نفس فرعون[٥] ، فقد أظهر الكبر .

وقال : مذ علمت أن للسلطان فراسة فى الأشرار ، ما خرج خوف السلطان من قلبى .

وقال : إذا رأيت سكرانًا فتمايل ؛ لئلا تبغى عليه ، فتبتلى بمثل ذلك[٦] .

وقال عبدالله بن منازل : قلت لأبى صالح : أوصنى .

فقال : « إن استطعت أن لا تغضب لشىء من الدنيا ، فافعل » .

ومات صديق له ، وهو عند رأسه ، فلما مات أطفأ حمدون السراج . فقالوا له :

---

(١) الملامتية : هم الذين يسترون صلاحهم بأمور تتداولها العوام ليست بمخالفات ولامعاص مبالغة فى الخفاء عن الشهرة ويعقب الإمام العروسى على هذا المذهب بقوله : « ولكن طريق الاتباع أكمل ، والله سبحانه بعباده أعلم » وقد أفرد السهروردى فصلًا فى عوارفه لبيان أحوالهم والحديث عنهم .

(٢) وفى نسخة أخرى « سالما » .

(٣) أى يعظمهم .

ومن كلامه : لايجزع من المصيبة إلا من اتهم ربه » ، « لا أحد أدون ممن يتزين إلى دار فانية ، ويتذلل إلى من لا يملك له ضرًا ولا نفعًا » ، « إنما كان كلام السلف أنفع من كلامنا لأنهم تكلموا لعز الإسلام ، ونجاة النفوس ، ورضا الرحمن ، ونحن نتكلم لعز النفوس ، وطلب الدنيا ، ورضا الخلق » (إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا كفرحهم بثلاثة : مؤمن قتل مؤمنا ، ورجل يموت كافرًا ، وقلب فيه خوف الفقر) ، (إذا استطعت أن تصبح مفوضا لا مدبرا فافعل) ، (من شغله طلب الدنيا عن الآخرة ، ذل فى الدنيا والآخرة) .

مات رحمه الله سنة إحدى وسبعين ومائتين ، ودفن بنيسابور . وقد أسند الحديث عن جماعة من الأعيان ، وروى عنه آخرون .

(٤) هذا إذا سلم حال تكلمه من الكبر والعجب والرياء ، ونحوها من الآفات . كما قال الأنصارى فى شرحه .

(٥) أى : فى الآخرة ، لأنه لا يدرى بم يختم له ، أما الحكم فى الحال بأن المؤمن خير من الكافر فحق لا كبر فيه .

(٦) المراد ترك الكبر على العصاة ، ورحمتهم ، وصدور الموعظة لهم على وجه الرفق بهم والخوف عليهم .

فى مثل هذا الوقت يزاد فى السراج الدهنُ .

فقال لهم : إلى هذا الوقت كان الدهن له ومن هذا الوقت صار الدهن للورثة .

وقال حمدون : من نظر فى سير السلف عرف تقصيره وتخلفه عن درك درجات الرجال .

وقال : لا تفش على أحد ما تحب أن يكون مستورًا منك .

ومنهم :

أبو القاسم الجنيد بن محمد

سيد هذه الطائفة وإمامهم[١] .

أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق ، وأبوه كان يبيع الزجاج ؛ فلذلك يقال له : « القواريرى » .

وكان فقيهًا على مذهب « أبى ثور » وكان يفتى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة ، صحب خاله السرى ، والحارث المحاسبى ومحمد بن على القصاب .

مات سنة : سبع وتسعين ومائتين .

سمعت محمد بن الحسين ؛ رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن الحسين البغدادى يقول : سمعت الفراغانى يقول : سمعت الجنيد ؛ وقد سئل : من العارف ؟

قال : من نطق عن سرِّك[٢] وأنت ساكت .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن عبدالله الرازى يقول : سمعت أبا محمد الجريرى يقول : سمعت الجنيد يقول :

ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، لكن عن الجوع ؛ وترك الدنيا ، وقطع المألوفات والمستحسنات .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا محمد الجريرى يقول : سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا نصر الأصبهانى يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول : سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة وقال :

أهل المعرفة بالله : يصلون إلى ترك الحركات[٣] من باب البرِّ والتقرُّب إلى الله عزّ وجلّ .

---

(١) قال ابن عربى فى الفتوحات : هو سيد أهل الطائفة ، كان من الفقهاء المتعبدين على مذهب الشافعية وتفقه على أبى ثور .

توفى ببغداد سنة ٢٩٨ هـ ، وكان الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه ، والفقهاء لتقريره ، والفلاسفة لدقة نظره ومعانية ، والمتكلمون لتحقيقه ، والصوفية لإشاراته وحقائقه .

ومن حكمه : الإخلاص سر بين العبد وربه لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيهلكه ، وقال : بنى الطريق على أربع : لا تتكلم إلا عن وجود ، ولا تأكل إلا عن فاقه ، ولاتنم إلا عن غلبة ، ولا تسكت إلا عن خشية .

(٢) وفى نسخة أخرى : بسرك .

(٣) أى الأعمال .

فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندى عظيمة ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذى يقول هذا ، فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى ، وإليه رجعوا فيها ، ولو بقيتُ ألف عام لم أنقص من أعمال البرِّ ذرَّة إلا أن يحال بى دونها .

وقال الجنيد : إن أمكنك أن لا تكون آلة بيتك إلا خزفًا ، فافعل .

وقال الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت أبا عمر الأنماطى يقول سمعت الجنيد يقول :

لو أقبل صادق على الله ألف ألف سنة ، ثم أعرض عنه لحظة ، كان مافاته أكثر مما ناله .

وقال الجنيد : من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به فى هذا الأمر[1] ، لأن علمنا هذا مقيَّد بالكتاب والسنَّة .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا نصر الأصبهانى يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول عن الجنيد : مذهبنا هذا : مقيَّد بأصول[2] الكتاب والسنَّة .

وقال الجنيد : علمنا هذا مشيَّد بحديث رسول الله ﷺ .

أنبأنا محمد بن الحسين رحمه الله ، قال : سمعت أبا الحسين بن فارس يقول : سمعت أبا الحسين على بن إبراهيم الحداد يقول : حضرت مجلس القاضى[3] أبى العباس بن شريح ، فتكلّم فى الفروع والأصول بكلام حسن عجبت منه ، فلما رأى إعجابى قال :

أتدرى من أين هذا ؟

قلت : يقول به القاضى .

فقال : هذا ببركة مجالسة أبى القاسم الجنيد .

وقيل للجنيد : من أين استفدت هذا العلم ؟ .

فقال : من جلوسى بين يدى الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة ، وأومأ إلى درجة فى داره .

---

(١) أى التصوف .

(٢) وفى نسخة أخرى (بالأصول) .

(٣) فى نسخة بدون ذكر (القاضى) .

سمعت الأستاذ أبا عليّ الدقاق ، رحمه الله ، يحكى ذلك ، وسمعته يقول :

رؤى فى يده سبحة ، فقيل له : أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة ؟!

فقال : طريق به وصلت إلى ربى لا أفارقه .

سمعت الأستاذ أبا عليّ ، رحمه الله ، يقول :

كان الجنيد يدخل كل يوم حانوته ، ويسبل الستر ، ويصلى أربعمائة ركعة ، ثم يعود إلى بيته .

وقال أبو بكر العطوى :

كنت عند الجنيد حين مات ، فرأيته ختم القرآن .. ثم ابتدأ من البقرة وقرأسبعين آية ثم مات رحمه الله[1] .

---

(١) ومن أقواله :

« لا يسمى عبد عاقلا حتى لا يظهر على جوارحه شيء ذمه ربه » .

« بنى الطريق على أربع : لا تتكلم إلا عن وجود ، ولا تأكل إلا عن فاقة ، ولا تنم إلا عن غلبة ، ولا تسكت إلا عن خشية » .

« صفاء القلوب على حسب صفاء الذكر وخلوصه من الشوائب » .

« يجعل أحدهم بينه وبين قلبه مخلاة من الطعام ، ويريد أن يجد حلاوة المناجاة » .

« طريق التصوف عنوة لا صلح فيها » .

« لا يصفو قلب لعمل الآخرة ، إلا إذا تجرد من حب الدنيا » .

ومنهم :

أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الجبرى

المقيم بنيسابوز . وكان من « الرى » صحب شاه الكرمانى ، ويحيى بن معاذ الرازى ثم ورد نيسابور ، مع شاه الكرمانى ؛ على[1] أبى حفص الحداد وأقام عنده ، وتخرَّج به ، وزوجه أبو حفص ابنته .

مات سنة ثمان وتسعين ومائتين ، وعاش بعد أبى حفص نيفا وثلاثين سنة .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا عمرو بن حمدان يقول : سمعت أبا عثمان يقول : لا يكمل إيمان الرجل حتى يستوى فى قلبه أربعة أشياء .

المنع ، والإعطاء ، والعزّ ، والذلّ .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبدالرحمن بن عبدالله يقول : سمعت بعض أصحاب أبى عثمان يقول : سمعت أبا عثمان ، يقول : صحبت أبا حفص مدَّة ، وأنا شاب ، فطردنى مرَّة ، وقال : لا تجلس عندى .

فقمت ، ولم أوَله ظهرى ، وانصرفت إلى ورائى ، ووجهى إلى وجهه .. حتى غبت عن عينيه[2] ، وجعلت على نفسى : أن أحفر على بابه حفرة لا أخرج منها إلا بأمره .

فلما رأى ذلك أدنانى ، وجعلنى من خواصِّ أصحابه .

قال : وكان يقال فى الدنيا ثلاثة لا رابع لهم :

أبو عثمان بنيسابور ، والجنيد ببغداد ، وأبو عبدالله بن الجلاءِ بالشام .

وقال أبو عثمان : منذ أربعين سنة ما أقامنى الله تعالى فى حال فكرهته ولا نقلنى إلى غيره فسخطته .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبدالله بن محمد الشعرانى يقول : سمعت أبا عثمان يقول ذلك .

ولما تغيَّر على أبى عثمان الحال[3] مزّق ابنه أبو بكر قميصًا على نفسه ، ففتح أبو عثمان

---

(١) أى وقرأ على أبى حفص .

(٢) وفى نسخة أخرى « عنه » .

(٣) أى حينما غشى عليه فى مرضه .

عينيه وقال : خلاف[1] السُّنة يابنى فى الظاهر ، علامة رياء فى الباطن .

سمعت محمد بن الحسين ، يقول : سمعت محمد بن أحمد الملامتى يقول : سمعت أبا الحسين الوَّراق يقول : سمعت أبا عثمان يقول :

الصحبة مع الله : بحسن الأدب ؛ ودوام الهيبة ، والمراقبة .

والصحبة مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم باتِّباع سنَّته ، ولزوم ظاهر العلم .

والصحبة مع أولياء الله تعالى بالاحترام والخدمة .

والصحبة مع الأهل : بحسن الخلق .

والصحبة مع الأخوان : بدوام البشر ما لم يكن إثما .

والصحبة مع الجهَّال : بالدعاء لهم والرحمة عليهم .

سمعت عبدالله بن يوسف الأصبهانى رحمه الله يقول :

سمعت أبا عمرو بن نجيد يقول : سمعت أبا عثمان يقول :

من أمَّر[2] السنَّة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾[3] .

---

(١) أى ما فعله ابنه من اظهار الحزن والألم عليه حتى لا يذم بترك الحنو على والده . إذ لم يراقب الله فى أمره ونهيه عند نزول المصائب .

(٢) لازمها ولم يخرج عنها .

(٣) آية ٥٤ من سورة النور ، ومن أقواله أيضًا :

« حق على من أعزه الله بالطاعة ألا لا يذل نفسه بالمعصية » .

« أصل التعليق بالخير ، قصر للأمل .. ومادمت تتبع شهوتك وإرادتك فأنت مسجون . فإذا فوضت أمرك إلى الله وسلمت استرحت » .. أى مع العمل .

أصحب الأغنياء بالتعزز ، والفقراء بالتذلل .. فإن التعزز على الأغنياء تواضع ، والتذلل للفقراء شرف .

« علامة السعادة أن تطيع الله وتخاف أن تكون مردودًا ، والشقاوة : أن تعصيه وترجو أن تكون مقبولاً .

ومنهم :

أبو الحسين أحمد بن محمد النورى

بغدادى المولد والمنشأ ، بغوى الأصل .

صحب السرىَّ السقطى ، وابن أبى الحوارى ، وكان من أقران الجنيد رحمه الله .

مات سنة : خمس وتسعين ومائتين ، وكان كبير الشأن ، حسن المعاملة واللسان .

قال النورى ، رحمه الله : التصوُّف : ترك كل حظ للنفس .

وقال النورى : أعزُ الأشياء فى زماننا شيئان :

عالم يعمل بعلمه ، وعارف ينطق عن حقيقة .

سمعت أبا عبدالله الصوفى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أحمد بن محمد البرذعى يقول : سمعت المرتعش يقول سمعت النورى يقول :

من رأيتَه يدَّعى مع الله حالة تخرجه عن حدِّ العلم الشرعى فلا تقربنَّ منه .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت الفرغانى يقول : سمعت الجنيد يقول :

منذ مات النورى لم يخْبِر عن حقيقة الصدق أحد .

وقال أبو أحمد المغازلى :

ما رأيت أعبد من النورى ، قيل : ولا الجنيد قال : ولا الجنيد .

وقال النورى : كانت المراقع غطاءً على الدرِّ ، فصارت اليوم مزابل على جيَف .

وقيل : كان يخرج كلَّ يوم من داره ، ويحمل الخبز معه . ثم يتصدَّق به فى الطريق ، ويدخل مسجدًا يصِّلى فيه إلى قريب من الظهر ؛ ثم يخرج منه ويفتح باب حانوته ، ويصوم[١] .

فكان أهله يتوهَّمون أنه يأكل فى السوق ، وأهل السوق يتوهَّمون أنه يأكل فى بيته .

وبقى على هذا[٢] فى ابتدائه عشرين سنة[٣] .

---

(١) بقية يومه .

(٢) وفى نسخة أخرى « وبقى علَى هذا النهج » أى الطريق : وهو إخفاء حاله فى عبادة ربه .

(٣) ومن كلامه :

« من وصل إلى وده ، أنس بحبه .. ومن توصل بالوداد ، فقد اصطفاه الله من بين العباد » .

« نعت الفقير السكون عند العدم ، والبذل والإيثار عند الوجدان » ..

ومنهم :

أبو عبدالله بن يحيى الجلاء

بغداديٌّ الأصل ، أقام بالرملة ودمشق ، من أكابر مشايخ الشام .

صحب أبا تراب ، وذا النون ، وأبا عبيد البُسرى ؛ وأباه يحيى الجلَّاء .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن عبدالعزيز الطبرى يقول : سمعت أبا عمر الدمشقى ، يقول : سمعت ابن الجلَّاء يقول :

قلت لأبى وأمى : أحبُّ أن تهبانى لله عزَّ وجل . فقالا : قد وهبناك لله عز وجلَّ .

فغبت عنهما مدَّة ، فلما رجعت كانت ليلة مطيرة ، فدققت الباب ، فقال لى أبى : من ذا ؟ قلت : ولدك أحمد .

فقال : كان لنا ولد ، فوهبناه لله تعالى ، ونحنُ من العرب لانسترجع ما وهبناه ، ولم يفتح لى الباب .

وقال ابن الجلَّاء : من استوى عنده المدح والذم ، فهو زاهد ، ومن حافظ على الفرائض فى أول مواقيتها فهو عابد ، ومن رأى الأفعال كلها من الله ، فهو مُوحِّد لا يرى إلا وَاحدًا .

ولما مات ابن الجلَّاء نظروا إليه ، وهو يضحك . فقال الطبيب : إنه حى .

ثم نظر إلى مجسَّته فقال : إنه ميت . ثم كشف عن وجهه ، فقال : لا أدرى أهو ميت أم حى !! .

وكان فى داخل جلده عِرق على شكل « الله » .

وقال ابن الجلَّاء ، رحمه الله ، كنت أمشى مع أستاذى ، فرأيت حدثًا جميلًا فقلت : يا أستاذى ، تُرى يعذِّب الله هذه الصورة ؟ .

فقال : أوَ نظرت إليه !! سترى غبَّه[1] .

قال : فنسيت القرآن بعده بعشرين سنة[2] .

---

(١) غبه : عاقبته .

(٢) ومن أقواله :

« سمت همم المريدين إلى طلب الطريق إليه ، فأفنوا نفوسهم فى الطلب ، وسمت همم العارفين إلى مولاهم فلم تعطف على شىء سواه .. الحق استصحب أقواما للكلام ، واستصحب أقواما للخلة .. فمن استصحبه الحق لمعنى ابتلاه بأنواع المحن . فليحذر أحدكم طلب رتبة الأكابر .

« .. من بلغ بنفسه إلى رتبة سقط عنها . ومن بلغ به ثبت عليها .

ومنهم :

أبو محمد رويم بن أحمد

بغداديٌّ ، من أجلَّة المشايخ مات : سنة ثلاث وثلاثمائة .

وكان مقرئا ، وفقيها على مذهب داود[١] .

قال رويم : من حِكم الحكيم ، أن يوسِّع على إخوانه فى الأحكام ، ويضيِّق على نفسه فيها ، فإن التوسعة عليهم اتباع العلم ، والتضييق على نفسه من حكم الورع .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبدالواحد بن بكر يقول : سمعت أبا عبدالله بن خفيف يقول : سألت رويما ، فقلت : أوصنى .

فقال : ما هذا الأمر ، إلا ببذل الروح[٢] ، فإن أمكنك الدخول فيه مع هذا ، وإلا فلا تشتغل بترَّهات[٣] الصوفية .

وقال رويم : قعودك مع كل طبقة من الناس أسلم من قعودك مع الصوفية ، فإن كل الخَلق قعدوا على الرسوم[٤] ، وقعدت هذه الطائفة على الحقائق وطالب الخلق كلهم أنفسهم بظواهر الشرع ، وطالب هؤلاء أنفسهَم بحقيقة الورع ، ومداومة الصدق ، فمن قعد معهم وخالفهم فى شىء مما يتحققون به نزع الله نورَ الإيمان من قلبه .

وقال رويم :

اجتزت ببغداد وقت الهاجرة ببعض السكك ، وأنا عطشان ، فاستقيت من دار ، ففتحت صبيَّة بابها ، ومعها كوز ، فلما رأتنى قالت :

صوفيٌّ يشرب بالنهار !!

فما أفطرتُ بعد ذلك اليوم قط .

---

(١) داود الظاهرى : وهو أبو سليمان ، داود بن على بن خلف الأصبهانى . أحد الأئمة المجتهدين فى الإسلام تنسب إليه الطائفة الظاهرية ، وسميت بذلك لأخذها بظاهر الكتاب والسنة وإعراضها عن التأويل والرأى والقياس ، مولده فى الكوفة سنة ٢٠١ هـ ، وتوفى ببغداد سنة ٢٧٠ هـ .

(٢) أى بذل الجهد فى الطاعات والإعراض عن المحرمات .

(٣) جمع ترهة : وهى الأباطيل والخرافات .

(٤) اى [illegible] نفوا بالأعمال الظاهرية .

وقال رويم :

إذا رزقك الله المقال[١] ، والفعال ، فأخذ منك المقال وأبقى عليك الفعال فإنها نعمة ، وإذا أخذ منك الفعال ، وأبقى عليك المقال ، فإنها مصيبة ، وإذا أخذ منك كليهما فهى نقمة وعقوبة[٢] .

---

(١) المقال أى العلم – والفعال : أى العمل به .

(٢) ومن أقواله :

« . السكون إلى الاحوال اغترار » ، – « رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين » ، : الفقر له حرمه ، وحرمته ستره وإخفاؤه والغيره عليه والضن بكسفه » .

« الإخلاص : ارتفاع رؤيتك عن فعلك ، والفتوة : أن تعذر إخوانك فى زللهم ، ولا تعاملهم بما يحوج إلى الاعتذار إليهم » .

« الصبر : ترك السكوى ، والرضا : التلذذ بالبلوى ، واليقين : المشاهدة بالبصيرة » .

ومنهم :

أبو عبد الله محمد بن الفضل البلخى

ساكن سمرقند : بلخى الأصل ، أخرج منها ، فدخل سمرقند ، ومات بها .

وصحب أحمد بن خَضْرويه ، وغيره ، وكان أبو عثمان الحيرى يميل إليه جدا . مات سنة : تسع عشرة وثلاثمائة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أحمد بن محمد الفرَّاء ، يقول : سمعت أبا بكر بن عثمان يقول : كتب أبو عثمان الحيرى إلى محمد بن الفضل يسأله : ما علامة الشقاوة ؟ فقال : ثلاثة أشياء : يُرزق العلم ويحرم العمل ، ويرزق العمل ويحرم الإخلاص ، ويرزق صحبة الصالحين ولا يحترمُ لهم .

وكان أبو عثمان الحيرى يقول : محمد بن الفضل سمسار[1] الرجال .

سمعت محمد الحسين يقول : سمعت عبد الله الرازى يقول : سمعت محمد بن الفضل يقول : الراحة فى السِّجن[2] من أمانى النفوس .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت محمد بن الفضل يقول :

ذهاب الإسلام من أربعة : لا يعملون بما يعلمون ، ويعملون بمالا يعلمون ، ولا يتعلمون مالا يعلمون ، ويمنعون الناس من التعلم .

وبهذا الإسناد ، قال :

العجب ممن يقطع المفاوز ليصل إلى بيته[3] ، فيرى آثار النبوة ، كيف لا يقطع نفسه وهواه ، ليصل إلى قلبه فيرى آثار ربِّه عزَّ وجل !؟

وقال : إذا رأيت المريد يستزيد من الدنيا ، فذلك من علامات إدباره .

---

(١) أى يعرف أقدارهم ورتبهم فى الدين ، كما يعرف سمسار السلع قدرها وقدر أثمانها .

(٢) المراد بالسجن : الدنيا ، مصداقا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام :« الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » .

(٣) أى بيت الله تعالى .

وسئل عن الزهد ، فقال :

النظر إلى الدنيا بعين النقص والإعراض عنها تعزُّزًا ، وتظرفاً ، وتشرفًا[1]

(١) ومن أقواله : أعرف الناس بالله : أشدهم مجاهدة فى أوامره ، وأتبعهم لسنة نبيه ﷺ ، وقال : « من استوى عنده ما دون الله نال المعرفة بالله » « أنزل نفسك منزلة من لا حاجة له فيها ، ولا بدله منها ، فإن من ملك نفسه عز ، ومن ملكته نفسه ذل » .

ومن كلامه : « ست خصال يعرف بها الجاهل : الغضب فى غير شىء ، والكلام فى غير نفع ، والعظة فى غير موضعها ، وإفشاء السر ، والثقة بكل أحد ، ولا يعرف صديقه من عدوه » أ . هـ .

ومنهم :

أبو بكر أحمد بن نصر الزقاق الكبير

كان من أقران الجنيد . من أكابر مصر .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت الحسين بن أحمد يقول : سمعت الكتانى يقول :

لما مات الزَّقاق انقطعت حُجَّة الفقراء فى دخولهم مصر[١] .

وقال الزقاق : من لم يصحبه التَقى فى فقره أكل الحرام المحض .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن عبد العزيز يقول : سمعت الزقّاق يقول :

تهت فى تيه بنى إسرائيل مقدار خمسة عشر يوماً ، فلما وقعتُ على الطريق استقبلنى إنسان جندى ، فسقانى شربة من ماء ، فعادت قسوتها على قلبى ثلاثين سنة .

---

(١) أى أن الفقراء الذين يدخلون مصر بعد وفاته يتهمون بأن دخولهم مصر إنما يكون للاستزادة من خيراتها المادية الوافرة وليس للاستفادة الروحية التى انتهت – فى نظر القائل – بوفاة الزقاق .

ومنهم :

أبو عبد الله عمرو بن عثمان المكى

لقى أبا عبد الله النباجى ، وصحب أبا سعيد الخرّاز وغيره .

شيخ القوم ، وإمام الطائفة فى الأصول والطريقة .

مات ببغداد سنة : إحدى وتسعين ومائتين .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان ، يقول : سمعت أبا بكر محمد بن أحمد يقول : سمعت عمرو بن عثمان المكى يقول :

كل ما توهمه قلبك ، أو رسخ[1] فى مجارى فكرتك ، أو خطر فى معارضات قلبك من حسن ، أو بهاء ، أو أنس ، أو جمال ، أو ضياء ، أو شبح ، أو نور ، أو شخص ، أو خيال ، فالله تعالى بعيد من ذلك ، ألا تسمع إلى قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ وقال : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

وبهذا الإسناد قال :

العلم قائد ، والخوف سائق ، والنفس حَرون بين ذلك ، جَموح ، خدَّاعة ، روَّاغة ، فاحذرها بسياسة العلم ، وسقها بتهديد الخوف يتم لك ما تريد .

وقال : لا تقع على الواجد[2] عبارة ، لأنه سر الله عند المؤمنين[3] .

---

(١) وفى نسخة أخرى (أوسنح) أى عرض وخطر .

(٢) وفى نسخة أخرى : (الوجد) عبارة : أى يعبر بها عنه .

(٣) وقال : (الصبر : الثبات مع الله ، وملاقاة بلائه بالرحب والدعة) (المروءة : التفاعل عن زلل الإخوان) .

ومنهم :

سمنون بن حمزة

وكنيته : أبو الحسن ، ويقال : أبو القاسم .

صحب السريَّ ، وأبا أحمد القلانسي ، ومحمد بن على القصَّار ؛ وغيرهم .

قيل إنه أنشد :

وليس لى فى سواك حظ ... فكيفما شئت فاختبرنى

فأخذه الأسر[1] من ساعته فكان يدور على المكاتب ، ويقول : ادعوا لعمِّكم الكذَّاب .

وقيل : إنه أنشد هذه الأبيات ، فقال بعض أصحابه لبعض : سمعت البارحة ، وكنت فى الرُستاق صوت أستاذنا « سمنون » يدعو الله ، ويتضَرَّع إليه ، ويسأله الشفاءِ .

فقال آخر : وأنا أيضاً ، كنت سمعت هذا البارحة ، وكنت بالموضع الفلانى .

فقال ثالث ، ورابع ، مثل هذا ، فأخبر سمنون ، وكان قد امتُحن بعلّة الأسر ، وكان يصبر ولا يجزع ، فلما سمعهم يقولون هذا ؛ ولم يكن هو دعا ؛ ولا نطق بشىء من ذلك ، علم أن المقصود منه إظهار الجزع تأدُّباً بالعبودية ، وستراً لحاله ، فأخذ يطوف على المكاتب ويقول : ادعوا لعمِّكم الكذَّاب .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول سمعت أبا العباس محمد بن الحسن البغدادى يقول : سمعت جعفراً الخلدى يقول : قال لى أبو أحمد المنازلى :

كان ببغداد رجل فرّق على الفقراء أربعين ألف درهم ، فقال لى سمنون :

يا أبا أحمد ، ألا نرى ما قد أنفق هذا ، وماقد عمله ؟ ونحن ما نجد شيئاً !! فامض بنا إلى موضع نصلِّى فيه بكل درهم أنفقه ركعة[2] .

---

(١) الأسر : احتباس البول ، ويروى ابن عربى سبب ذلك فيقول : « لما أساء سمنون الأدب مع الله وأراد أن يقاوم القدرة الإلهية لما وجد فى نفسه من حكم الرضا والصبر ، أبتلى بالأسر الذى هو احتباس البول فكان يتلوى منه كالحية على الرمل ، إذ مقاومة القهر الالهى سوء أدب .

ولما تاب الله عليه وشفاه ، أنشد :

أنا راض بطول صَدك عنى ... ليس إلا لأن ذاك هواكا

فامتحن بالجفا ضميرى ... الود ودعنى معلقاً برجاكا

(٢) أى ركعة كما فى نسخة أخرى .

فمضينا إلى المدائن ، فصلّينا أربعين ألف صلاة .

وكان سمنون ظريف الخُلق ، أكثر كلامه فى المحبَّة ، وكان كبير[1] الشأن مات قبل الجنيد ، كما قيل .

(١) ومن كلامه فى ذلك : أول وصل العبد هجرانه لنفسه ، وأول هجران العبد للحق مواصلته لنفسه . وسئل عن المحبة فقال : صفاء الود مع دوام الذكر ، وعن التصوف ، فقال : أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء .. وقيل له : إنا نذكر الله ولا نجد فى قلوبنا حلاوة ، فقال : أحمدوا الله على أن زين جارحة من جوارحكم بذكره »

ومنهم :

أبو عبيد البسرى

من قدماء المشايخ صحب أبا تراب النخشَبى .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبد الله بن علىٍّ يقول : سمعت الدُّقى يقول : سمعت ابن الجلَّاءِ يقول :

لقيت ستمائة شيخ فما رأيت مثل أربعة :

ذى النون المصرى ، وأبى[1] ، وأبى تراب ، وأبى عبيد البُسرى .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أحمد بن محمد البَغَوى يقول : سمعت محمد بن معمر يقول : سمعت أبا زرعة الحسنى يقول :

كان أبو عبيد البسرى يوماً على « جرجر »[2] يدرس قمحًا له ، وبينه وبين الحج ثلاثة أيام ؛ إذ أتاه رجلان ، فقالا :

يا أبا عبيد ، تنشط للحج ؟

فقال : لا .

ثم التفت إلىّ وقال :

شيخك على هذا[3] أقدر منها ، يعنى نفسه .

---

(١) هو : يحيى الجلاء .

(٢) نوج .

(٣) أى : على الحج قبل فوات أوانه عن طريق هذا الأمر المسمى بـ « طى الأرض » .

ومنهم :

أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرمانى

كان من أولاد الملوك .

صحب أبا تراب النَخْشَبِّى ، وأبا عُبيد البُسْرى ، وأولئك الطبقة .

وكان أحد الفتيان[1] كبير الشأن[2] ، مات قبل الثلاثمائة .

وقال شاه : علامة التقوى الورع ، وعلامة الورع الوقوف عند الشبهات .

وكان يقول لأصحابه :

اجتنبوا الكذب ، والخيانة ، والغيبة ، ثم اصنعوا ما بدا لكم .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت جدِّى ابن نجيد يقول :

قال شاه الكرمانى : من غَضَّ بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات وعمر باطنه بدوام المراقبة ، وظاهره باتِّباع السنة ، وعوّد نفسه أكل الحلال لم تخطئ له فراسة .

---

(١) من أهل الفتوة والبذل .

(٢) ومن كلامه : (لأهل الفضل فضل ، ما لم يروه ، فإذا رأوه فلا فضل لهم ، ولأهل الولاية ولايه ما لم يروها ، فإذا رأوها فلا ولاية لهم) .

(من صحبك على ما يحب ، وخالفك فيما يكره ، فإنما يصحب هواه)

(التوكل : سكون القلب إلى الله تعالى فى حالتى الموجود والمفقود) .

ومنهم :

يوسف بن الحسين[١]

شيخ الريّ والجبال فى وقته .

وكان نسيج وحده فى إسقاط التصنُّع[٢] .

وكان عالما أديباً ، صحب ذا النون المصرى ، وأبا تراب النخشبى ، ورافق أبا سعيد الخرّاز

مات سنة : أربع وثلاثمائة .

قال يوسف بن الحسين : لأن ألقى الله تعالى بجميع المعاصى أحبُّ إلى من أن ألقاه بذرَّةٍ من التصنع .

وقال يوسف بن الحسين : إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص ، فاعلم أنه لا يجىء[٣] منه شىء .

وكتب إلى الجنيد : لا أذاقك الله طعم نفسك[٤] ! فإنك إن ذقتها لم تذق بعدها خيراً أبداً .

وقال يوسف بن الحسين : رأيت آفات الصوفية فى صحبة الأحداث ، ومعاشرة الأضداد ، ورِفق النسوان[٥] .

---

(١) هو يوسف بن الحسين أبو يعقوب الرازى .

(٢) أى التزين والتحسن للخلق باظهار العبادة والطاعة .

(٣) مما يرجوه من معالى الأمور .

(٤) أى لذة شهواتها الذميمة كلذة الرياسة والمنزلة وتعظيم الخلق .

(٥) أى الانتفاع بالعطايا والهبات وقبول ما يدفعنه من ذلك .

ومنهم :

أبو عبد الله محمد بن على الترمذى[1]

من كبار الشيوخ ، وله تصانيف فى علوم القوم .

صحب أبا تراب النَّخشبى ، وأحمد بن خضرويه ؛ وابن الجلَّاءِ ، وغيرهم سئل محمد بن على : عن صفة الخَلْق ، فقال :

ضعف ظاهر ، ودعوى عريضة .

وقال محمد بن علىٍّ : ما صَّنفت حرفاً عن تدبير ، ولا لينسب إلىَّ شىء منه ولكن كان إذا اشتد علىَّ وقتى أتسلى به .

---

(١) نسبة إلى ترمذ : مدينة على طرف نهر بلخ المسمى بجيحون . قال الحافظ بن النجار فى تاريخه : كان إمامًا من أئمة المسلمين ، له التصانيف الكثيرة فى التصوف وأصول الدين ومعانى الحديث ، وقال الكلاباذى فى « التعرف » هو : من ائمة الصوفية : وقال ابن عطاء الله : كان الشاذلى والمرسى يعظمانه ويقولان : هو أحد الاوتاد الأربعة .

ومن حكمه : إذا سكنت الأرواح بالسر نطقت الجوارح بالبز ، وقال : « الولى أبدًا فى ستر حاله والكون ناطق بولايته ، ومدعى الولاية ناطق بولايته والكون كله يكذبه » وقال مااستصغرت أحداً من المسلمين إلا وجدت نقصا فى معرفتى وإيمانى . وما منع الناس من الوصول إلا لركضهم فى الطريق بغير دليل » .

ومنهم :

أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذى

أقام ببلخ .

وصحب أحمد بن خضرويه ، وغيره . وله تصانيف فى الرياضيات .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن يقول : سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن محمد البلخى يقول : سمعت أبا بكر الورّاق يقول :

من أرضى الجوارح بالشهوات غرس فى قلبه شجر الندامات .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، يقول : سمعت أبا بكر البلخى يقول : سمعت أبا بكر الورّاق يقول :

لو قيل للطمع من أبوك ؟ قال : الشك فى المقدور .

ولو قيل : ما حرفتك ؟

قال : اكتساب الذلّ .

ولو قيل : ما غايتك ؟

قال : الحرمان .

وكان أبو بكر الورّاق يمنع أصحابه عن الأسفار والسياحات ويقول :

مفتاح كل بركة الصبر فى موضع إرادتك[1] إلى أن تصحَّ لك الإرادة ، فإن صَّحت لك الإرادة ، فقد ظهرت عليك أوائل البركة .

---

(١) إرادتك : سلوكك .

ومنهم :

أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز

من أهل بغداد .

صاحب ذا النون المصرى ، والنباجى ، وأبا عبيد البسرىَّ ، والسرى ، وبشراً ، وغيرهم .. مات سنة : سبع وسبعين ومائتين .

قال أبو سعيد الخرّاز : كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا عبد الله الرازى يقول : سمعت أبا العباس الصياد يقول : سمعت أبا سعيد الخرَّاز يقول :

رأيت إبليس فى النوم ، وهو يمرّ عنى ناحية ، فقلت له : تعال ، مالك ؟

فقال : إيش أعمل بكم ، وأنتم طرحتم عن نفوسكم ما أخادع به الناس !!

فقلت : وما هو ؟ قال : الدنيا .

فلما ولى عنى ، التفت إلىّ ، وقال : غير أن لى فيكم لطيفة[1] .

فقلت : وماهى ؟ قال : صحبة الأحداث .

وقال أبو سعيد الخرَّاز :

صحبت الصوفية ما صحبت ، فما وقع بينى وبينهم خلاف .

قالوا : لِمَ ؟ قال : لأنى كنت معهم على نفسى .

---

(١) لطيفة : أى أمر خفى .

ومنهم :

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المغربى

أستاذ إبراهيم بن شيبان[1] ، وتلميذ علىّ بن رزين .

عاش مائة وعشرين سنة ومات سنة : تسع وتسعين ومائتين .

كان عجيب الشأن ، لم يأكل مما وصلت إليه يد بنى آدم سنين كثيرة ، وكان يتناول من أصول الحشيش أشياء تعود أكلها .

وقال أبو عبد الله المغربى :

أفضل الأعمال عمارة الأوقاتِ بالموافقات[2] .

وقال : أعظم الناس ذلًّا فقير داهن غنيا ، أو تواضع له وأعظم الخلق عزًّا غنىّ تذلل للفقراء ، وحفظ حرمتهم[3] .

---

(١) الخواص .

(٢) بين أعمال القلب والجوارح بأن تكون واقعة على أفضل ما يرضى الله ، وفى نسخة بالمراقبات .

(٣) ومن أقواله : « الفقير لا يرجع إلى مستند فى الكون ، غير الالتجاء إلى من إليه فقره ، ليغنيه بالاستغناء به » . و « من ادعى العبودية وله مراد باق فهو كذاب ، إنما تصح العبودية لمن أفنى مراداته فى مرادات سيده » . و« العارف تضىء له أنوار العلم فينظر بها عجائب الغيب »..

ومنهم :

أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق

من أهل طوس[١] . سكن بغداد ، وصحب الحارس المحاسبى ، والسرىَّ السقطى توفى ببغداد سنة تسع ، وقيل : سنة ثمان وتسعين ومائتين .

قال ابن مسروق : من راقب الله تعالى فى خطرات قلبه عصمه الله فى حركات جوارحه .

وقال : تعظيم حرمات المؤمنين من تعظيم حرمات الله تعالى ، وبه يصل العبد إلى محل حقيقة التقوى .

وقال : شجرة المعرفة تسقى بماء الفكرة ، وشجرة الغفلة تسقى بماءِ الجهل ، وشجرة التوبة تسقى بماءِ الندامة ، وشجرة المحبة تسقى بماءِ الاتفاق[٢] والموافقة .

وقال : متى طمعت فى المعرفة[٣] ، ولم تحكم قبلها مدارج الإرادة[٤] فأنت فى جهل ، ومتى طلبت الإرادة قبل تصحيح مقام التوبة ، فأنت فى غفلة عمَّا تطلب .

---

(١) أخذ الحديث عن كثيرين . ومن أقواله : من لم يحترز بعقله من عقله لعقله ، هلك بعقله . وقال : المؤمن يقوى بذكر الله ، والمنافق بالأكل والشرب .

(٢) أى اتفاق مراد العبد ومطلوب الرب تعالى والموافقة للكتاب والسنة .

(٣) المعرفة بالله .

(٤) السلوك .

ومنهم :

أبو الحسن على بن سهل الأصبهانى

من أقران الجنيد .

قصده عمرو بن عثمان المكىّ فى دَيْن ركبه ، فقضاه عنه ، وهو ثلاثون ألف درهم .

لقى أبا تراب النخشبى والطبقة[1] .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله الطبرى يقول : سمعت علىَّ بن سهل يقول :

المبادرة إلى الطاعة من علامة التوفيق .

والتقاعد عن المخالفات من علامات حسن الرعاية .

ومراعاة الأسرار من علامات التيقظ .

وإظهار الدعاوى من رعونات البشرية ، ومن لم تصح مبادئ إرادته لا يسلم فى منتهى عواقبه[2] .

---

(١) أى الذين فى طبقته . ومن كلامه : حرام على من عرف الله أن يسكن لغيره وقال : التصوف : التبرى عمن دونه ، والتخلى عما سواه .

(٢) ومن أقواله : « من فقه قلبه أورثه ذلك الإعراض عن الدنيا وأهلها ، فإن من جهل القلب متابعة سرور لا يدوم » .

ومنهم :

أبو محمد بن محمد بن الحسين الجريرى[١]

من كبار أصحاب الجنيد ، وصحب سهل بن عبد الله ، أُقعد بعد الجنيد فى مكانه وكان عالماً بعلوم هذه الطائفة ، كبير الحال ، مات سنة : إحدى عشرة وثلاثمائة .

سمعت أبا عبد الله الشيرازى ، يقول : سمعت أحمد بن عطاء الروذبارى يقول : مات الجريرى سنة الهبير[٢] ، فجزت به بعد سنة ، فإذا هو مستند جالس وركبته إلى صدره ، وهو مشير إلى الله[٣] بأصبعه .

من استولت عليه النفس صار أسيرًا فى حكم الشهوات ، محصوراً فى سجن الهوى ، وحرّم الله على قلبه الفوائد ، فلا يستلذّ بكلام الحق تعالى ؛ ولا يستحليه وإن كثر تزداده على لسانه ؛ لقوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾[٤] .

وقال الجريرى :

رؤية الأصول[٥] باستعمال الفروع ، وتصحيح الفروع بمعارضة الأصول[٦] ، ولا سبيل إلى مقام مشاهدة الأصول إلا بتعظيم ما عظّم الله من الوسائط والفروع[٧] .

---

(١) نسبة إلى جرير بن عباد من بنى بكر بن وائل .

(٢) أى السنة التى كان فيها هلاك الناس وتقطيعهم .

(٣) إلى انفراده سبحانه بالوحدانية .

(٤) آية ١٤٦ من سورة الاعراف .

(٥) أصول الأحكام الشرعية وهى الكتاب والسنة .

(٦) أى عرض الفروع عليها .

(٧) والمقصود أن اعتقاد العظمة والصحة فى الأصول فرع اعتقاد العظمة والصدق فيمن شرعها ، واعتقاد عظمة الأصول لا يتم إلا بإيقاع الفروع صحيحة على موافقتها ، وإلا فلا فائدة .. ومن كلامه إن الله لا يعبأ بصاحب حكاية وإنما يعبأ بصاحب قلب ورواية ، وقال : من توهم أن أعماله توصله إلى مأموله الأعلى أو الأدنى فقد ضل عن الطريق : لأن المصطفى ﷺ يقول . لن ينجى أحدكم عمله . فما لا ينجى من المخوف كيف يبلغ المأمول ؟ ، ومن صح اعتماده على فصله (مع العمل) فذاك الذى يرجى له الوصول .

ومنهم :

أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمى[١]

من كبار مشايخ الصوفية وعلمائهم[٢] ، كان الخرّاز يعظِّمُ شأنه .

وهو من أقران الجنيد ، وصحب إبراهيم المارستانى ، مات سنة : تسع وثلاثمائة .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا سعيد القرشى يقول : سمعت ابن عطاء يقول : من ألزم نفسه آداب الشريعة نوَّر الله قلبه بنور المعرفة ، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ ، فى أوامره ؛ وأفعاله ، وأخلاقه .

وقال ابن عطاء : أعظم الغفلة غفلة العبد عن ربِّه عز وجلّ ، وغفلته عن أوامره ونواهيه ، وغفلته عن آداب معاملته .

سمعت أبا عبد الله الشيرازى ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبد الرحمن بن أحمد الصوفىَّ يقول : سمعت أحمد بن عطاء يقول :

كل ما سئلتَ عنه فاطلبه فى مفازة[٣] العلم ، فإن لم تجده ، ففى ميدان الحكمة ، فإن لم تجده فزِنه بالتوحيد[٤] ، فإن لم تجده فى هذه المواضع الثلاثة فاضرب به وجه الشيطان .

---

(١) بفتح الهمزة والدال : نسبة إلى بيع الأدم وهو الجلد .

(٢) قال : رأيت فى النوم قائلا يقول : أى شىء أصح فى الصلاة ؟ قلت : صحة القصد . فقال هاتف : بل رؤية المقصود بإسقاط رؤية القصد ، وقال « رؤية الثواب عند ذكر الله غفلة عن الله » .

(٣) أى مجاله لا تساعه وهو الأدلة المأخوذة من الكتاب والسنة .

(٤) أى بما تقرر فى علم التوحيد هل تليق نسبته إلى الله أم لا .

ومنهم :

أبو إسحق إبراهيم بن أحمد الخواص

من أقران الجنيد والنُّورى ، وله فى التوكل والرياضات حظٌّ كبير ، مات بالرى سنة : إحدى وتسعين ومائتين .

كان « مبطونا »[١] ؛ فكان كلما قام توضأ ، وعاد إلى المسجد ، وصلى ركعتين ، فدخل مرَّة الماء فمات . رحمه الله .

سمعت محمد بن الحسين ، يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت الخوّاص يقول : ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العالم من اتَّبع العلم واستعمله ؛ واقتدى بالسنن وإن كان قليل العلم .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أحمد بن على بن جعفر يقول : سمعت الأزدىَّ يقول : سمعت الخوّاص يقول :

دواءِ القلب خمسة أشياء :

قراءة القرآن بالتدبر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ؛ والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين[٢] .

---

(١) أى مريضا بداء البطن وهو الإسهال .

(٢) ومن فوائده : « من لم يصبر لم يظفر » . وكان عامة مناجاته :
برح الخفاء وفى التلقى راحة هل يشتفى خل بغير خليله .

ومنهم :

أبو محمد عبد الله بن محمد الخراز

من أهل الريِّ ، جاور بمكة .

صحب أبا حفص ، وأبا عمران الكبير .

وكان من المتورعين ، مات قبل العشرة والثلاثمائة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي ، يقول : سمعت أبا نصر الطوسى يقول : سمعت الدقى يقول : دخلت على عبد الله الخرَّاز ، ولى أربعة أيام لم آكل ، فقال :

يجوع أحدكم أربعة أيام فيصبح ينادى عليه الجوع .

ثم قال :

إيش يكون لو أن كلَّ نفس منفوسة[1] تلفت فيم تؤمِّله عند الله ترى يكون ذلك كثيراً .

وقال أبو محمد عبد الله الخرَّاز :

الجوع طعام الزاهدين ، والذكر طعام العارفين[2] .

---

(١) منفوسة . مولودة .

(٢) قال العروسي : وإنما كان طعامهم الذكر لأنهم تحققوا بالله ورفضوا ما سواه فكانت حياتهم بالذكر ، وتنعماتهم بالفكر ، وأنسهم بالقرب .. فجناتهم بالمشاهدات ، ونارهم بالغفلات .. فرضى الله عنهم وأرضاهم عنا .

ومنهم :

أبو الحسن بنان بن محمد الحمال

واسطى الأصل .

أقام بمصر ، ومات بها سنة : ست عشرة وثلاثمائة .

كبير الشأن ، صاحب الكرامات .

سئل بُنان عن أجلِّ أحوال الصوفية ، فقال :

الثقة بالمضمون[١] ؛ والقيام بالأوامر ، ومراعاة السر[٢] ، والتخلى من الكوفيين .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت الحسن بن أحمد الرازى ، يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول :

ألقى بنان الحمال بين يدى السبع[٣] ، فجعل السبع يشمه ولا يضره .

فلما أخرج ، قيل : ما الذى كان فى قلبك حيث شمَّك السبع ؟

قال : كنت أفكر فى اختلاف العلماء فى سؤر[٤] السبع .

---

(١) وهو الرزق

(٢) السر القلب .

(٣) بأمر ابن طولون حين اشتد فى الأمر بالمعروف ، أو حين اتهم بما يستحق العقوبة .

(٤) رطوبة فمه هل هى طاهرة أو ليست بطاهرة .

ومنهم :

أبو حمزة البغدادى البزاز

مات قبل الجنيد ، وكان من أقرانه . صحب السرىَّ ، والحسن المسوحى وكان عالماً بالقراءات ، فقيهًا .

وكان من أولاد عيسى بن أبان ، وكان أحمد بن حنبل يقول له فى المسائل ما تقول فيها يا صوفى ؟

قيل : كان يتكلم فى مجلسه يوم جمعة فتغير عليه الحال ، فسقط عن كرسيه : ومات فى الجمعة التالية .

وقيل : مات سنة تسع وثمانين ومائتين .

قال أبو حمزة :

من علم طريق الحق تعالى سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول ﷺ فى أحواله ، وأفعاله وأقواله .

وقال أبو حمزة :

من رُزق ثلاثة أشياء ، فقد نجا من الآفات :

بطن خال مع قلب قانع ، وفقر دائم معه زهد حاضر ، وصبر كامل معه ذكر دائم .

ومنهم :

أبو بكر محمد بن موسى الواسطى

خراسانى الأصل من « فرغانة » صحب الجنيد والنورى .

عالم كبير الشأن ، أقام بمرو ، ومات بها بعد العشرين والثلاثمائة .

قال الواسطى : الخوف والرجاء زمامان يمنعان العبد من سوء الأدب .

وقال : مطالعة الأعواض[١] على الطاعات من نسيان الفضل .

وقال الواسطى : إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجيف ، يريد به صحبة الأحداث .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر محمد بن عبد العزيز المروزى ، يقول : سمعت الواسطى يقول :

جعلوا سوء أدبهم إخلاصاً ، وشره نفوسهم انبساطا ؛ ودناءة الهمم جلادة ، فعموا عن الطريق ، وسلكوا فيه المضيق ، فلا حياة تنمو فى شواهدهم[٢] ، ولا عبادة تزكو فى محاضرتهم ، إن نطقوا فبالغصب وإن خاطبوا فبالكبر ، توثب أنفسهم ينبئ عن خبث ضمائرهم ، وشرههم فى المأكول يظهر ما فى سويداء أسرارهم . قاتلهم الله أنّى يؤفكون .

سمعت الأستاذ أبا على الدقّاق ، رحمه الله ، يقول :

سمع بعض المراوزة إنساناً صيدلانياً ، يقول :

اجتاز الواسطىُّ يوم جمعة بباب حانوتى ، قاصداً إلى الجامع ، فانقطع شسع[٣] نعله ، فقلت :

أيها الشيخ ، أتأذن لى أن أصلح نعلك ؟

فقال : أصلح .

---

(١) الأعواض : جمع عوض . وهو ما يكون فى مقابلة الشىء والمراد به هنا : الأجر المرتب على الطاعة : والمطالبة : التشوف والمطالبة :

(٢) شواهدهم : مشاهدتهم .

(٣) أحد سيوره .

فأصلحت شسعه ، فقال : أتدرى لم انقطع شسع نعلى ؟

فقلت : حتى تقول .

قال : لأنى ما اغتسلت للجمعة !!

فقلت له : يا سيدى ، هاهنا حمَّام تدخله ؟ فقال : نعم . فأدخلته الحمَّام فاغتسل[1] .

---

(١) ومن فوائده : الخوف والرجاء زمامان يمنعان من سوء الأدب : وقال : الخروج من ميدان الغفلة . إلى فضاء المشاهدة على غلبة الخوف وشدة الحب . إذا تجلى الحق على السرائر ذهب الخوف والرجاء ، أفقر الفقراء من ستر الحق حقيقة حقه عنه : الكلمة التى بها كملت المحاسن : الاستقامة .

ومنهم :

أبو الحسن بن الصائغ

واسمه : على بن محمد بن سهل الدَّينورى .

أقام بمصر ، ومات بها ، وكان من كبار المشايخ .

قال أبو عثمان المغربى :

ما رأيت من المشايخ أنور من أبى يعقوب النهر جورى ، ولا أكثر هيبة من أبى الحسن بن الصائغ .

مات سنة : ثلاثين وثلاثمائة .

سئل ابن الصائغ عن الاستدلال بالشاهد على الغائب ، فقال :

كيف يستدل بصفات من له مثل ونظير على من لا مثل له ولا نظير ؟!

وسئل عن صفة المريد ، فقال :

ما قال الله عز وجل : « وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم[١] » الآية .

وقال : الأحوال كالبروق ، فإذا ثبتت فهو حديث النفس وملازمة الطبع[٢] .

---

(١) الآية هى ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ : التوبة آية : ١١٨ .

(٢) وفى بعض النسخ ، وملاءمة الطبع أى موافقته :

ومنهم :

أبو إسحق إبراهيم بن داود الرقى

من كبار مشايخ الشّام .

من أقران الجنيد ، وابن الجلَّاء .

وقد عمر ، وعاش إلى سنة : ست وعشرين وثلاثمائة .

وقال إبراهيم الرقى :

المعرفة : إثبات الحق على ما هو ، خارجاً عن كل ما هو موهوم .

وقال : القدرة ظاهرة ، والأعين مفتوحة ، ولكن أنوار البصائر قد ضعفت .

وقال : أضعف الخلق : من ضعف عن ردّ شهواته ، وأقوى الخلق : من قوى على ردِّها .

وقال : علامة محبة الله : إيثار طاعته ، ومتابعة نبيه ﷺ[1] .

---

(١) ومن كلامه : نفسك سائرة بك ، وقلبك طائر بك ، فكن مع أسرعهما وقال : « قيمة كل إنسان بقدر همته ، فإن كانت همته الدنيا فلا قيمة له ، وإن كانت همته رضا الله فلا يمكن إدراك غاية قيمته ولا الوقوف عليها : وقال : « السياحة بالنفس لأرباب الظواهر علماً وشرعًا وخلقًا ، والسياحة بالقلب لأرباب البواطن حالاً ووجداً وكشفًا » .

ومنهم :

ممشاد الدينورى

من كبار مشايخهم[١] . مات سنة : تسع وتسعين ومائتين .

قال ممشاد :

أدب المريد فى التزام حُرمات المشايخ ، وخدمة الإخوان ، والخروج عن الأسباب ، وحفظ آداب الشرع على نفسه .

وقال ممشاد :

ما دخلت قط على أحد من شيوخى ، إلا وأنا خال من جميع مالى أنتظر بركات مايرد علىّ من رؤيته وكلامه ، فإن من دخل على شيخ بحظه[٢] انقطع عن بركات رؤيته ومجالسته ، وكلامه .

---

(١) صحب ابن الجلاء ، وكان عابدًا زاهدًا ، ومن اقواله : إنما ورث الحكماء الحكمة بالصمت والتفكير .
وقال : ما أقبح الغفلة عن طاعة من لا يغفل عن برك ، وعن ذكر من لا يغفل عن ذكرك . وقال : لو جمعت حكم الأولين والآخرين ، وأدعيت أحوال الأولياء والصادقين ، لم تصل إلى درجة العارفين ، حتى يسكن سرك إلى الله تعالى ، وتثق به فيما ضمن لك :

(٢) أى بنية الامتحان ومعرفة ما عنده .

ومنهم :

خير النساج

صحب أبا حمزة البغدادىَّ ، ولقى السرى ، وكان من أقران أبى الحسن النورى إلا أنه عمَّر عمرا طويلًا ، وعاش ، كما قيل ، مائة وعشرين سنة[١] .

وتاب فى مجلسه : الشبلى ، والخوَّاص . وكان أستاذ الجماعة .

وقيل : كان اسمه محمد بن إسماعيل ، من « سامرة » ، وإنما سُمى « خير النساج » ، لأنه خرج إلى الحج ، فأخذه رجل على باب الكوفة وقال :

أنت عبدى ، واسمك خير .

- وكان أسود - فلم يخالفه . واستعمله الرجل فى نسج الخز ، فكان يقول له : يا خير فيقول : لبيك .

ثم قال له الرجل بعد سنين :

غلطت ، لا أنت عبدى . ولا اسمك خير .

فمضى وتركه ، وقال :

لا أغيِّر اسما سمانى به رجل مسلم .

وقال : الخوف سوط الله يقوِّم به أنفساً قد تعودت سوء الأدب .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا الحسن القزوينى يقول : سمعت أبا الحسين المالكى ، يقول :

سألت من حضرَ موت خير النساج عن أمره ؟ فقال :

لما حضرت صلاةُ المغرب غشى عليه ، ثم فتح عينيه ، وأومأ[٢] فى ناحية البيت وقال : قف ، عافاك الله ، فإنما أنت عبد مأمور وأنا عبدٌ مأمور .

وما أُمرت به لا يفوتك وما أمرت به يفوتنى .

---

(١) أصله من أهل سامرة ، ثم سكن بغداد ، ومن فوائده : الصبر من أخلاق الرجال ، والرضا من أخلاق الكرام .
(٢) أى أشار إلى ملك الموت .

ودعا بماء فتوضأ للصلاة ، ثم تمدّد . وغمض عينيه ، وتشهّد ، ومات فرؤى فى المنام فقيل له :

ما فعل الله بك ؟

فقال لسائله : لا تسألنى عن هذا ، ولكن استرحت من دنياكم الوضرة[1] !!

---

(١) وفى نسخة القذرة والمعنى واحد . ومن أقواله : « الصبر من أخلاق الرجال ، والرضا من أخلاق الكرام » « العمل الذى يصل به العبد إلى الدرجات العلا ، رؤية التقصير والعجز والضعف » .

ومنهم :

أبو حمزة الخراسانى

بنيسابور ، أصله من محَّلة « ملقاباذ » . من أقران الجنيد ، والخرَّاز وأبى تراب النخشبى . وكان ورعا ، ديِّنا .

قال أبو حمزة :

من استشعر ذكر الموت حبب الله إليه كل باق ، وبغَّض إليه كل فان .

وقال : العارف بالله يدافع عيشه يوماً بيوم ، ويأخذ عيشه يوماً ليوم .

وقال له رجل : أوصنى .

فقال : هيئ زادك للسفر الذى بين يديك .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا الطيب العكى يقول : سمعت أبا الحسن المصرى يقول : سمعت أبا حمزة الخراسانى ، يقول :

كنت قد بقيت محرماً فى عباء[1] ، أسافر كل سنة ألف فرسخ تطلع للشمس على وتغرب ، كلما حللت أحرمت .

توفى سنة : تسعين ومائتين .

---

(١) أى كساء ، ويقال فيه : عباية وعباة .

ومنهم :

أبو بكر بن جحدر الشبلى

بغدادىُّ المولد والمنشأ . وأصله من « أسرُ وشْنة » .

صحب الجنيد ومن فى عصره ، وكان شيخ وقته : حالاً ، وظرفاً ، وعلماً[1] .

مالكى المذهب . عاش سبعاً وثمانين سنة ، ومات سنة : أربع وثلاثين وثلاثمائة . وقبره ببغداد .

ولما تاب الشبلى فى مجلس « خير النسَّاج » أتى « دماوند » ، وقال :

كنت والى بلدكم ، فاجعلونى فى حل[2] .

وكانت مجاهداته فى بدايته فوق الحدّ .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ؛ رحمه الله ، يقول :

بلغنى أنه اكتحل بكذا . وكذا .. من الملح ؛ ليعتاد السهر ، ولا يأخذه النوم ولو لم يكن من تعظيمه للشرع إلا ما حكاه « بكران الدينورى » فى آخر عمره لكان كثيراً .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : كان الشبلى ، رحمه الله ، يقول فى آخر أيامه :

---

(١) سمع بائعًا يقول : الخيار عشرة بدرهم ، فصاح وقال : فكيف الشرار .

ومن حكمه : ليس من احتجب بالخلق عن الحق كمن احتجب بالحق عن الخلق ، وقال : إن أردت أن تنظر إلى الدنيا فانظر إلى نفسك ، فخذ كفا من تراب ، فإنك منه خلقت وفيه تعود .

وسأله رجل : أى الصبر أشد ؟ قال : الصبر فى الله . قال : لا . قال : الصبر مع الله ، قال : لا . قال : الصبر لله ، قال : لا ، قال : فأى شىء قال : الصبر عن الله . فصرخ الشبلى وأنشد :

الصبر يجمل فى المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يجمل

وقال : ليس من استأنس بالذكر كمن استأنس بالمذكور ، وأنشد فى الذكر :

ذكرتك لا أنى نسيتك لمحة ... وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى
وكدت بلا وجد أموت من الهوى ... وهام على القلب بالخفقان
فلما أرانى الوجد أنك حاضرى ... شهدتك موجودًا بكل مكان
فخاطبت موجودًا بغير تكلم ... ولاحظت معلومًا بغير عيان

وقال : ليس من جذبته أنوار مقدسة إلى أنسه كمن جذبته أنوار رحمته إلى مغفرته .

(٢) لأنه بالتوبة تنقل من حقوق الخالق وبقى عليه حقوق المخلوقين ، فالخروج من حقوق الآدميين معتبر فى تحقق التوبة .. وبذلك كانت توبته خالصة كاملة ..

وكم من موضع[١] لو مت فيه لكنت به نكالا فى العشيرة

وكان الشبلى إذا دخل شهر رمضان جد فوق جدّ من عاصره ، ويقول : هذا شهر عظمه ربى ، فأنا أوَّل من يعظِّمه .

سمعت الأستاذ أبا علىٍّ يحكى ذلك عنه .

(١) أراد بالموضع المقامات المذمومة التى نقله الله منها .

ومنهم :

أبو محمد عبد الله بن محمد المرتعش

نيسابورى ، من محَّلة « الحيرة » . وقيل : من « ملقاباذ » .

صحب أبا حفص ، وأبا عثمان ، ولقى الجنيد ، وكان كبير الشأن[١] .

وكان يقيم فى مسجد « الشونِّزيّه[٢] » . مات ببغداد سنة : ثمان وعشرين وثلاثمائة .

قال المرتعش :

الإرادة : حبس النفس عن مراداتها ، والإقبال على أوامر الله تعالى ، والرضا بموارد القضاء عليه .

وقيل له : إن فلاناً يمشى على الماء .

فقال : عندى أنَّ من مكَّنه الله تعالى من مخالفة هواه فهو أعظم من المشى فى الهواء .

---

(١) وقال المناوى : عجائب الدنيا فى التصوف ثلاثة : الشبلى فى الإشارات ، والمرتعش فى النكت ، وجعفر الخلدى فى الحكايات .

ومن حكم المرتعش ، قوله : من كمل إسلامه أحبه الحق ، ومن كمل إيمانه استغنى عن الحق . وقوله :

أصول التوحيد : معرفة الله بالربوبية . والإقرار له بالوحدانية ، ونفى الأضداد عنه بالكلية . وقال ، سكون القلب لغير الله عقوبة عجلت فى الدنيا .

(٢) نسبة إلى الشونين مقبرة ببغداد .

ومنهم :

أبو على أحمد بن محمد الروذبارى

بغداديٌّ ، أقام بمصر . ومات بها سنة : اثنتين وعشرين وثلاثمائة .

صحب الجنيد ، والنورى ، وابن الجلاء ، والطبقة .

أظرف المشايخ وأعلمهم بالطريقة[1] .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله يقول : سمعت أبا القاسم الدمشقى يقول : سئل أبو على الروذبارى عمن يسمع الملاهى ويقول :

هى لى حلال ، لأنى وصلت إلى درجة لا تؤثر فى اختلاف الأحوال .

فقال : نعم ، قد وصل ، ولكن إلى سقر !

وسئل عن التصوف ، فقال : هذا مذهب كله جدٌّ ، فلا تخلطوه بشىء من الهزل .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول : من علامة الاغترار أن تسىء فيحسن الله إليك ، فتترك الإنابة والتوبة ، توهماً أنك تسامَح فى الهفوات ، وترى أن ذلك من بسط الحق لك .

وقال : كان أستاذى فى التصُّوف : الجنيد . وفى الفقه : أبو العباس بن شريح[2] ، وفى الأدب : ثعلب ، وفى الحديث : إبراهيم الحربى .

---

(١) ومن أقواله ، المريد ، من لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله له ، والمراد : لا يريد من الكونين شيئًا غيره ، وقال : المشاهدة للقلوب ، والمكاشفة للإسرار ، والمعاينة للبصائر ، والمرئيات للإبصار » .

(٢) فى نسخة ، ابن سريج ،

ومنهم :

أبو محمد عبد الله بن منازل

شيخ الملامتية[١] ، وأوحد وقته ، صحب حمدون القصّار .

وكان عالماً ، وكتب الحديث الكثير .

مات بنيسابور سنة : تسع وعشرين ، أو ثلاثين وثلاثمائة .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبد الله المعلم يقول : سمعت عبد الله بن منازل يقول : ولم يبْلَ أحد بتضييع السنن إلا أوشك أن يبتلى بالبدع .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، يقول : سمعت أبا أحمد بن عيسى يقول : سمعت عبد الله بن منازل يقول :

أفضل أوقاتك : وقت تسلم فيه من هواجس نفسك ، ووقت تسلم[٢] فيه من سوء ظنِّك .

لم يضيّع أحد فريضة من الفرائض إلا إبتلاه الله تعالى بتضيع السنن .

---

(١) هم طائفة خاصة من الصوفية يعتمدون على الإخلاص والتهرب من الرياء والمبالغة في ذلك .. وقد فصل السهروردى الحديث عنهم فى عوارفه .

(٢) وفى نسخة أخرى : « يسلم الناس » .

ومنهم :

أبو على محمد بن عبد الوهاب الثقفى

إمام الوقت[١] صحب أبا حفص ، وحمدون القصَّار .

وبه ظهر التصوف بنيسابور : مات سنة : ثمان وعشرين وثلاثمائة .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول :

سمعت أبا على الثقفى يقول : لو أن رجلا جمع العلوم كلها ، وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة : من شيخ ، أو إمام ، أو مؤدِّب ناصح . ومن لم يأخذ أدبه من أستاذ يريَه عيوب أعماله ، ورعونات نفسه ، لا يجوز الاقتداء به فى تصحيح المعاملات .

وقال أبو على رحمه الله :

يأتى على هذه الأمة زمان لا تطيب المعيشة فيه لمؤمن إلا بعد استناده إلى منافق .

وقال : أف من أشغال الدنيا إذا أقبلت ، وأف من حسراتها إذا أدبرت ، والعاقل من لا يركن إلى شىء إذا أقبل كان شغلاً ، وإذا أدبر كان حسرة .

---

(١) ومن أقواله : كمال العبودية العجز والتقصير عن معرفة علل الأشياء بالكلية وقال : لا يقبل من الأعمال إلا ما كان صوابًا ومن صوابها إلا ما كان خالصًا ، ومن خالصها إلا ما كان موافقاً للسنة ، وقال : ليس شىء أولى بأن تمسكه من نفسك ولا شىء أولى بأنه تغلبه من هواك .

ومنهم :

أبو الخير الأقطع[١]

مغربيُّ الأصل ، سكن « تينَات » .

وله كرامات ، وفراسة حادَّة .

كان كبير الشأن ، مات سنة : نيف وأربعين وثلاثمائة .

قال أبو الخير :

مابَلغ أحد إلى حالة شريفة إلَّا بملازمة الموافقة[٢] ، ومعانقة الأدب ، وأداء الفرائض ، وصحبة الصالحين .

---

(١) قال المناوى فى طبقاته : هو : « النيناتى » نسبة إلى « تننات » قرية ببلاد المشرق ، على أميال من المصيصة ، وهى مدينة على ساحل البحر . واسمه « عباد بن عبدالله » .

وأصله من المغرب . وقدم المشرق فصحب ابن الجلاء وغيره ، ومات بمصر ، بقرب قبر ذى النون المصرى ومن كلامه : لا يجوز التصدر للمشيخة إلا لمن فرغ من تهذيب نفسه . ومن بقى عليه بقية ، فهو مريد ، والمريد لا يكون له مريد . وقال : « من أحب اطلاع الناس على عمله ، فهو مراء . أو على حاله ، فهو كذاب » . وقال القلوب ظروف : فقلب مملوء إيمانًا ، فعلا منه الشفقة على جميع المسلمين ، والاهتمام بما يهمهم ، ومعاونتهم بما يعود صلاحه إليهم ، وقلب مملوء نفاقًا ، فعلامته : الحقد ، والغل ، والغش ، والحسد » . وقال : لن يصفو قلبك إلا بتصحيح النية لله تعالى ، ولن يصفو بدنك إلا بخدمة أولياء الله تعالى » .

(٢) أى موافقة الكتات والسنة فى العلم والعمل .

ومنهم :

أبو بكر محمد بن على الكتانى[1]

بغدادى الأصل .

صحب الجنيد ، والخراز ، والنورى .

وجاور بمكة إلى أن مات سنة : اثنتين وعشرين وثلاثمائة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : نظر الكتّانى إلى شيخ أبيض الرأس واللحية يسأل الناس ، فقال :

هذا رجل أضاع حق الله فى صِغره ، فضيعّه الله فى كبره .

وقال الكتّانى : الشهوة زمام الشيطان ، فمن أخذ بزمامه كان عبده .

---

(١) وهو : محمد بن على بن جعفر ، وكنيته أبو بكر كان أحد الأئمة . حكى محمد المرتعش أنه كان يقول : « الكتانى سراج الحرم » .

ومن قوله : إذا سألت الله تعالى التوفيق فابدأ العمل ، وكن فى الدنيا ببدنك وفى الآخرة بقلبك ، وقال : الغافلون يعيشون فى حلم الله ، والذاكرون يعيشون فى رحمة الله ، والعارفون يعيشون فى لطف الله ، والصادقون يعيشون فى قرب الله .

وسئل عن الصوفى ، فقال : من عزفت نفسه عن الدنيا تطرفًا ، وعلت همته عن الآخرة ، وسخت نفسه بالكل وطلباً وشوقًا إلى من له الكل .

وقيل له : من العارف ؟ . فقال : من يوافق معروفه فى أوامره ، ولا يخالفه فى شىء من أحواله ، ويتحبب إليه بمحبة أوليائه ، ولا يفتر عن ذكره طرفة عين . وسئل عن المتقى ، فقال : من اتقى ما لهج به العوام من متابعة الشهوات ، وركوب المخالفات ، ولزم باب الموافقة ، وأنس براحة اليقين وأتته الفوائد من الله عز وجل فى كل حال فلم يغفل عنها .

ومنهم :

أبو يعقوب إسحق بن محمد النهر جورى[١]

صحب أبا عمرو المكىَّ ، وأبا يعقوب السوسى ، والجنيد ، وغيرهم .

مات بمكة[٢] مجاوراً بها ، سنة ثلاثمائة .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا الحسين أحمد بن على يقول : سمعت النهر جورى ، يقول :

الدنيا بحر ، والآخرة ساحل ، والمركب التقوى ، والناس سفْر .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا بكر الرازىَّ يقول : سمت النهر جورى يقول رأيت رجلاً فى الطواف بفرد عين ، يقول أعوذ بك منك .

فقلت : ماهذا الدعاء ؟

فقال : نظرت يوماً إلى شخص فاستحسنته ، وإذا لطمة وقعت على بصرى ، فألست عينى ، فسمعت هاتفاً يقول :

لطمة بنظرة . ولو زدت لزدناك .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أحمد بن علىٍّ يقول : سمعت النهرجورى يقول : أفضل الأحوال ماقارن العلم[٣] .

---

(١) النهر جورى ، نسبة إلى نهر جور - بضم الجيم وسكون الواو - بين الإهراز وميسان .

(٢) قال له قائل ، وهو يجود بأنفاسه الأخيرة : قل لا إله إلا الله . فتبسم ، وقال : إياى تعنى ؟!. وعزة من لا يذوق الموت ، ما بينى وبينه إلا حجاب العزة . ثم مات فوراً .
سئل عن التصوف ، فقال : « تلك أمة قد خلت » .
وقال فى الفناء والبقاء : « هو فناء رؤية قيام العبد لله ، وبقاء رؤية قيام الله فى الأحكام » .
وقال : الصدق موافقة الحق فى السر والعلانية وحقيقة الصدق : القول بالحق فى مواطن التهلكة » .
وقال : « من كان شبعه بالمال لم يزل جائعًا . ومن كان غناه بالمال لم يزل مفتقرًا ومن طمع فى الخلق لم يزل محرومًا . ومن استعان على أمر بغير الله لم يزل مخذولا .

(٣) أى ما وافق العلم الشرعى ، وشهد له العلم بالصحة والكمال ، إذ غير ذلك من تلبيس الشيطان .

ومنهم :

أبو الحسن على بن محمد المزين

من أهل بغداد ، من أصحاب سهل بن عبد الله ، والجنيد ، والطبقة .

مات بمكة مجاوراً سنة : ثمان وعشرين وثلاثمائة .

وكان ورعاً كبيراً[١] .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت المزيِّن يقول :

الذنب بعد الذنب عقوبة الذنب الأوَّل ، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة الأولى .

وسئل المزين عن التوحيد ، فقال :

أن تعلم أن أوصافه تعالى بائنة لأوصاف خلقه ، بَاينَهم بصفاته قدْماً كما باينوه بصفاتهم حدثا .

وقال : من لم يستغن بالله أحوجه الله إلى الخلق ، ومن استغنى بالله أحوج الله الخلق إليه[٢] .

---

(١) سئل عن المعرفة ، فقال : « أن تعرف الله بكمال الربوبية ، وتعرف نفسك بالعبودية ، وتعلم أن الله أول كل شىء ، وبه يقوم كل شىء ، واليه مصير كل شىء ، وعليه رزق كل شىء .

وسئل عن التوحيد ، فقال : « أن توحد الله بالمعرفة ، وتوحده بالعبادة ، وتوحده بالرجوع إليه فى كل مالك وعليك ، وتعلم أن ما خطر بقلبك أو أمكنك الإشارة إليه فالله تعالى بخلاف ذلك ، وتعلم أن أوصافه مباينة لأوصاف خلقه » .

(٢) وفى نسخة : أحوج الله إليه الخلق .

ومنهم :

أبو على بن الكاتب

واسمه الحسن بن أحمد . صحب أبا على الروذبارى ، وأبا بكر المصرى ، وغيرهما .

كان كبيراً فى حاله[1] .

مات سنة : نيف وأربعين وثلاثمائة .

قال ابن الكاتب :

إذا سكن الخوف فى القلب لم ينطق اللسان إلا بما يعنيه .

وقال ابن الكاتب :

المعتزلة نزَّهوا[2] الله تعالى من حيث العقل فأخطئوا ، والصوفية نزَّهوه من حيث العلم فأصابوا .

---

(١) ومن مأثوراته : « إذا انقطع العبد إلى الله بكليته ، فأول ما يفيده الله الاستغناء به عن سواه » .

وقوله : « إذا سمع الرجل الحكمة ، فلم يقبلها ، فهو مذنب ، وإذا سمعها ولم يعمل بها فهو منافق » .

وقال : « إن الله تعالى يرزق العبد حلاوة ذكره به فإن فرح بها وشكره آنسه بقربه وإن قصر فى الشكر أجرى الذكر على لسانه ، وسلبه حلاوته » .

وقيل له : إلى أى الجنبتين أنت أميل ؟ إلى الفقر أو إلى الغنى ؟ فقال : إلى أعلاهما رتبة ، واسناهما قدرًا ، ثم أنشد يقول :

ولست بنظار إلى جانب الغنى ... إذا كانت العليا فى جانب الفقر
وإنى لصبار على ما ينوبنى ... وحسبك أن الله أثنى على الصبر

(٢) عن أن يخلق الشر والكفر وسائر المعاصى .

ومنهم :

مظفر القرمسينى

من أشياخ الجبل[١] . صحب عبد الله الخرَّاز ، وغيره .

قال مظفر القرمسينى[٢] :

الصوم على ثلاثة أوجه :

صوم الروح بقصر الأمل ، وصوم العقل بخلاف الهوى ، وصوم النفس بالإمساك عن الطعام والمحارِم .

وقال مظفر : أخَسُّ الأرفاق[٣] : أرفاق النسوان ، على أىِّ وجه كان .

وقال : الجوع إذا ساعدته القَناعة فهو مزرعة الفِكرة ، وينبوع الحكمة ، وحياة الفطنة ، ومصباحُ القلب .

وقال : أفضل أعمال العبيد : حفظُ أوقاتها الحاضرة ، وهو أن لا يقصّروا فى أمر ، ولا يتجاوزوا عن حدٍّ .

وقال : من لم يأخذ الأدب عن حكيم لم يتأدَّب به مريد .

---

(١) الجبل : جبل سفح قاسون .

(٢) القرمسينى : نسبة إلى قرمسين ، مدينة بجبال العراق .

سئل عن التصوف ، فقال : الأخلاق المرضية .

وقال : « من أفقره الله إليه أغناه به ، ليعرفه بالفقر عبوديته . وبالغنى ربوبيته .

وقال : « من قتله الحب أحياه القرب » وقال : « يحاسب الله المؤمنين - يوم القيامة - بالمنة والفضل ، ويحاسب الكفار بالحجة والعدل .

وسئل : ما خير ما أعطى العبد ؟ . فقال : فراغ القلب عما لا يعنيه ، لينفرغ إلى ما يعنيه » .

(٣) العطايا والهبات .

ومنهم :

أبو بكر عبد الله بن طاهر الأبهرى

ومن أقران الشبلىّ . من مشايخ الجبل .

عالم وَرع[١] ، صحب يوسف بن الحسين ، وغيره .

مات بقرب من الثلاثين والثلاثمائة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت منصور بن عبد الله ، يقول : سمعت أبا بكر بن طاهر يقول :

« من حُكم الفقير أن لا يكون له رغبة ، فإن كان ولابد ، فلا تجاوز رغبتَه كفايتُه » يعنى المحتاج إليه .

وبهذا الإسناد قال :

إذا أحببت أخاً فى الله ، فاقلل مخالطته فى الدنيا .

---

(١) سئل عن الحقيقة فقال « الحقيقة كلها علم ، وسئل عن العلم ، فقال : العلم كله حقيقة ، ومن حكمه قوله : « فى المحن ثلاثة أشياء : تطهير ، وتكفير ، وتذكير ، فالتطهير من الكبائر ، والتكفير من الصغائر ، والتذكير لأهل الصفاء » .

وقيل له : « ما بال الإنسان يحتمل من معلمه ما لا يحتمل من أبويه ؟ . فقال : لأن أبويه سبب حياته الفانية ، ومعلمه سبب حياته الباقية ، وتصديق ذلك : قول النبى ، ﷺ : « اغد عالماً ، أو متعلماً ، أو مستمعًا ، أو محبا ، ولا تكن الخامسة فتهلك » .

ومنهم :

أبو الحسين بن بنان

ينتمى إلى أبى سعيد الخرَّاز . من كبار مشايخ مصر[1] .

قال ابن بُنان :

كل صوفىّ كان همُّ الرزق قائماً فى قلبه فلزومُ العمل أقرب إليه .

وعلامة سكون القلب إلى الله : أن يكون بما فى يد الله أوثقُ منه بما فى يده .

وقال : اجتنبوا دناءة الأخلاق كما تجتنبون الحرام[2] .

---

(١) ومن كلامه : « لا يعظم أقدار الأولياء إلا من كان عظيم القدر عند الله تعالى » .

وقال : « من علامة سكون القلب إلى الله تعالى إنشراحه إذا زالت عنه الدنيا . وكان يقول : « الناس يعطشون فى البرارى ، وأنا عطشان على شط النيل !!» .

(٢) وفى نسخه : المحارم .

ومنهم :

أبو إسحق إبراهيم بن شيبان القرمسينى

شيخ وقته[1] . صحب أبا عبد الله المغربىَّ ، والخوَّاص ، وغيرهما .

سمعت محمد بن الحسين ، يقول : سمعت أبا يزيد المروزى الفقيه يقول : سمعت إبراهيم بن شيبان يقول : من أراد أن يتعطَّل أو يتبطل فليلزم الرُّخص .

وبهذا الإسناد قال :

علم الفناء[2] والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية ، وصحة العبودية وما كان غير هذا ، فهو المغاليط والزندقة .

وقال إبراهيم : السِّفلة[3] من يعى الله عزَّ وجلَّ .

---

(١) قال المناوى : كان شيخ الجبل فى زمانه ، شديدا على المدعين ، متمسكا بالكتاب والسنة ، ملازمًا طريق الأئمة توفى سنة ثلاثين وثلاثمائة .

(٢) الفناء عن غير الله والبقاء مع الله .

(٣) أراذل الناس .

ومن كلامه : قال لى أبى : يابنى تعلم العلم ، لآداب الظاهر ، واستعمل الورع لآداب الباطن ، وإياك أن يشغلك على الله شاغل ، فقل من أعرض عنه فأقبل عليه .

وسئل عن وصف العارف ، فقال : كنت على جبل الطور مع شيخنا أبى عبد الله المغربى ، فبينما نحن قعود بمكان فيه عشب ، والشيخ يتكلم فى العلوم والمعارف رأيت شابا يتنفس ، فاحترق ما بين يديه من العشب الأخضر ، فقال الشيخ : هذا هو العارف .

وقال : إذا دخل الخوف قلبًا أحرق مواضع الشهوات منه .

ومنهم :

أبو بكر الحسين بن على بن يزدانيار

من أرمينية[1] . له طريقة يختص بها فى التصوف .

وكان عالما ورعا ، وكان ينكر على بعض العارفين[2] فى إطلاقات وألفاظ لهم[3] .

قال ابن يزدانيار :

إيَّاك أن تطمع فى الأنس بالله وأنت تحب الأنس بالناس .

وإيَّاك أن تطمع فى حبِّ الله وأنت تحب الفضول .

وإيَّاك أن تطمع فى المنزلة عند الله وأنت تحب المنزلة عند الناس .

---

(١) وفى نسخة أرمية : بالضم ، وسكون الراء ، وأمينية بفتح الهمزة : بلدة من بلاد الروم .

(٢) وفى نسخة العراقيين وربما كانت أصح .

(٣) أفشوا بها ، فى نظره ، أسرار الطريق ، وهو يقول فى ذلك : « ترانى تكلمت بما تكلمت به ، إنكارا على التصوف والصوفية ؟! . والله ، ما تكلمت إلا غيره عليهم ، حيث أفشوا أسرار الحق ، وأبدوها إلى غير أهلها ، فحملنى ذلك على الغيرة عليهم ، والكلام فيهم ، وإلا : فهم السادة ، وبمحبتهم أتقرب إلى الله تعالى .

وسئل عن الفرق بين العارف والمريد ، فقال : « المريد طالب والعارف مطلوب والمطلوب مقتول ، والطالب مرغوب ، وفى رواية « والمطلوب مقبول » والطالب مرغوب .

وسئل عن العبد إذا خرج إلى الله سبحانه ، على أى أصل يخرج ؟ فقال . على أن لا يعود إلى ما منه خرج ، ولا يراعى غير من إليه خرج ويحفظ سره عن ملاحظة ما تبرأ منه . فقيل له : هذا حكم من خرج عن عدم ، فما علامة وجدانه ؟ قال : وجود الحلاوة فى المستأنف عوضاً عن المرارة فى السالف .

ومنهم :

أبو سعيد بن الأعرابى

واسمه : أحمد بن محمد بن زياد البصرىّ[١] .

جاور الحرم ، ومات به سنة : إحدى وأربعين وثلاثمائة .

صحب الجنيد ، وعمرو بن عثمان المكىّ ، والنورى ، وغيرهم .

قال ابن الأعرابى :

أَخْسَر الأخسرين من أبدى للناس صالح أعماله ، وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد .

---

(١) كان من كبار المحدثين وصفه الذهبى وغيره : بالإمام الحافظ الثقة الزاهد ، روى عنه الطبرانى والخطابى ، وصنف كتبًا فى الطريق .

ومن أقواله : « المعرفة كلها الاعتراف بالجهل ، والتصوف كله ترك الفضول ، والزهد كله أخذ ما لابد منه وإسقاط ما بقى ، والمعاملة كلها استعمال الأولى فالأولى من العلم ، والرضا كله ترك الاعتراض ، والمحبة كلها إيثار المحبوب على الكل ، والصبر كله تلقى البلاء بالرحب ، والثقة بالله علمك أنه بك وبمصالحك أعلمَ منك بنفسك .

وقال : « إن الله تعالى جعل نعمته سبباً لمعرفته ، وتوفيقه سبباً لطاعته ، وعصمته سببًا لاجتناب معصيته ، ورحمته سببًا للتوبة ، والتوبة سبباً لمغفرته والدنو منه .

وقال العارفون بين : ذائق ، وشائق ، ووامق ، فالمقة شاقتهم ، والشوق ذوقهم فمن ذاق – فى شوق – فروى ، سكن وتمكن ، ومن ذاق فيه من غير رى ، أورثه الانزعاج والهيمان » .

ومنهم :

أبو عمرو محمد بن إبراهيم الزجاجى النيسابورى

جاور بمكة سنين كثيرة ومات بها .

صحب الجنيد ، وأبا عثمان ، والنورىَّ ، والخوَّاص ، ورويماً .

مات سنة : ثمان وأربعين وثلاثمائة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت جدىَّ أبا عمرو بن نجيد يقول :

سئل أبو عمرو الزجاجى : ما بالك تتغير عند التكبيرة الأولى فى الفرائض ؟

فقال : لأنى أخشى أن أفتتح فريضتى بخلاف الصدق، فمن يقول : الله أكبر ، وفى قلبه شىء أكبر منه ، أو قد كبرَّ شيئاً سواه على مرور الأوقات ، فقد كذَّب نفسه على لسانه .

وقال : من تكلم عن حال لم يصل إليها كان كلامه فتنة لمن يسمعه ، ودعوى تتولد فى قلبه ، وحرَمه الله الوصول إلى تلك الحال .

وقد جاور بمكة سنين كثيرة لم يتطهر فى الحرم ، بل كان يخرج إلى الحلِّ ويتطهر فيه[1] .

---

(١) احتراما للحرم كما فى نسخة .

ومن كلامه : « المعرفة على ستة أوجه : معرفة الوحدانية ومعرفة التعظيم ، ومعرفة المنة ، ومعرفة القدرة ، ومعرفة الأزل ، ومعرفة الأسرار » .

وقال « كان الناس فى الجاهلية يتبعون ما تستحسنه عقولهم وطبائعهم ، فجاء النبى ﷺ ، فردهم إلى الشريعة والاتباع ، فالعقل الصحيح وهو الذى يستحسن محاسن الشريعة ويستقبح ما تستقبحه » .

ومنهم :

أبو محمد جعفر بن محمد بن نصير[١]

بغدادى المنشأ والمولد .

صحب الجنيد ، وانتمى إليه ، وصحب النورى ، رويما ، وسمنون ، والطبقة . مات ببغداد سنة : ثمان وأربعين وثلاثمائة .

قال جعفر :

لا يجد العبد لذّة المعاملة مع الله مع لذة النفس ، لأن أهل الحقائق قطعوا العلائق التى تقطعهم عن الحق ، قبل أن تقطعهم العلائق .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت جعفرًا يقول :

إن ما بين العبد وبين الوجود أن تسكن التقوى قلبه ، فإذا سكنت التقوى قلبه نزلت عليه بركات العلم ، وزالت عنه رغبة الدنيا .

---

(١) الخواص البغدادى ، ويعرف بالخلدى ، قال الخطيب فى تاريخه . هو شيخ الصوفية ، رحل إلى مكة والفرات ومصر ولقى فيها المشايخ الكبار من المحدثين والصوفية ثم عاد إلى بغداد وروى بها علماً كثيرًا ، وقال : عندى مائة ونيف وثلاثون ديوانًا من دواوين الصوفية .

وعن كلامه : المحب يجتهد فى كتمان حبه ، وتأبى المحبة إلا اشتهارا .

وقال : العقل ما يبعدك عن مواطن الشبهات .

ومنهم :

أبو العباس السيارى

واسمه : القاسم بن القاسم[1] .

من « مرو » صحب الواسطى ، وانتمى إليه فى علوم هذه الطائفة .

وكان عالمًا[2] .

مات سنة : اثنتين وأربعين وثلاثمائة .

سئل أبو العباس السيَّارى : بماذا يروض المريد نفسه ؟

فقال : بالصبر على فعل الأوامر ، واجتناب النواهى ، وصحبة الصالحين ، وخدمة الفقراء .

وقال : ما التذَّ عاقل بمشاهدة الحق قط ، لأن مشاهدة الحق فناء ، ليس فيها لذة .

---

(١) اسمه : القاسم بن القاسم بن مهدى .

(٢) ومن كلامه :

قال فى تفسير قوله تعالى : ﴿ كل يوم هو فى شأن ﴾ أى « إظهار غائب وتغييب ظاهر » .

وقال : له رجل : أوصنى ! فقال : (كن شريف الهمة ، قريب المنظر ، بعيد المأخذ عزيزاً غريبا) .

وقال : (لباس الهداية للعامة ، ولباس الهيبة للعارفين ، ولباس الزينة لأهل الدنيا ، ولباس اللقاء للأولياء ، ولباس التقوى لأهل الحضور ، قال الله تعالى : ولباس التقوى ذلك خير) .

وقال : قيل لبعض الحكماء : من أين معاشك ؟ قال : من عند من ضيق المعاش على من شاء ، من غير علة ، ووسع على من شاء ، من غير علة) .

ومنهم :

أبو بكر محمد بن داود الدينورى

المعروف بالدقىّ .

أقام بالشام وعاش أكثر من مائة سنة .

مات بدمشق بعد الخمسين والثلاثمائة[1] .

صحب ابن الجلَّاء ، والزقَّاق .

قال أبو بكر الدقىّ :

المعدة موضع يجمعُ الأطعمة ، فإذا طرحتَ فيها الحلال صدرت الأعضاء بالأعمال الصالحة ، وإذا طرحت فيها الشبهة اشتبه عليك الطريق إلى الله تعالى - وإذا طرحت فيها التبعات كان بينك وبين أمر الله حجاب .

---

(١) مات سنة : ثلاث وستين وثلاثمائة .

ومن أقواله : (علامة القرب الانقطاع عن كل شيء سوى الله تعالى) و(كم من مسرور سروره بلاؤه ، وكم من مغموم غمه نجاته) وقال : (من عرف ربه لم ينقطع رجاؤه . ومن عرف نفسه لم يعجب بعمله ، ومن عرف الله لجأ إليه . ومن نسى الله لجأ إلى المخلوقين . والمؤمن لا يسهو حتى يغفل ، فإذا تفكر حزن واستغفر) .

وسئل عن الفرق بين الفقر والتصوف ، فقال : (الفقر حال من أحوال التصوف .

فقيل له : ما علاقة الصوفى ؟ ، فقال : أن يكون مشغولاً بكل ما هو أولى به من غيره ، ويكون معصومًا عن المذمومات) .

وقال عن الإخلاص (الإخلاص : أن يكون ظاهر الإنسان وباطنه ، وسكونه ، وحركاته ، خالصًا لله ، لا يشوبه حظ نفس ، ولا هوى ، ولا خلق ، ولا طمع) .

ومنهم :

أبو محمد عبد الله بن محمد الرازى[1]

مولده ومنشؤه بنيسابور .

صحب أبا عثمان الحيرىَّ ، والجنيد ، ويوسف بن الحسين ، ورويمًا ، وسمنونًا ، وغيرهم .

مات سنة : ثلاث وخمسين وثلاثمائة .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبد الله الرازى يقول وقد سئل : ما بال الناس يعرفون عيوبهم ولا يرجعون إلى الصواب ؟

فقال :

لأنهم اشتغلوا بالمباهاة بالعلم ، ولم يشتغلوا باستعماله ، واشتغلوا بالظواهر ولم يشتغلوا بآداب البواطن ، فأعمى الله قلوبهم ، وقيد جوارحهم عن العبادات .

---

(١) وهو المعروف بالحداد .

ومن كلامه : العبارة تعرفها العلماء ، والإشارة تعرفها الحكماء ، واللطائف تقف عليها السادة النبلاء . وقال : (علامة الصبر ترك الشكوى ، وكتمان الضر والبلوى .

ومن علامات الإقبال على الله تعالى صيانة الأسرار عن الالتفات إلى الأغيار ، وأحسن العبيد حالاً من رأى نعمة الله عليه بأن أهله لمعرفته ، وأذن له فى قربه ، وأباح له سبيل مناجاته ، وخاطبه على لسان أعز أنبيائه) .

ومنهم :

أبو عمرو إسماعيل بن نجيد

صحب أبا عثمان[1] ، ولقى الجُنيد .

وكان كبير الشأن[2] .

آخر من مات من أصحاب أبى عثمان . توفى بمكة سنة : ست وستين وثلاثمائة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت جدِّى أبا عمرو بن نجيد يقول :

كل حال لا يكون عن نتيجة علم ؛ فإن ضررَه على صاحبه أكثر من نفعه .

قال : وسمعته يقول : من ضيع فى وقت من أوقاته فريضة افترضها الله عليه حرِمَ لذَّة تلك الفريضة ، ولو بعد حين .

قال : وسئل عن التصوف ، فقال :

الصبر تحت الأمر والنهى .

قال ، وقال : آفة العبد رضاه من نفسه بما هو فيه .

---

(١) هو أبو عثمان الحيرى .

(٢) أخذ الحديث عن أحمد بن حنبل . وأسند الحديث . ورواه . وكان ثقة .

وسئل عن التوكل ، فقال: « أدناه حسن الظن بالله تعالى ، والمتوكل : الذى يرضى بحكم الله تعالى فيه » ومن حكمه « التهاون بالأمر من قلة المعرفة بالآمر » . وقوله « من أظهر محاسنه لمن لا يملك ضره ولا نفعه ، فقد أظهر جهله » . وقاله « الطمأنينة إلى الخلق عجز » .

ومنهم :

أبو الحسن على بن أحمد بن سهل البوشنجى[1]

أحد فتيان خُراسان .

لقى أبا عثمان ، وابن عطاء ، والجريرى ، وأبا عمرو الدِّمشقىَّ .

مات سنة : ثمان وأربعين وثلاثمائة .

وسئل البوشنجى عن المروءة ، فقال :

هى ترك استعمال ما هو محرَّم عليك مع الكرام الكاتبين .

وقال له إنسان : ادع الله لى .

فقال : أعادك الله من فتنتك .

وقال : أوَّل الإيمان منوط بآخره .

---

(١) نسبة إلى « بوشنج » وهى بلدة على سبعة فراسخ من هراة .
سئل عن التصوف ، فقال : « اسم ولا حقيقة ، وقد كان قبل حقيقة ولا اسم » .
وقال : الناس على ثلاث منازل :
الأولياء ، وهم الذين باطنهم أفضل من ظاهرهم .
والعلماء ، وهم الذين سرهم وعلانيتهم سواء .
والجهال ، وهم الذين علانيتهم تخالف أسرارهم ، ولا ينصفون من أنفسهم ويطلبون الإنصاف من غيرهم » .
وقال « من ذل فى نفسه رفع الله قدره . ومن عز فى نفسه أذله الله فى أعين عباده » .

ومنهم :

أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازى[١]

صحب رويمًا ، والجريرى ، وابن عطاء ، وغيرهم .

مات سنة : إحدى وسبعين وثلاثمائة .

وهو شيخ الشيوخ وواحد وقته .

قال ابن خفيف : الإدارة استدامةُ الكدِّ ؛ وترك الراحة .

وقال : ليس شىء أضر على المريد من مسامحة النفس فى ركوب الرخص وقبول التأويلات .

وسئل عن القرب ، فقال :

قُربك منه بملازمة الموافقات ، وقُربه منك بدوام التوفيق .

سمعت أبا عبد الله الصوفىَّ ، يقول : سمعت أبا عبد الله بن خفيف يقول :

ربَّما كنت أقرأ فى ابتداء أمرى فى ركعة واحدة عشرة آلاف مرَّة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وربما كنت أقرأ فى ركعة واحدة القرآن كله ، وربما كنت أصلى من الغداة إلى العصر ألف ركعة .

سمعت أبا عبد الله بن باكويه الشيرازى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا أحمد الصغير يقول : دخل يومًا من الأيام فقير ، فقال للشيخ أبى عبد الله بن خفيف .

بى وسوسة !!

فقال الشيخ :

عهدى بالصوفيَّة يسخرون من الشيطان ، والآن الشيطان يسخر منهم .

وسمعته يقول : سمعت أبا العباس الكرخى يقول : سمعت أبا عبد الله بن خفيف يقول : ضعفت عن القيام فى النوافل ، فجعلت بدل كل ركعة من أورادى ركعتين قاعدًا ، للخبر : « صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم[٢] » .

---

(١) هو محمد بن خفيف بن إسفكشاد الضبى الشيرازى الشافعى . أمه نيسابورية ؛ وأقام بشيراز ، كان من الأمراء ثم تفقه وتصوف وتزهد : أخذ عن ابن شريح الأشعرى والواسطى والجريرى وابن عطاء والمقدسى ، ولقى الحلاج . وأخذ عنه القاضى الباقلانى .

(٢) رواه أحمد والنسائى وابن ماجه والطبرانى .

ومنهم :

أبو الحسين بندار بن الحسين الشيرازى

كان عالمًا بالأصول ، كبيرًا فى الحال .

صحب الشبلى .

مات « بأَرَّجان »[١] سنة : ثلاث وخمسين وثلاثمائة .

قال بُندار بن الحسين :

لا تخاصم لنفسك ، فإنها ليست لك ، دعها لمالكها يفعل بها ما يريد .

وقال بُندار :

صحبة أهل البدع تورث الإعراض عن الحق .

وقال بُندار[٢] :

اترك ما تهوى لما تأمل .

---

(١) أرجان - بفتح أوله وتشديد الراء ، وعامة العجم يسمونها أرغان ، مدينة كبيرة بينها وبين شيراز ستون فرسخًا . وفى بعض النسخ « أنه مات بأذربيجان » .

(٢) ومن أقواله : « من أقبل على الدنيا أحرقته بنيرانها « يعنى الحرص » ومن أقبل على الآخرة أحرقته بنورها يعنى الخوف ، فصار سبيكه ذهب ، ومن أقبل على الله أحرقه الله بنور التوحيد فصار جوهرًا لا يقابل بثمن .

وقال : من مشى فى الظلم إلى ذى النعم أجلسه على بساط الكرم ، ومن قطع لسانه بشفرة السكوت بنى له بيتًا فى الملكوت .

وسئل عن الفرق بين الصوفى والمتصوف فقال : الصوفى من اختاره الله لنفسه فصافاه ، وعن نفسه براه ، ولم يرده إلى تعمل وتكلف ، وصوفى على زنة عوفى ، أى عافاه الله ، وكوفى : أى كافأه الله ، وجوزى : أى جازاه الله ، ففعل الله تعالى ظاهر على اسمه .

والمتصوف : المزاحم على المراتب مع تكلف وكمون رغبة فى الدنيا » .

وقال : « الصوفية متفقون فى الوحدانية - فى الجملة - قولا ، متفرقون فى الوصول إليها معاينة ومنازلة ، وكل واحد يستحق اسم ما ظهر عليه من حاله ، الذى هو به موصوف ، بعد اتفاقهم فى الوحدانية قولا : فمن بين مجتهد ، وزاهد ، وعابد وخائف ، وراج ، وغنى ، وفقير ، ومريد ، ومراد ، وصابر ، وراض ، ومتوكل ومحب ، ومستهتر ، ومستأنس ، ومشتاق ، ووالِه ، وهائم : وواجد : وفان ، وباق وأحوال يكثر تعدادها ، وقد تجتمع الأحوال كلها فى واحد ويسمى بما عليه من الجميع » .

ومنهم :

أبو بكر الطمستانى

صحب إبراهيم الدَّباغ ، وغيره .

وكان أوحد وقته علمًا ، وحالاً . مات بنيسابور بعد سنة : أربعين وثلاثمائة قال أبو بكر الطِّمستانى :

النعمة العظمى الخروج من النفس[1] ، والنفس أعظم حجاب بينك وبين الله .

سمعت أبا عبد الله الشيرازى ، رحمه الله ، يقول : سمعت منصور بن عبد الله الأصبهانى ، يقول : سمعت أبا بكر الطِّمستانى يقول :

إذا همّ القلب عوقب فى الوقت .

وقال : « الطريق واضح ، والكتاب والسنَّة قائم[2] بين أظهرنا وفضل الصحابة معلوم ؛ لسبقهم إلى الهجرة ، ولصحبتهم ؛ فمن صحب منا الكتاب والسنة وتغرَّب[3] عن نفسه والخلق ، وهاجر بقلبه إلى الله ، فهو الصادق المصيب[4] » .

---

(١) أى البعد بها عما طبعت عليه وألفته من خلق مذموم وعادة قبيحة ، يوضح ذلك قوله « لا يمكن الخروج من النفس بالنفس وإنما يمكن الخروج من النفس بالله تعالى ، وذلك بصحة الإرادة لله عز وجل » .

(٢) وفى بعض النسخ « قائمان » وفى بعضها الآخر « قائمة » .

(٣) أى بعد عنها .

(٤) وكان يقول ما الحياة إلا فى الموت ، أى : ما حياة القلب إلا فى إماتة النفس وقال : « النفس كالنار ، إذا أطفئت فى موضع تأججت فى آخر ؛ كذلك النفس إذا هدأت من جانب ثارت من جانب آخر » .

ومنهم :

أبو العباس أحمد بن محمد الدينورى

صحب يوسف بن الحسين ، وابن عطاء ، والجريريَّ .

وكان عالمًا فاضلًا ؛ ورد « نيسابور » وأقام بها مدَّة ، وكان يعظ الناس ، ويتكلم على لسان المعرفة ، ثم ذهب إلى « سمرقند » ، ومات بها بعد الأربعين وثلاثمائة .

قال أبو العباس الدِّينورى :

أدْنى الذكر أن تنسى ما دونه ، ونهاية الذكر أن يغيب الذاكر فى الذكر عن الذكر .

وقال أبو العباس : لسان الظاهر[1] لا يغيِّر حكم الباطن .

وقال أبو العباس الدينورى :

نقضوا[2] أركان التصوف ، وهدموا سبيلها ، وغيروا معانيها بأسامى أحدثوها :

سمُّو الطمع « زيادة » ، وسوء الأدب « إخلاصًا » والخروج عن الحق .

« شطحا » ، والتلذذ بالمذموم « طيبة »[3] ، واتباع الهوى « ابتلاء » والرجوع إلى الدنيا « وصلًا » ، وسوء الخلق « صولة » ، والبخل « جلادة » والسؤال « عملًا » وبذاءة اللسان « ملامة » . وما هذا كان طريق القوم[4] .

---

(١) وفى نسخة « لباس الظاهر » والمقصود أن الشريعة والحقيقة واحدة وإنما الاختلاف فى التعبير : فلا شريعة إلا بحقيقة ولا حقيقة إلا بشريعة .

(٢) أى المتشبهين بالصوفية .

(٣) أى شيئا يتطيب به ويتفكه به .

(٤) ومن أقواله : « مكاشفات الأعيان بالأبصار ومكاشفات القلوب بالاتصال » .

ومنهم :

أبو عثمان سعيد بن سلام المغربى

واحد عصره ، لم يوصف مثله قبله .

صحب ابن الكاتب ، وحبيبًا المغربى ، وأبا عمرو الزجاجىَّ ، ولقى النهر جورى وابن الصائغ وغيرهم .

مات بنيسابور سنة : ثلاث وسبعين وثلاثمائة .

وأوصى يأن يُصلى عليه الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله تعالى .

سمعت الأستاذ أبو بكر بن فورك يقول :

كنت عند أبى عثمان المغربى حين قرب أجله ، وعلىّ القوال الصغير يقول شيئًا ، فلما تغير عليه الحال أشرنا على علىّ بالسكوت ، ففتح الشيخ أبو عثمان عينيه ، وقال : لم لا يقول علىّ شيئًا ؟

فقلت لبعض الحاضرين : سلوه ، علام يسمع المستمع[1] ، فإنى أحتشمه[2] فى تلك الحالة . فسألوه ، فقال :

إنما يسمع من حيث يسمع[3] .

وكان فى الرياضة كبير الشأن .

وقال أبو عثمان :

التقوى ، هى : الوقوف مع الحدود ، لا يُقصر فيها ولا يتعدَّاها .

وقال :

من آثر صحبة الأغنياء على مجالسة الفقراء ابتلاه الله بموت القلب[4]

---

(١) أى : على أى وجه يسمع .

(٢) استحى منه .

(٣) أى : من حيث يسمعه الله تعالى لاختلاف مقامات الناس ومعرفتهم بالله ومحبتهم له ، فقد يسمع العبد من الخوف ، وقد يسمع من الرجاء ..

(٤) ومن أقواله : « عاص نادم خير من طائع مدع : لأن العاصى يطلب طريق توبته ويعترف بنقصه ، والمدعى يتخبط فى حبال دعواه » .

وقال : الصوفى من يملك الأشياء اقتدارا ولا يملكه شىء إقهاراً » .

وقال : « ليكن تدبرك فى الخلق تدبر عبرة وتدبرك فى نفسك تدبر موعظة ، وتدبرك فى القرآن تدبر حقيقة ومكاشفه » .

ومنهم :

أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصراباذى[1]

شيخ « خراسان » فى وقته .

صحب الشبلىَّ ، وأبا على الروذبارىَّ ، والمرتعش .

جاور بمكة سنة : ست وستين وثلاثمائة . ومات بها سنة : تسع وستين وثلاثمائة .

وكان عالمًا بالحديث ، كثير الرواية .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت النصراباذى يقول :

إذا بدا لك شىء من بوادى الحق ، فلا نلتفت معها إلى جنَّة ، ولا إلى نار ، فإذا رجعت عن تلك الحال فعظِّم ما عظمه الله .

وسمعت محمد بن الحسين يقول : قيل للنصراباذى :

إن بعض الناس يجالس النسوان ، ويقول : أنا معصوم فى رؤيتهن .

فقال :

ما دامت الأشباح[2] باقية فإنَّ الأمر والنهى باق ، والتحليل والتحريم مخاطب به ؛ ولن يجترئ على الشبهات إلا من تعرض للمحرمات .

وسمعت محمد بن الحسين ، رحمة الله ، يقول : قال النصراباذى :

أصل التصوف : ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع وتعظيم حرمات المشايخ ، ورؤية أعذار الخلق ، والمداومة على الأوراد ، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات .

---

(١) واسمه : إبراهيم بن محمد بن محمويه نيسابورى الأصل ، والمنشأ ، والمولى والنصر اباذى : نسبة إلى نصر أباذ ، محلة من محال نيسابور .

ومن كلامه : « أنت بين نسبتين » نسبة إلى الحق ونسبة إلى آدم ، فإذا انتسبت إلى الحق دخلت فى مقامات الكسف والبراهين والعظمة ، وهى نسبة تحقق العبودية قال الله تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ وقال : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ وإذا انتسبت إلى آدم دخلت فى مقامات الظلم والجهل ، قال الله تعالى : ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا ﴾ .

ومن كلامه أيضاً « الأشياء أدلة منه ، ولا دليل عليه سواه » .

(٢) أى الأشخاص .

ومنهم :

أبو الحسن على بن إبراهيم الحصرى البقرى

سكن بغداد .

عجيب الحال واللسان ، شيخ وقته .

ينتمى إلى الشبلىّ .

مات ببغداد سنة : إحدى وسبعين وثلاثمائة .

قال الحصرى :

الناس يقولون : الحصرى لا يقول بالنوافل[1] ، وعلى أوراد من حال الشباب لو تركت ركعة لعوقبت .

وقال :

من ادَّعى فى شىء من الحقيقة كذَّبته شواهد كشف البراهين .

---

(١) أى : لا يعتنى بها .

ومنهم :

أبو عبد الله بن أحمد بن عطاء الروذبارى

ابن أخت الشيخ أبى على الروذبارى :

شيخ الشام فى وقته مات « بصور »[١] .سنة : تسع وستين وثلاثمائة[٢] .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت على بن سعيد المصيصى ، يقول : سمعت أحمد بن عطاء الروذبارى يقول :

كنت راكبًا جملًا . فغاصت رجلا الجمل فى الرمل ، فقلت : جل الله ، فقال الجمل : جل الله . وكان أبو عبد الله الروذبارى إذا دعا أصحابه معه إلى دعوة فى دور السوقة ، ومن ليس من أهل التصوف لا يُخْبِر الفقراء بذلك ، وكان يطعمهم شيئًا ، فإذا فرغوا أخبرهم ، ومضى بهم فكانوا قد أكلوا فى الوقت فلا يمكنهم أن يمدوا أيديهم إلى طعام الدعوة إلا بالتعزز[٣] .

وإنما كان يفعل ذلك ، لئلا تسوء ظُنون الناس[٤] بهذه الطائفة فيأثموا بسببهم .

وقيل : كان أبو عبد الله الروذبارى يمشى على أثر الفقراء يوماً ، وكذا كانت عادته أن يمشى على أثرهم[٥] ، وكانوا يمضون إلى دعوة فقال إنسان بقّال :

هؤلاء المستحلون[٦] . وبسط لسانه فيهم ، وقال فى أثناء كلامه :

إن واحدا منهم قد استقرض منىٍّ مائة درهم . ولم يردها علىَّ ولست أدرى أين أطلبه ؟

فلما دخلوا دار الدعوة ، قال أبو عبد الله الروذبارى لصاحب الدار وكان من محبِّى هذه الطائفة :

ائتنى بمائة درهم إن أردت سكون قلبى .

---

(١) صور – بضم الأول وسكون الثانى : مدينة من ثغور المسلمين مشرفة على بحر الشام (البحر المتوسط) فتحها المسلمون أيام عمر بن الخطاب . وهى شرقى عكا .

(٢) ومن أقواله : « من قلت آفاته اتصلت بالحق أوقاته » وسئل عن القبض والبسط ، وعن حال من قبض ونعته ، وعن حال من بسط ونعته فقال : إن القبض أول أسباب الفناء ، والبسط أول أسباب البقاء ، فحال من قبض : الغيبة ، وحال من بسط الحضور ، ونعت من قبض : الحزن ، ونعت من بسط : السرور .

(٣) أى : التقلل .

(٤) وفى نسخة « عوام الناس » .

(٥) أى : يتأخرهم ، ويسير خلفهم ، تواضعاً .

(٦) أى لأموال الناس .

فأتاه بها فى الوقت فقال لبعض أصحابه :

احمل هذه المائة إلى البقَّال الفلانىِّ ، وقل له : هذه ا... التى استقرضها منك بعض أصحابنا ، وقد وقع له فى التأخير بها عذر ، وقد بعثها الآن ... ـبل عذره !! فمضى الرجل ، وفعل ، فلما رجعوا من الدعوة اجتازوا بحانوت البقَّال ، ... خذ البقال فى مدحهم يقول :

هؤلاء هم الثقاةُ الأمناء الصلحاء ، وما أشبه ذلك

وقال أبو عبد الله الروذبارى :

أقبح من كل قبيح صوفى شحيح .

* * *

قال أبو القاسم الأستاذ الإمام جمال الإسلام[1] ، رضى الله عنه هذا هو ذكر جماعة من شيوخ هذه الطائفة .

وكان الغرض من ذكرهم فى هذا الموضع التنبيه على أنهم مجمعون على تعظيم الشريعة ؛ متصفون بسلوك طرق الرياضة ، مقيمون على متابعة السنة ، غير مخلين بشىء من آداب الديانة ، متفقون على أن من خلا من المعاملات والمجاهدات ولم يبن أمره على أساس الورع والتقوى كان مفترياً[2] على الله سبحانه وتعالى ، فيما يدعيه ، متفونا ، هلك فى نفسه ، وأهلك من اغتر به ممن ركن إلى أباطيله .

ولو تقصينا ، وتتبعنا ما ورد عنهم : من ألفاظهم ، وحكاياتهم ، ووصفِ سيرهم مما يدل على أحوالهم ، لطـال به الكتاب ، وحصل منه الملال :

وفى هذا القدر الذى لو حنا به فى تحصيل المقصود غنية ، وبالله التوفيق .

* * *

فأما المشايخ الذين أدركناهم ، وعاصرناهم ، وإن لم يتفق لنا لقياهم ، مثل :

الأستاذ الشهيد ، لسان وقته ، وأوحد عصره ، أبى علىٍّ الحسن بن على الدقاق ، والشيخ ، نسيج وحده فى وقته ، أبى عبد الرحمن السلمى وأبى الحسن على بن جَهضم مجاور الحرم ، والشيخ أبى العباس القصار بطبرستان ، وأحمد الأسود بالدينور ؛ وأبى القاسم الصيرفى بنيسابور ، وأبى سهل الخشاب الكبير بها ، ومنصور بن خلف المغربى ، وأبى سعيد المالينى ،

---

(١) وفى نسخة أخرى « قال الأستاذ الإمام أبو القاسم عبد الكريم القشيرى .

(٢) مختلفاً .

وأبى طاهر الخوزندى ، قدس الله أرواحهم ، وغيرهم ، فلو اشتغلنا بذكرهم ، وتفصيل أحوالهم ، لخرجنا عن المقصود فى الإيجاز . وغير ملتبس من أحوالهم حسن سيرتهم فى معاملاتهم .

وسنورد من حكاياتهم طرفا فى مواضع من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى .

باب
فى تفسير[١] ألفاظ تدور بين هذه الطائفة
وبيان ما يشكل منها

اعلم أنَّ من المعلوم : أن كلَّ طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها - فيما بينهم - أنفردوا بها عمن سواهم ، تواطئوا عليها ؛ لأغراض لهم فيها : من تقريب الفهم[٢] على المخاطبين بها ، أو تسهيل على أهل تلك الصنعة فى الوقوف على معانيهم ، بإطلاقها ، وهذه الطائفة يستعملون ألفاظًا فيما بينهم ، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم ، والإجمال والستر على من باينهم فى طريقتهم ؛ لتكون معانى ألفاظهم مستبهمة على الأجانب ، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع فى غير أهلها ، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف ، أو مجلوبة بضرب تصرُّف ، بل هى معان أودعها الله تعالى قلوب قوم ، واستخلص لحقائقها أسرار قوم .

ونحن نريد بشرح هذه الألفاظ : تسهيل الفهم على من يريد الوقوف على معانيهم من سالكى طرقهم ، ومتبعى سنتهم .

---

(١) وفى نسخة أخرى سقطت لفظة « تفسير » .

(٢) وفى نسخة أخرى للفهم .

فمن ذلك :

الوقت

حقيقة الوقت عند أهل التحقيق : حادث متوهم علق حصوله على حادث متحقق[1] فالحادث المتحقق ، وقت للحادث المتوهم ، تقول : آتيك رأس الشهر ، فالإتيان متوهم[2] ، ورأس الشهر حادث متحقق . فرأس الشهر وقت الإتيان .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

الوقت : ما أنت فيه ، إن كنت بالدنيا فوقتك الدنيا ، وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى ، وإن كنت بالسُّرور فوقتك السرور ، وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن .

يريد بهذا : أن الوقت ما كان هو الغالب على الإنسان .

وقد يعنون بالوقت : ما هو[3] فيه من الزمان ، فإن قوماً قالوا : الوقت ما بين الزمانين ، يعنى الماضى والمستقبل .

ويقولون : الصوفى ابن وقته ، يريدون بذلك : أنه مشتغل بما هو أولى به من العبادات فى الحال ، قائم بما هو مطلوب به فى الحين .

وقيل : الفقير لا يهمه[4] ماضى وقته وآتيه ، بل يهمه وقته الذى هو فيه .

ولهذا قيل : الاشتغال بفوات وقت ماض . تضييع وقت ثان .

وقد يريدون بالوقت : ما يصادفهم من تصريف الحقِّ لهم ، دون ما يختارونه لأنفسهم .

ويقولون : فلان بحكم الوقت ، أى : أنه مستسلم لما يبدو له من الغيب من غير اختيار له .

وهذا فيما ليس لله تعالى عليهم فيه أمر أو اقتضاء بحق شرع ، إذ التضييع لما أمرت به : وإحالة الأمر فيه على التقدير وترك المبالاة بما يحصل منك من التقصير : خروج عن الدين .

---

(١) ذكر الأنصارى أن صواب العبارة « حادث متحقق علق عليه حصول حادث متوهم ، بدليل قوله : فالحادث المتحقق .. إلخ .

(٢) يستعمل القدماء كثيرًا : التوهم بمعنى التخيل .

(٣) أى ما الإنسان فيه : أى يخصون الوقت بالحال دون ا لماضى والمستقبل .

(٤) يهمه . بضم الياء أى يقلقه ، وبفتحها أى : يدينه .

ومن كلامهم : الوقت سيف . أى : كما أنَّ السيف قاطع فالوقت بما يمضيه الحق[1] ويجريه غالب[2] .

وقيل : السيف لين مسه ، قاطع حده ، فمن لا نيهُ سلم ، ومن خاشنه اصطلم[3] . كذلك الوقت : من استسلم لحكمه نجا ، ومن عارضه انتكس وتردى .

وأنشدوا فى ذلك :

وكالسيف إن لا نيته لان مسه[4] وحدَّاه إن خاشنته خشنان

ومن ساعده الوقت : فالوقت له وقت .

ومن ناكده الوقت : فالوقت عليه مقت .

وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول :

الوقت مبرد يسحقك ولا يمحقك .

يعنى : لو محاك وأفناك لتخلصت حين فنيت ، لكنه يأخذ منك ولا يمحوك بالكلية - وكان ينشد فى هذا المعنى :

كل يوم يمر يأخذ بعضى يورث القلب حسرة ثم يمضى

وكان ينشد أيضاً :

كأهل النار إن نضجت جلود أعيدت للشقاء لهم جلود

وفى معناه :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميِّت ميت الأحياء

والكيِّس : من كان بحكم وقته ؛ إن كان وقته الصحو فقيامه بالشريعة ، وإن كان وقته المحو ، فالغالب عليه أحكام الحقيقة .

---

(١) بما يقدره الله .

(٢) وافع .

(٣) استؤصل .

(٤) وفى نسخة « متنه » أى وسطه والمراد عرضه .

ومن ذلك :

المقام

والمقام : ما يتحقق به العبد بمنازلته[1] من الآداب ؛ مما يتوصَّل إليه بنوع تصرف ، ويتحقق به بضرب تطلُّب ، ومقاساة تكلف .

فمقام كل أحد : موضع إقامته عند ذلك[2] ، وما هو مشتغل بالرياضة له .

وشرطه : أن لا يرتقى من مقام إلى مقام آخر ، مالم يستوف أحكام ذلك المقام ، فإن من لا قناعة له لا تصح له التوكل ومن لا توكل له لا يصح له التسليم ، وكذلك من لا توبة له لا تصح له الإنابة ، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد .

والمقام : هو الإقامة ، كالمُدخل بمعنى الإدخال ، والمخرج بمعنى الإخراج ولا يصحُّ لأحد منازلة مقام إلا بشهود[3] إقامة الله تعالى إياه بذلك المقام ، ليصحَّ بناء أمره على قاعدة صحيحة .

سمعت الأستاذ أبا على الدَّقاق ، رحمه الله تعالى ، يقول :

لما دخل الواسطى نيسابور ، سأل أصحاب أبى عثمان :

بماذا كان يأمركم شيخكم ؟

فقالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعات ، ورؤية التقصير فيها .

فقال : أمركم بالمجوسيَّة المحضة ، هلا أمركم بالغيبة عنها ، برؤية منشئها ومجريها ؟

وإنما أراد الواسطى بهذا : صيانتهم عن محل الإعجاب[4] .

لا تعريجاً فى أوطان التقصير ، أو تجويزاً للإخلال بأدب من الآداب .

---

(١) أى بنزوله فيه وبما اكتسب له .

(٢) أى عند اكتسابه ما يوصل إليه . قال الإمام الغزالى : لابد لكل مقام من علم ، وعمل ، وحال ؛ فالمقام يثمر علماً ، والعمل يثمر حالاً ، لأن حركات الأجسام تابعة لحركات القلوب وحركات القلوب جارية بحركات الأجسام .

(٣) أى رؤية .

(٤) أى أنه جعل من أعجب بطاعته كأنه مجوسى ؛ حيث نظر إلى فعل نفسه مع غفلته عن مجريه المنعم به .

ومن ذلك :

الحال

والحال عند القوم : معنى يَرد على القلب ، من غير تعمد منهم ، ولا اجتلاب ، ولا اكتساب لهم ، من : طرب ، أو حزن ، أو بسط ، أو قبض ، أو شوق ، أو انزعاج أو هبة ، أو احتياج .

فالأحوال : مواهب ، والمقامات . مكاسب .

والأحوال تأتى من عين الجواد[1] ، والمقامات تحصل ببذل المجهود .

وصاحب المقام ممكن[2] فى مقامه ، وصاحب الحال مُترقّ[3] عن حاله[4] .

وسئل ذو النون المصرى ، عن العارف ، فقال : كان هاهنا ، فذهب .

وقال بعض المشايخ : الأحوال كالبروق : فإن بقى فحديث نفْس[5] .

وقالوا : الأحوال كاسمها ، يعنى أنها : كما تحلُّ بالقلب تزول فى الوقت .

وأنشدوا :

لو لم تَحُلْ ما سميت حالا ... وكل ما حال فقد زالا

انظر إلى الفىء[6] إذا ما انتهى ... يأخذ فى النقص إذا طالا

وأشار قوم إلى بقاء الأحوال ، ودوامها . وقالوا : إنها إذا لم تدم ولم تتوَال فهى لوائح وبواده[7] ، ولم يصل صاحبها بعد إلى الأحوال فإذا دامت تلك الصفة فعند ذلك تسمىَّ : « حالاً » .

وهذا أبو عثمان الحيرى يقول :

منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهْتهُ .

أشار إلى دوام الرِّضا ، والرِّضا من جملة الأحوال .

---

(١) وفى نسخة أخرى : من غير الوجود .

(٢) وفى نسخه « متمكن » .

(٣) وفى نسخة « مرقى » .

(٤) أى فالمقامات مستقرة والأحوال متغيرة .

(٥) أى : إن بقى شىء منها مع العبد فالباقى حديث نفسه بالحال ، لا نفس الحال .

(٦) فاء الظل يفىء فيئاً : إذا رجع من جانب المغرب إلى جانب المشرق .

(٧) لوائح : من لاح له المعنى إذا ظهر ، وبواده : من بدهه إذا فجأه وبغته .

فالواجب فى هذا : أن يقال : إن من أشار إلى بقاء الأحوال فصحيح ما قال ، فقد يصير المعنى شِرْباً[١] لأحد فيربّى فيه .

ولكن لصاحب هذه الحال أحوال : هى طوارق[٢] لا تدوم فوق أحواله التى صارت شرباً له ؛ فإذا دامت هذه الطوارق له ، كما دامت الأحوال المتقدمة ، ارتقى إلى أحوال أخر ، فوق هذه وألطف من هذه ، فأبداً يكون فى الترقى .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول فى معنى قوله ﷺ : « إنه ليغَان[٣] على قلبى حتى أستغفر الله تعالى فى اليوم سبعين مرة[٤] » : أنه كان ﷺ أبداً فى الترقى من أحواله فإذا ارتقى من حالة إلى حالة أعلى مما كان فيها ، فربما حصل له ملاحظة إلى ما ارتقى عنها ، فكان يعدهُّا « غيْنا » بالإضافة إلى ما حصل فيها ، فأبداً كانت أحواله فى التزايد .

ومقدورات الحق سبحانه ، من الألطاف : لا نهاية لها ؛ فإذا كان حق الحق تعالى ، العز ، وكان الوصول إليه بالتحقيق محالاً ، فالعبد أبداً فى ارتقاء أحواله .

فلا معنى يوصل إليه ، إلا وفى مقدوره سبحانه ما هو فوقه ، يقدر أن يوصله إليه . وعلى هذا يحمل قولهم : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » .

وسئل الجنيد عن هذا ، فأنشد :

طوارق أنوار تلوح إذا بدت فتظهر كتماناً وتخبر عن جمع

---

(١) شربا : أى حظا ومقاماً .

(٢) أحوال .

(٣) يغطى .

(٤) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى .

ومن ذلك :

القبض والبسط

وهما : حالتان ، بعد ترقِّى العبد عن حالة الخوف والرجاء .

فالقبض للعارف : بمنزلة الخوف للمستأنف[١] .

والبسْط للعارف : بمنزلة الرجاء للمستأنف .

ومن الفصل[٢] بين القبض والخوف ، والبسط والرجاء : أن الخوف إنما يكون من شيء فى المستقبل ، إما أن يخاف فوت محبوب أو هجوم محذور .

وكذلك الرجاء : إنما يكون بتأميل محبوب فى المستقبل ، أو بتطلع زوال محذور وكفاية مكروه فى المستأنف[٣] .

وأما القبض : فلمعنى حاصل فى الوقت ، وكذلك البسط ، فصاحب الخوف والرجاء : تعلق قلبه فى حالتيه بآجله ، وصاحب القبض والبسط أخذ[٤] وقته بوارد غلب عليه فى عاجله .

ثم تتفاوت نعوتهم فى القبض والبسط على حسب تفاوتهم فى أحوالهم :

فمن واردٍ يوجب قبضًا ، ولكن يبقى مساغ للأشياء الأخر ، لأنه غير مستوف ومن مقبوض لا مساغ لغير وارده فيه ، لأنه مأخوذ عنه بالكلية بوارده .

كما قال بعضهم : أنا ردْم[٥] ، أى : لا مساغ فىّ .

وكذلك المبسوط : قد يكون فيه بسط يسع الخلق ، فلا يستوحش من أكثر الأشياء ، ويكون مبسوطا[٦] لا يؤثر فيه شيء بحال من الأحوال .

سمعت الأستاذ أبا علىٍّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

دخل بعضهم على أبى بكر القحطى ؛ وكان له ابن يتعاطى ما يتعاطاه الشباب ، وكان ممر هذا الداخل على هذا الابن ، فإذا هو مع أقرانه فى اشتغاله ببطالته .

---

(١) للمبتدىء خوفه . وهو المريد .

(٢) الفرق .

(٣) المستقبل .

(٤) وفى نسخة « أخيذ وقته » أى أسير .

(٥) مردوم .

(٦) منشرح الصدر .

فرق قلبه ، وتألم للقحطى ، وقال :

مسكين هذا الشيخ ، كيف ابتلى بمقاساة هذا الإبن ؟

فلما دخل على القحطى ، وجده كأنه لا خبر له بما يجرى[1] عليه من الملاهى ، فتعجب منه ، وقال فديت ، من لا تؤثر فيه الجبال الرواسى .

فقال القحطى :

إنا قد حررنا عن رق الأشياء فى الأزل .

ومن أدنى موجبات القبض : أن يرد على قلبه وارد موجبه إشارة إلى عتاب ورمز[2] باستحقاق تأديب ، فيحصل فى القلب لا محالة ، قبض .

وقد يكون موجب بعض الواردات إشارة إلى تقريب ، أو إقبال بنوع لطف وترحيب ، فيحصل للقلب بسط .

وفى الجملة : قبض كل أحد حسب بسطه ، وبسطه على حسب قبضه .

وقد يكون قبض يشكل على صاحبه سببه : يجد فى قلبه قبضًا لا يدرى موجبه ولا سببه ، فسبيل صاحب هذا القبض التسليم ، حتى يمضى ذلك الوقت ، لأنه لو تكلف نفيه ، أو استقبل الوقت قبل هجومه عليه باختياره زاد فى قبضه .

ولعله يعد ذلك منه : سوء أدب .

وإذا استسلم لحكم الوقت ، فعن قريب يزول القبض ، فإن الحق سبحانه قال : ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾ .

وقد يكون بسط يرد بغتة ، ويصادف صاحبه فلتة لا يعرف له سبباً ، يهز صاحبه ويستفزُّه ، فسبيل صاحبه السكون ، ومراعاة الأدب ، فإن فى هذا الوقت له خطراً عظيما فليحذر صاحبه مكراً خفيا .

كذا قال بعضهم : فتح علىَّ باب من البسط ، فزللت زلة فحجبت عن مقامى .

ولهذا قالوا : قف على البساط ، وإيَّاك والانبساط .

وقد عدّ أهل التحقيق حالتى القبض والبسط من جملة ما استعاذوا منه ، لأنهما بالإضافة إلى ما فوقهما من استهلاك العبد واندراجه فى الحقيقة : فقر وضر .

---

(١) وفى نسخة عما يجرى من ابنه .

(٢) وفى نسخة أخرى « أو رمز » .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت الحسين بن يحيى يقول : سمعت جعفر بن محمد يقول : سمعت الجنيد يقول : الخوف من الله يقبضنى ، والرجاء منه : يبسطنى . والحقيقة : تجمعنى . والحق : يفرقنى ، إذا قبضنى بالخوف أفنانى عنى ، وإذا بسطنى بالرجاء ردنى على إذا جمعنى بالحقيقة أحضرنى وإذا فرقنى بالحق أشهدنى غيرى ، فغطانى عنه ، فهو تعالى فى ذلك كله محركى غير ممسكى ، وموحشى غير مؤنسى ، فأنا بحضورى أذوق طعم وجودى ، فليتهَ أفنانى عنى فمتعنى ، أو غيبنى عنى فروحنى .

ومن ذلك :

الهيبة والأنس

وهما : فوق القبض والبسط .

فكما أن القبض : فوق رتبة الخوف .

والبسط : فوق منزلة الرجاء .

فالهيبة : أعلى من القبض والأنس أتم من البسط ، وحق الهيبة الغيبة ، فكل هائب غائب .

ثم الهائبون : يتفاوتون فى الهيبة على حسب تباينهم فى الغيبة فمنهم .. ومنهم[١] وحق الأنس : صحو بحق ، فكل مستأنس : صاح ثم[٢] يتباينون حسب تباينهم فى الشرب[٣] .

ولهذا قالوا : أدنى محل الأنس : أنه لو طرح فى لظى لم يتكدر عليه أُنسه قال الجنيد ، رحمه الله : كنت أسمع السرىَّ يقول :

يبلغ العبد إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر .

وكان فى قلبى منه شىء ، حتى بان لى أن الأمر كذلك .

وحكى أبى عن مقاتل العكى أنه قال :

دخلت على الشبلى ؛ وهو ينتف الشَّعر من حاجبه بمنقاش ، فقلت :

ياسيدى ، أنت تفعل هذا بنفسك ! ويعود ألمه إلى قلبى !!

فقال : ويلك ، الحقيقة ظاهرة لى ولست أطيقها : فهو ذا[٤] ، فأنا أدخل الألم على نفسى ؛ لعلى أحس به ، فيستتر عنى ، فلست أجد الألم ، وليس يستترعنى[٥] ، وليس لى به طاقة ؛

وحال الهيبة والأنس ، وإن جلتا ، فأهل الحقيقة يعدونها : نقصاً لتضمنها تغير العبد فإن أهل التمكين سمت أحوالهم عن التغير ، وهم محو فى وجود العين[٦] ، فلا هيبة لهم ولا أنس ، ولا علم ولا حس .

---

(١) أى فمنهم تطول غيبته ومنهم من تقصر على حسب هيبته .

(٢) أى المستأنسون .

(٣) الحظ .

(٤) أى : فالسبب هذا .

(٥) أى ألم الحقيقة .

(٦) أى الحق أى محيت منهم الذوات والصفات فى ذات الحق تعالى .

والحكاية معروفة عن أبى سعيد الخرَّاز ، أنه قال :

تهت فى البادية مرة ، فكنت أقول :

أتيه فلا أدرى من التيه من أنا   سوى ما يقول الناس فى وفى جنسى
أتيـه عـلى جن البـلاد وإنسهـا   فإن لم أجد شخصاً أتيه على نفسى

قال فسمعت هاتفاً يهتف بى ، ويقول :

أيا من يرى الأسباب أعلى وجوده   ويفــرح بـالتيــه الــدنى وبــالأنس
فلو كنت من أهل الوجـود حقيقة   لغبت عن الأكوان والعرش والكرسى
وكنت بــلا حــال مــع الله واقفـاً   تصـان عن التـذكـار للجن والإنس

وإنما يرتقى العبد عن هذه الحالة بالوجود .

ومن ذلك :

التواجد ، والوجد ، والوجود

فالتواجد : استدعاء[١] الوجد بضرب اختيار ، وليس لصاحبه كمال الوجد ؛ إذ لو كان لكان واجداً ، وباب التفاعل أكثره على إظهار الصفة ، وليست كذلك .

قال الشاعر :

إذا تخازرت ، وما بى من خزر[٢]
ثم كسرت العين من غير ما عور

فقوم قالوا : التواجد غير مسلم لصاحبه ، لما يتضمن من التكلف ويبعد عن التحقيق .

وقوم قالوا : إنه مسلَّم للفقراء المجرّدين ، الذين ترصَّدوا لوجدان هذه المعانى ، وأصلهم ، خبرُ الرسول ﷺ : « ابكوا ، فإن لم تبكوا ، فتباكوا » ، والحكاية المعروفة لأبى محمد الجريرى ، رحمه الله ، أنه قال :

كنت عند الجنيد ، وهناك ابن مسروق وغيره ، وثمّ قوال ، فقام ابن مسروق وغيره .. والجنيد ساكن ، فقلت :

يا سيدى ، مالك فى السَّماع شىء ؟!

قال الجنيد :

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ، وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ[٣] ﴾ ثم قال :

وأنت يا أبا محمد ، مالك فى السماع شىء ؟

فقلت : يا سيدى ، أنا إذا حضرت موضعًا فيه سماع وهناك محتشم[٤] أمسكت على نفسى وجدى ، فإذا خلوت أرسلت وجدى ، فتواجدْت .

فأطلق فى هذه الحكاية « التواجد » ، ولم ينكر عليه الجنيد .

---

(١) استدعاء : أى طلب واكتساب .
(٢) خزر : صغر العين أو ضيقها .
(٣) آية ٨٨ من سورة النمل .
(٤) أى مستحيا منه .

سمعت الأستاذ أبا عليّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

لما راعى أبو محمد ، أدب الأكابر فى حال السماع ، حفظ الله عليه وقته ، ببركات الأدب ، حتى يقول : أمسكت على نفسى وجدى فإذا خلوت أرسلت وجدى فتواجد ؛ لأنه لا يمكن إرسال الوجد ، إذا شئت ، بعد ذهاب الوقت وغلباته .

ولكنه لما كان صادقاً فى مراعاة حرمة الشيوخ ، حفظ الله تعالى عليه وقته ، حتى أرسل وجده عند الخلوة .

فالتواجد : ابتداء الوجد على الوصف الذى جرى ذكره ، وبعد هذا الوجد[١] .

والوجد : ما يصادف قلبك ، ويرد عليك بلا تعمد وتكلف ولهذا قال المشايخ :

الوجد : المصادفة[٢] والمواجيد[٣] : ثمرات الأوراد[٤] .

فكل من ازدادت وظائفه ازدادت من الله لطائفه .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

الواردات : من حيث الأوراد فمن لا ورد له بظاهره لا ورد له فى سرائره ، وكل وجد فيه من صاحبه شيء ، فليس بوجد .

وكما أن ما يتكلفه العبد من معاملات ظاهرة يوجب له حلاوة الطاعات ، فما ينازله[٥] العبد من أحكام باطنه يوجب له المواجيد .

فالحلاوات ثمرات المعاملات والمواجيد : نتائج المنازلات .

اما الوجود : فهو بعد الارتقاء عن الوجد .

ولا يكون وجود الحق ، إلا بعد خمود البشرية[٦] ، لأنه لا يكون للبشرية بقاء عند ظهور سلطان الحقيقة .

---

(١) أى وبعد حصول هذا يحصل الوجد .

(٢) يشير بذلك إلى أنه غير مكتسب بل هو من تفضلات الحق تعالى عن العبد .

(٣) جمع وجد .

(٤) المراد بالأوراد : وظائف الأعمال الموافقة للعلوم الشرعية .

(٥) ينتقل .

(٦) أى غيبة العبد عن إحساسه بها .

وهذا معنى قول أبي الحسين النورى :

أنا منذ عشرين سنة بين الوجد والفقد ؛ أى : إذا وجدت ربى فقدت قلبى ، وإذا وجدت قلبى فقدت ربى .

وهذا معنى قول الجنيد :

علم التوحيد : مباين لوجوده[١] ، ووجوده مباين لعلمه[٢] .

وفى هذا المعنى أنشدوا :

وجـودى أن أغيب عن الوجـود ‏ ‏ ‏ بمـا يبـدو عـلىَّ من الشهـود

فالتواجد : بداية . والوجود : نهاية والوجد واسطة بين البداية والنهاية .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول :

التواجد يوجب استيعاب العبد .

والوجد : يوجب استغراق العبد .

والوجود يوجب استهلاك العبد .

فهو كمن شهد البحر ، ثم ركب البحر ، ثم غرق فى البحر .

وترتيب هذا الأمر[٣] : قصود ، ثم ورود ، ثم شهود ، ثم جمود ، ثم خمود . وبمقدار الوجود يحصل الخمود ، وصاحب الوجود له : صحو ، ومحو .

فحال صحوه : بقاؤه بالحق ، وحال محوه : فناؤه بالحق .

وهاتان الحالتان أبداً متعاقبتان عليه :

فإذا غلب عليه الصَّحو بالحق ، فيه يصول ، وبه يقول .

قال عليه السلام ، فيما أخبر عن الحق « فبى يسمع ، وبى يبصر » .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول :

وقف رجل على حلقة الشبلى ، فسأله :

---

(١) أى لوجود الوحيد .

(٢) والمقصود أن العبد يكون عالما بالتوحيد بالاستدلال بالآثار ، ولا يكون واجداً له ، لأن وجوده لا يبقى للعبد معه إحساس بنفسه فضلاً عن علمه به واستدلاله عليه .

(٣) وهو الانتقال من حال إلى حال .

هل تظهر آثار صحة الوجود على الواجدين ؟؟

فقال : نعم : نور يزهر[١] مقارناً[٢] لنيران الاشتياق ، فتلوح على الهياكل[٣] آثارها كما قال ابن المعتز :

وأمطر الكأس ماء من أبارقها
فأنبت الدر فى أرض من الذهب
وسبح القوم لما أن رأوا عجباً
نوراً من الماء فى نار من العنب
سلافة[٤] ورثتها عاد عن إرم
كانت ذخيرة كسرى عن أب فأب

وقيل لأبى بكر الدقى :

إن جهماً الدقىَّ أخذ شجرة بيده فى حال السماع فى ثوراته ، فقلعها من أصلها : فاجتمعا فى دعوة[٥] ، وكان الدقى كفَّ بصرهُ ، فقام الدقى يدور فى حال هيجانه فقال الدقى : إذا قرب منىِّ أرونيه .

وكان الدقى ضعيفاً ، فمر به ، فلما قرب منه ، قالوا له : هذا هو .

فأخذ الدقى ساق جهم فوقفه ، فلم يمكنه أن يتحرك .

فقال جهم : أيها ، الشيخ ، التوبة .. التوبة !! فخلاه :

قال الأستاذ الإمام ، أدام الله جماله :

فكان ثوران جهم فى حق ،.وإمساك الدقى بساقه بحق ، ولما علم جهم أن حال الدقى فوق حاله رجع إلى الإنصاف واستسلم وكذا من كان بحق لا يستعصى عليه شىء ، فأما[٦] إذا كان الغالب عليه المحو فلا علم ، ولا عقل ، ولا فهم ؛ ولا حس .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يذكر بإسناده ان أبا عقال المغربى : أقام بمكة أربع سنين لم يأكل ، ولم يشرب ، إلى أن مات .

ودخل بعض الفقراء على أبى عقال ، فقال له : سلام عليكم .

---

(١) يشرق .
(٢) مترتباً .
(٣) الأشخاص .
(٤) خمر .
(٥) وليمة .
(٦) وفى نسخة وأما .

فقال له أبو عقال : وعليكم السلام فقال الرجل : أنا فلان فقال أبو عقال : أنت فلان ، كيف أنت ؟ وكيف حالك ؟ : وغاب عن حالته .

قال هذا الرجل ، فقلت له : سلام عليكم .

فقال : وعليكم السلام وكأنه لم يرنى قط .

ففعلت مثل هذا غير مرة ، فعلمت أن الرجل غائب ، فتركته ، وخرجت من عنده .

سمعت محمد بن الحسين ، يقول : سمعت عمر بن محمد بن أحمد يقول : سمعت امرأة أبي عبد الله النروغندى تقول .

لما كانت أيام المجاعة ، والناس يموتون من الجوع ، دخل أبو عبد الله النروغندى بيته ، فرأى فى بيته مقدار منوين[1] حنطة ، فقال : الناس يموتون من الجوع ، وفى بيتى حنطة !!

فخولط فى عقله ، فما كان يفيق إلا فى أوقات الصلاة يصلى الفريضة ثم يعود إلى حالته ، فلم يزلَ كذلك إلى أن مات .

دلَّت هذه الحكاية على أن هذا الرجل كان محفوظاً عليه آداب الشريعة عند غلبات أحكام الحقيقة ، وهذا هو صفة أهل الحقيقة ، ثم كان سبب غيبته عن تمييزه : شفقته على المسلمين ، وهذا أقوى سمة لتحققه فى حاله .

---

(١) منوين : تثنية منا : وهو مكيال مقداره رطلان .

ومن ذلك :

الجمع والفرق

لفظ « الجمع والتفرقة » يجرى فى كلامهم كثيراً .

وكان الأستاذ أبو على الدقاق يقول :

الفرق : ما نسب إليك .

والجمع : ما سلب عنك .

ومعناه : أن ما يكون كسباً للعبد ، من إقامة العبودية ، وما يليق بأحوال البشرية ، فهو : فرق .

وما يكون من قبل الحق ، من إبداء معان ، وإسداء لطف وإحسان فهو : جمع هذا أدنى أحوالهم فى الجمع والفرق ، لأنه من شهود الأفعال .

فمن أشهده الحق – سبحانه – أفعاله عن طاعاته ومخالفاته فهو : عبد بوصف التفرقة[1] ، ومن أشهده الحق – سبحانه – ما يوليه : من أفعال نفسه سبحانه ، فهو : عبد بشاهد الجمع .

فإثبات الخلق من باب التفرقة ، وإثبات الحق من نعت الجمع .

ولا بد للعبد من الجمع والفرق ، فإن من لا تفرقة[2] له لا عبودية له ، ومن لا جمع له لا معرفة له ، فقوله : « إياك نعبد » إشارة إلى الفرق . وقوله : « وإياك نستعين » إشارة إلى الجمع .

وإذا ما خاطب العبد الحق سبحانه ، بلسان نجواه : إما سائلًا ، أو داعياً ، أو مثنياً ، أو شاكراً ، أو متنصلًا[3] ، أو مبتهلًا ؛ قام فى محل التفرقة .

وإذا أصغى بسره إلى ما يناجيه به مولاه ، واستمع بقلبه ما يخاطبه به ، فيما ناداه ، أو ناجاه ، أو عرفه ، أو لوح لقلبه وأراده ، فهو يشاهد الجمع .

---

(١) التفرقة بين العابد والمعبود .

(٢) وجه التفرقة والجمع على ما ذكره للعروسى فى حاشيته : فى قوله « نعبد » الاستقلال ؛ اعتباراً بظاهر الحال . وفى قوله « نستعين » الرجوع إلى قوة الكبير المتعال .

(٣) متنصلا من ذنبه .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

أنشد قوال بين يدى الأستاذ أبى سهل الصعلوكى ، رحمه الله :

جعلت تنزهى نظرى إليك .

وكان أبو القاسم النصراباذى ، رحمه الله ، حاضراً ، فقال الأستاذ أبو سهل :

جعلت ، بنصب التاء[١] . وقال النصر اباذى : بل جعلت بضم التاء :

فقال الأستاذ أبو سهل : أليس عين الجمع أتم ؟[٢] فسكت النصراباذى .

وسمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى أيضاً يحكى هذه الحكاية على هذا الوجه .

ومعنى : هذا أن من قال « جعلت » بضم التاء يكون إخباراً عن حال نفسه ، فكأن العبد يقول هذا من عنده . وإذا قال « جعلت » بالفتح فكأنه يتبرأ من أن يكون ذلك يتكلفه ، بل يخاطب مولاه فيقول :

أنت الذى خصصتنى بهذا ، لا أنا بتكلفى .

فالأول على خطر[٣] الدعوى ، والثانى بوصف التبرى من الحول ، والإقرار بالفضل والطول : والفرق بين من يقول بجهدى أعبدك . وبين من يقول : بفضلك ولطفك أشهدك .

---

(١) وفى نسخ ، وهو أصوب ، بفتح التاء .

(٢) لأن نسبة الأفعال إلى الله أتم من نسبتها إلى العبد .

(٣) أى المخاطرة فيها بنفسه حيث نسب لنفسه حالاً أو مقاماً .

ومن ذلك :

جمع الجمع

وجمع الجمع : فوق هذا .

يختلف الناس فى هذه الجملة على حسب تباين أحوالهم ، وتفاوت درجاتهم : فمن أثبت نفسه ، وأثبت الخلق ، ولكن شاهد الكل قائماً بالحق ، فهذا هو : جمع .

وإذا كان مختطفاً عن شهود الخلق ، مصطلماً[١] عن نفسه ، مأخوذاً بالكلية عن الإحساس بكلِّ غير ، بما ظهر ، واستولى من سلطان الحقيقة ، فذاك جمع الجمع[٢] .

فالتفرقة : شهود الأغيار لله عزَّ وجلَّ .

والجمع : شهود الأغيار بالله .

وجمع الجمع : الاستهلاك بالكلية ، وفناء الإحساس بما سوى الله عز وجل عند غلبات الحقيقة .

وبعد هذا حالة عزيزة يسميها القوم :

الفرق الثانى

وهو أن يرد للعبد إلى الصحو عند أوقات أداء الفرائض ، ليجرى عليه القيام بالفرائض فى أوقاتها ، فيكون رجوعًا لله تعالى لا للعبد بالعبد :

فالعبد يطالع نفسه ، فى هذه الحالة ، فى تصريف الحق سبحانه ، يشهد مبدىء ذاته وعينه بقدرته ، ومجرى أفعاله وأحواله عليه ، بعلمه ومشيئته .

وأشار بعضهم بلفظ « الجمع والفرق » إلى تصريف الحق جميع الخلق .

فجمع الكل فى التقليب والتصريف : من حيث إنه منشىء ذواتهم ومجرى صفاتهم ، ثم فرقهم فى التنويع : ففريقاً أسعدهم ، وفريقاً أبعدهم وأشقاهم ، وفريقاً هداهم ، وفريقاً أضلهم

---

(١) غافلا ، والهاً .

(٢) وهو لا يتم التحقق به لأحد إلا بعد الفناء عن الأفعال والصفات والذات .

وأعماهم ، وفريقاً حجبهم عنه ، وفريقاً جذبهم إليه ، وفريقاً آنسهم بوصله ، وفريقاً آيسهم من رحمته . وفريقاً أكرمهم بتوفيقه ، وفريقاً اصطلمهم[1] عند رومهم لتحقيقه ، وفريقاً أصحاهم ، وفريقاً محاهم وفريقاً قربهم . وفريقا غيبهم وفريقاً أدناهم وأحضرهم ، ثم أسقاهم فأسكرهم . وفريقاً أشقاهم وأخرهم ثم أقصاهم وهجرهم .

وأنواع أفعاله لا يحيط بها حصر ، ولا يأتى على تفصيلها شرح ولا ذكر وأنشدوا للجنيد ، رحمه الله ؛ فى معنى الجمع والتفرقة :

وتحققتك فى سرى فناجاك لسانى
فاجتمعنا لمعانى وافترقنا لمعانى
إن يكن غيبك التعظيم عن لحظ عيانى
فقد صيرك الوجد من الأحشاء دانى

وأنشدوا :

إذا ما بدا لى[2] تعاظمته   فأصدر[3] فى حال من لم يرد
جمعت وفرقت عنى به   ففرد التواصل مثنى العدد

---

(١) غيبهم .
(٢) أى ظهر لى نور الحق .
(٣) فأرجع .

ومن ذلك :

الفناء والبقاء

أشار القوم بالفناء : إلى سقوط الأوصاف المذمومة .

وأشاروا بالبقاء : إلى قيام الأوصاف المحمودة به .

وإذا كان العبد لا يخلو عن أحد هذين القسمين ، فمن المعلوم : أنه إذا لم يكن أحدُ القسمين كان القسمَ الآخر لا محالة ، فمن فنى عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة ، ومن غلبت عليه الخصال المذمومة استترت عنه الصفات المحمودة .

واعلم أن الذى يتصف به العبد : أفعال ، وأخلاق ، وأحوال .

فالأفعال : تصرفاته باختياره .

والأخلاق : جبلةٌ فيه ، ولكن تتغيَّر بمعالجته على مستمرِّ العادة .

والأحوال : ترد على العبد على وجه الابتداء ، لكن صفاؤها بعد زكاء الأعمال .

فهى كالأخلاق من هذا الوجه ، لأن العبد إذا نازل[1] الأخلاق بقلبه فينفى بجهده سفسافها[2] ، مَنّ الله عليه بتحسين أخلاقه ، فكذلك إذا واظب على تزكية أعماله ، ببذل وُسعه من الله عليه بتصفية أحواله بل بتوفية أحواله .

فمن ترك مذمومَ أفعاله بلسان الشريعة يقال : إنه فنى عن شهواته .

فإذا فنى عن شهواته بقى بنيتّه وإخلاصه فى عبوديته .

ومن زَهد فى دنياه بقلبه ، يقال : فنى عن رغبته :

فإذا فنى عن رغبته فيها بقى بصدق إنابته .

ومن عالج أخلاقه ، فنفى عن قلبه الحسد والحقد ، والبخل ، والشح والغضب ، والكبر ، وأمثال هذا من رعونات النفس ، يقال : فنى عن سوء الخلق .

فإذا فنى عن سوء الخلق بقى بالفتوة والصدق .

---

(١) انتقل إليها .

(٢) حقيرها .

ومن شاهد جريان القدرة فى تصاريف الأحكام ، يقال : فنى عن حسبان الحدثان من الخلق فإذا فنى عن توهم الآثار من الأغيار بقى بصفات الحقِّ .

ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عيناً ولا أثرًا ؛ ولا رسماً ، ولا طللاً ؛ يقال : إنه فنى عن الخلق وبقى بالحقِّ .

ففناء العبد عن أفعاله الذميمة ، وأحواله الخسيسة : بعدم هذه الأفعال .

وفناؤه عن نفسه ، وعن الخلق : بزوال إحساسه بنفسه وبهم .

فإذا فنى عن الأفعال ، والأخلاق ، والأحوال ، فلا يجوز أن يكون ما فنى عنه من ذلك موجوداً .

وإذا قيل : فنى عن نفسه ؛ وعن الخلق ، فنفسه موجودة ، والخلق موجودون . ولكنه لا علم له بهم ولا به ، ولا إحساس ، ولا خبر ، فتكون نفسه موجودة ، والخلق موجودين ولكنه غافل عن نفسه وعن الخلق أجمعين ، غير محس بنفسه وبالخلق .

وقد ترى الرجل يدخل على ذى سلطان ؛ أو محتشم ، فيُذهل عن نفسه ، وعن أهل مجلسه هيبة ، وربما يذهل عن ذلك المحتشم ، حتى إذا سئل بعد خروجه من عنده ، عن أهل مجلسه وهيآت ذلك الصدر[1] ، وهيآت نفسه ، لم يمكنه الإخبار عن شىء .

قال الله تعالى : ﴿ فلما رأينه أكبرنه ، وقطعن أيديهن ﴾ .

لم يجدن عند لقاء يوسف عليه السلام ، على الوهلة[2] ألم قطع الأيدى ، وهن أضعف الناس ، وقلن : « ماهذا بشراً » - ولقد كان بشراً - .

وقلن : « إن هذا إلا ملك كريم » - ولم يكن ملكاً -

فهذا تغافل مخلوق عن أحواله عند لقاء مخلوق ، فما ظنك بمن تكاشف[3] بشهود الحق سبحانه ؟!

فلو تغافل عن إحساسه بنفسه وأبناء جنسه ، فأى أعجوبة فيه ؟!

فمن فنى عن جهله بقى بعلمه .. ومن فنى عن شهوته بقى بإنابته .. ومن فنى عن رغبته بقى بزهادته .. ومن فنى عن منيته[4] بقى بإرادته[5] تعالى .

---

(١) أى المحتشم . وفى نسخة « وهيئة » .
(٢) البغته .
(٣) أى أزيلت عند الحجب .
(٤) طلبته .
(٥) وفى نسخة (بإرادته) فقط .

وكذلك القول فى جميع صفاته :

فإذا فنى العبد عن صفته بما جرى ذكره ، يرتقى عن ذلك بفنائه عن رؤية فنائه وإلى هذا أشار قائلهم :

فقوم تاه فى أرض بفقر   وقوم تاه فى ميدان حبه
فأفَنوا ثم أفنوا ثم أفنوا   وأبقوا بالبقاء من قرب ربه

فالأول أفناه[1] عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق .

ثم فناؤه عن صفات الحق بشهودة الحق .

ثم فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه فى وجود الحق .

---

(١) وفى نسخة (فناؤه) .

ومن ذلك :

الغيبة والحضور

فالغيبة : غيبة القلب عن علم ما يجرى من أحوال الخلق ، لاشتغال الحس بما ورد عليه ، ثم قد يغيب عن إحساسه بنفسه وغيره ، بوارد من تذكر ثواب ، أو تفكر عقاب .

كما روى أن : الربيع بن خيثم كان يذهب إلى ابن مسعود ، رضى الله عنه ، فمر بحانوت حدَّاد ، فرأى الحديدة المحماة فى الكير ، فغشى عليه .. ولم يفق إلى الغد .

فلما أفاق ، سئل عن ذلك ، فقال :

تذكرت كون أهل النار فى النار :

فهذه غيبة زادت على حدها ، حتى صارت غشية .

وروى عن على بن الحسين : أنه كان فى سجوده ، فوقع حريق فى داره ، فلم ينصرف عن صلاته ، فسئل عن حاله ، فقال :

ألهتنى النار الكبرى عن هذه النار .

وربما تكون الغيبة عن إحساسه بمعنى[1] يكاشف به من الحق سبحانه وتعالى :

ثم إنهم[2] مختلفون فى ذلك على حسب أحوالهم ، ومن المشهور :

أن ابتداء حال أبى حفص النيسابورى الحداد فى ترك الحرفة ، أنه كان على حانوته ، فقرأ قارئ آية من القرآن ، فورد على قلب أبى حفص وارد تغافل عن إحساسه ، فأدخل يده فى النار ، وأخرج الحديدة المحماة بيده ، فرأى تلميذا له ذلك ، فقال : يا أستاذ ، ما هذا ؟

فنظر أبو حفص إلى ما ظهر عليه ، فترك الحرفة ؛ وقام من حانوته .

وكان الجنيد قاعداً ؛ وعنده امرأته ؛ فدخل عليه الشبلى ؛ فأرادت امرأته أن تستتر ؛ فقال لها الجنيد : لا خبر للشبلىِّ عنك ؛ فاقعدى .

---

(١) أى بوارد .

(٢) أى من يرد عليهم الوارد .

فلم يزل يكلمه الجنيد ؛ حتى بكى الشبلى ؛ فلما أخذ الشبلى فى البكاء قال الجنيد لامرأته : استترى ، فقد أفاق الشبلى من غيبته .

سمعت أبا نصر المؤذن بنيسابور ؛ وكان رجلاً صالحاً ، قال :

كنت أقرأ القرآن فى مجلس الأستاذ أبى علىٍّ الدَّقاق بنيسابور ؛ وقت كونه هناك وكان يتكلم فى الحج كثيراً ، فأثَّر فى قلبى كلامه ، فخرجت إلى الحج تلك السنة ؛ وتركت الحانوت والحرفة ؛ وكان الأستاذ أبو على رحمه الله ؛ خرج إلى الحج أيضاً فى تلك السنة . وكنت مدَّة كونه بنيسابور أخدمه . وأواظب على القراءة فى مجلسه فرأيته يوماً فى البادية : تطهر .. ونسى قمقمة كانت بيده .. فحملتها ، فلما عاد إلى رحله وضعتها عنده فقال : جزاك الله خيراً . حيث حملت هذا .

ثم نظر إلىَّ طويلاً كأنه لم يرَن قط : وقال : رأيتك مرة . فمن أنت ؟

فقلت : المستغاث بالله !! صحبتك مدة .. وخرجت عن مسكنى ومالى بسببك ، وتقطعت فى المفازة بك والساعة تقول رأيتك مرة !!

وأما الحضور :

فقد يكون حاضراً بالحق ؛ لأنه إذا غاب عن الخلق حضر بالحق ، على معنى أنه يكون كأنه حاضر ، وذلك لاستيلاء ذكر الحق على قلبه ، فهو حاضر بقلبه بين يدى ربه تعالى ؛ فعلى حسب غيبته عن الحق يكون حضوره بالحق ، فإن غاب بالكلية كان الحضور على حسب الغيبة .

فإذا قيل : فلان . حاضر ، فمعناه أنه حاضر بقلبه لربه ، غير غافل عنه ، ولا ساهٍ ، مستديم لذكره . ثم يكون مكاشفاً فى حضوره على حسب رتبته بمعان يخصه الحق سبحانه وتعالى بها .

وقد يقال لرجوع العبد إلى إحساسه بأحوال نفسه ، وأحوال الخلق : إنه حضر أى رجع عن غيبته ، فهذا يكون حضوراً بخلق ، والأول حضوراً بحق .

وقد تختلف أحوالهم فى الغيبة . فمنهم من لا تمتد غيبته ، ومنهم من تدوم غيبته .

وقد حكى أن ذا النون المصرى بعث إنساناً من أصحابه إلى أبى يزيد ، لينقل إليه صفة أبى يزيد .. فلما جاء الرجل إلى بسطام . سأل عن دار أبى يزيد فدخل عليه فقال له أبو يزيد : ما تريد ؟

فقال أريد أبا يزيد .

فقال : من أبو يزيد ؟ وأين أبو يزيد ؟ أنا فى طلب أبى يزيد .

فخرج الرجل ، وقال : هذا مجنون .

ورجع الرجل إلى ذى النون . فأخبره بما شهده . فبكى ذو النون وقال : أخى أبو يزيد ذهب فى الذاهبين إلى الله .

ومن ذلك :

الصحو والسكر

فالصحو : رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة .

والسكر : غيبة بوارد قوى .

والسكر زيادة على الغيبة من وجه ، وذلك أن صاحب السكر قد يكون مبسوطا إذا لم يكن مستوفى[1] فى حال سكره ، وقد يسقط إخطار الأشياء عن قلبه فى حال سكره ، وتلك حال المتساكر ، الذى لم يستوفه الوارد ، فيكون للإحساس فيه مساغ ، وقد يقوى سكره حتى يزيد على الغيبة ، فربما يكون صاحب السكر أشد غيبة من صاحب الغيبة إذا قوى سكره ، وربما يكون صاحب الغيبة أتمَّ فى الغيبة من صاحب السكر ، إذا كان متساكراً غير مستوف .

والغيبة قد تكون للعباد ، بما يغلب على قلوبهم من موجب الرغبة والرهبة ومقتضيات الخوف والرجاء .

والسكر لا يكون إلا لأصحاب المواجيد .

فإذا كوشف العبد بنعت الجمال حصل السكر ، وطاب[2] الروح ، وهام القلب ، وفى معناه أنشدوا :

فصحوك من لفظى هو الوصل كله ... وسكرك من لحظى يبيح لك الشربا

فما ملَّ ساقيها وما مل شارب ... عقار لحاظ كأسه يسكر اللبا

وأنشدوا :

فأسكر القوم دور كأس ... وكان سكرى من المدير

وأنشدوا :

لى سكرتان ، وللندمان واحدة ... شىء خصصت به من بينهم وحدى

وأنشدوا :

---

(١) بأن كان فيه بقية إدراك وفى نسخة . مستوفياً فى سكره .

(٢) وفى نسخة : وطرب .

سكران : سكر هوى وسكر مدامة فمتى يفيق فتى به سكران

واعلم أن الصحو على حسب السكر ، فمن كان سكره بحق ، كان صحوه بحق .

ومن كان سكره بحظ مشوباً ؛ كان صحوه بحظ[١] مصحوباً .

ومن كان محقا فى حاله[٢] كان محفوظاً فى سكره .

والسكر والصحو يشيران إلى طرف من التفرقة .

وإذا ظهر من سلطان الحقيقة علم[٣] فصفة العبد الثبور ، والقهر .

وفى معناه أنشدوا :

إذا طلع الصباح لنجم راح تساوى فيه سكران وصاح

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ، وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ .

هذا[٤] مع رسالته وجلالة قدره خر صعقا ، وهذا[٥] مع صلابته ، وقوته ، صار دكاً متكسراً .

والعبد فى حال سكره بشاهد الحال .

وفى صحوه بشاهد العلم .

إلا أنه فى حال سكره محفوظ[٦] لا بتكلفه :

وفى حال صحوه متحفظ بتصرفه .

والصحو والسكر بعد الذوق والشرب .

---

(١) وفى نسخة . بحظ صحيح .

(٢) أى فى حال صحوه .

(٣) علامة ، وفى نسخة . علم أن صفة .

(٤) أى موسى عليه السلام .

(٥) أى الجبل .

(٦) أى محفوظ بالله .

ومن ذلك :

الذوق والشرب

ومن جملة ما يجرى فى كلامهم : الذوق ، والشرب .

ويعبرون بذلك عما يجدونه من ثمرات التجلى ، ونتائج الكشوفات ، وبوارد الواردات .

وأول ذلك : الذوق ، ثم الشرب ، ثم الريُّ .

فصفاءِ معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعانى .

ووفاء منازلاتهم يوجب لهم الشرب .

ودوام مواصلاتهم يقتضى لهم الريَّ .

فصاحب الذوق متساكر[1] ، وصاحب الشرب سكران ، وصاحب الريِّ صاح .

ومن قوى حبه تسرمد[2] شربه ، فإذا دامت به تلك الصفة لم يورثه الشرب سكراً ، فكان صاحياً بالحق ، فانياً عن كل حظ : لم يتأثر بما يرد عليه ، ولا يتغير عما هو به .

ومن صفا سره ، لم يتكدر عليه الشرب . ومن صار الشراب له غذاء لم يصبر عنه ، ولم يبق بدونه .

وأنشدوا :

وإنما الكأس رضاع بيننا ... فإذا لم نذقها لم نعش

وأنشدوا :

عجبت لمن يقول ذكرت ربى ... فهل أنسى فأذكر ما نسيت ؟

شربت الحبَّ كأساً بعد كأس ... فما نفد الشراب ولا رويتُ

ويقال : كتب يحيى بن معاذ إلى أبى يزيد البسطامى :

« ها هنا من شرب من كأس[3] المحبة لم يظمأ بعده » .

---

(١) وهو من بقى فيه بقية شعور بماله من الأحوال .

(٢) دام .

(٣) وفى نسخة . من شرب كأساً من المحبة .

فكتب إليه أبو يزيد :

عجبت من ضعف حالك !! هاهنا من يحتسى بحار الكون وهو فاغر فاه يستزيد .

واعلم أن كاسات القرب تبدو من الغيب ، ولاتدار إلا على أسرار معتقة ، وأرواح عن رقق الأشياء محررة .

ومن ذلك :

المحو والإثبات

المحو : رفع أوصاف العادة :

والإثبات : إقامة أحكام العبادة .

فمن نفى عن أحواله الخصال الذميمة ، وأتى بدلها بالأفعال والأحوال الحميدة ، فهو صاحب محو وإثبات .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول : قال بعض المشايخ لواحد : إيش تمحو ؟ وإيش تثبت ؟

فسكت الرجل !!

فقال : أما علمت أن الوقت محو وإثبات ، إذ من لا محو له ، ولا إثبات ، فهو معطل ، مهمل .

وينقسم إلى محو الزلة عن الظواهر ، ومحو الغفلة عن الضمائر ، ومحو العلة عن السرائر ، ففى محو الزلة : إثبات المعاملات ؛ وفى محو الغفلة : إثبات المنازلات .

وفى محو العلة إثبات المواصلات .

هذا محو وإثبات بشرط العبودية .

وأما حقيقة المحو والإثبات ، فصادران عن القدرة : فالمحو : ما ستره الحق ونفاه والإثبات ما أظهره الحق وأبداه .

والمحو والإثبات مقصوران على المشيئة . قال الله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت » .

قيل : يمحو عن قلوب العارفين ذكر غير الله تعالى ، ويثبت على ألسنة المريدين ذكر الله ، ومحو الحق لكل أحد وإثباتُه على ما يليق بحاله .

ومن محاه الحق سبحانه عن مشاهدة[1] ، أثبته[2] بحق حقه[3] .

---

(١) أى مشاهدته لنفسه وأفعاله .

(٢) حققه .

(٣) أى جعل حالة الوجود بواسطة فنائه ، بحق الحقيقة : أى بغلبة مشاهدة أنوار الحقيقة فيتم له الوجود بها .

ومن محاه الحق عن إثباته به ردَّه إلى شهود الأغيار ؛ وأثبته فى أودية التفرقة .

وقال رجل للشبلىّ رحمه الله :

مالى أراك قلقاً ، أليس هو معك ، وأنت معه ؟

فقال الشبلى :

لو كنت أنا معه كنت أنا ، ولكنى محو فيما هو .

والمحق فوق المحو ؛ لأن المحو يبقى أثراً ، والمحقُ لا يبقى أثراً .

وغاية همة القوم أن يمحقهم الحق عن شاهدهم ، ثم لا يردَّهم إليهم بعدما محقهم عنهم .

ومن ذلك :

الستر والتجلِّ

العوام[1] فى غطاء الستر[2] ، والخواص فى دوام التجلى .

وفى الخبر : « إن الله إذا تجلى لشىء خشع له » .

فصاحب الستر ، بوصف شهوده ، وصاحب التجلى أبداً ، بنعت خشوعه .

والستر للعوام عقوبة ، وللخواص رحمة ، إذ لولا أنه يستر عليهم[3] ما يكاشفهم به ، لتلاشوا عند سلطان الحقيقة : ولكنه كما يظهر لهم ، يستر عليهم .

سمعت منصور المغربىَّ يقول :

وافى بعض الفقراء حيا من أحياء العرب ، فأضافه شاب ، فبينا الشاب فى خدمة هذا الفقير إذ غشى عليه ، فسأل الفقير عن حاله ، فقالوا :

له بنت عم ، وقد علقها[4] ، فمشت فى خيمتها ، فرأى الشاب غبار ذيلها ، فغشى عليه .

فمضى الفقير إلى باب الخيمة ، وقال :

إن للغريب فيكم حرمة وذماماً ، وقد جئتُ مستشفعًا إليك فى أمر هذا الشاب ، فتعطفى عليه فيما هو به من هواك .

فقالت : سبحان الله ، أنت سليم القلب ، إنه لا يطيق شهود غبارَ ذيلى ، فكيف يطيق صحبتى .؟

وعوامُّ هذه الطائفة عيشهم فى التجلِّ ، وبلاؤهم فى الستر .

وأما الخواص ، فهم بين طيش وعيش[5] ، لأنهم إذا تجلى لهم طاشوا ، وإذا ستر عليهم ردوا إلى الحظ فعاشوا .

---

(١) أى من الصوفية .

(٢) بأن يخفى الله عنهم أحوالهم ، ليدوموا على جدهم واجتهادهم فى عباداتهم .

(٣) بمعنى عنهم .

(٤) تعلق قلبه بها .

(٥) بين سكر وصحو .

وقيل : إنما قال الحق تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى ﴾ ، ليستر عليه ببعض ما يعلله[١] به بعض ما أثر فيه من المكاشفة بفجأة السماع .

وقال ﷺ : « إنه ليغان[٢] على قلبى حتى أستغفر الله فى اليوم سبعين مرة » .

والاستغفار : طلب الستر ، لأن الغفر : هو الستر ، ومنه غفر الثوب ، والمغفر ، وغيره :

فكأنه أخبر أنه يطلب الستر على قلبه عند سطوات الحقيقة ، إذ الخلق لا بقاء لهم مع وجود الحق ، وفى الخبر : « لو كشف[٣] عن وجهه[٤] لأحرقت سبحات[٥] وجهه ما أدرك بصره »[٦] .

---

(١) يلاطفه .

(٢) ليغطى .

(٣) أى للعبد .

(٤) أى وجه الله .

(٥) أى أنوار عظمة الله وجلاله .

(٦) أى أن العبد - كما قال الشيخ زكريا الأنصارى - لا يطيق رؤية الحق تعالى ولا كمال جلاله ؛ وإنما يكشف لكل عبد من رؤيته فى الدنيا ما تقوى عليه بصيرته وليس المراد بقولهم « المكاشفة » و « المشاهدة » ونحوهما من الألفاظ : معاينة الذات حقيقة ، فإن ذلك لا يقع فى الدنيا ولا فى الآخرة على الوجه المعهود .

ومن ذلك :

المحاضرة ، والمكاشفة ، والمشاهدة

المحاضرة ابتداءً[1] ، ثم المكاشفة ، ثم المشاهدة .

فالمحاضرة : حضور القلب ، وقد يكون بتواتر البرهان ، وهو بعدُ وراء الستر[2] ، وإن كان حاضراً باستيلاء سلطان الذكر .

ثم بعده . المكاشفة : وهو حضوره بنعت البيان غير مفتقر فى هذه الحالة إلى تأملٌ الدليل ، وتطلب السبيل ، ولا مستجير[3] من دواعى الريب . ولا محجوب من نعت الغيب .

ثم المشاهدة : وهى حضور الحق من غير بقاء تهمة[4] .

فإذا أصحت سماء السِّر عن غيوم الستر ، فشمس الشهود مشرقة عن برج الشرف . وحق المشاهدة ما قاله الجنيد ، رحمه الله :

وجود الحق مع فقدانك[5] :

فصاحب المحاضرة مربوط بآياته ، وصاحب المكاشفة مبسوط بصفاته :

وصاحب المشاهدة ملقى بذاته ، وصاحبُ المحاضرة يهديه عقله ، وصاحب المكاشفة يدنيه علمه ، وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته .

ولم نرد فى بيان تحقيق المشاهدة أحد على ما قاله عمرو بن عثمان المكى رحمه الله .

ومعنى ما قاله : أنه تتوالى أنوار التجلىٍّ على قلبه من غير أن يتخللها ستر وانقطاع كما لو قُدر اتصال البروق ، فكما أن الليلة الظلماء بتوالى البروق فيها ، واتصالها ، إذا قدرت تصير فى ضوء النهار ، فكذلك القلب إذا دام به دوام التجلى مَتع[6] نهاره فلا ليل .

وأنشدوا :

ليلى بوجهك مشرق ... وظلامه فى الناس سارى

---

(١) أى أول المراتب .

(٢) الحجاب .

(٣) أى : مستعيذ .

(٤) شبهة .

(٥) أى فنائك عما سواه .

(٦) أى طال .

والناس في سدف[1] الظلام ونحن في ضوء النهار

وقال النوري : لا يصح للعبد المشاهدة وقد بقي له عِرق قائم .

وقال : إذا طلع الصباح استغنى عن المصباح :

وتوهمَّ قوم أن المشاهدة تشير إلى طرف من التفرقة ، لأن باب المفاعلة في العربية بين اثنين . وهذا وهم من صاحبه . فإن في ظهور الحق سبحانه ، ثبور[2] الخلق وباب المفاعلة جملتها لا تقضي مشاركة الاثنين نحو : سافر ، وطارق النعل ، وأمثاله .

وأنشدوا :

فلما استبان الصبح أدرك[3] ضوؤه
بأنواره أنوار ضوء الكواكب

يجرعهم كأساً لو ابتلى[4] به اللظى
بتجريعة طارت كأسرع ذاهب

كأس ، أي كأس !! تصطلمهم عنهم ، وتفنيهم ، وتختطفهم منهم ، ولا تبقيهم .

كأس .. لا تبقى ولا تذر ، تمحوهم بالكلية ، ولا تبقى شظية من آثار البشرية .

كما قال قائلهم :

ساروا فلم يبق لارسم ولا أثر

---

(١) ظلمة .

(٢) هلاك .

(٣) وفي نسخة أدرج أي : غيب .

(٤) وفي نسخة : لو ابتليت لظى أي : جهنم .

ومن ذلك :

اللوائح ، والطوالع ، واللوامع

قال الأستاذ رضى الله عنه :

هذه الألفاظ متقاربة المعنى ، لا يكاد يحصل بينها كبير فرق . وهى من صفات أصحاب البدايات الصاعدين فى الترقى بالقلب ، فلم يدم لهم بعد ضياء شموس المعارف .

لكن الحق سبحانه وتعالى ، يؤتى رزق قلوبهم فى كل حين ، كما قال : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا[1] ﴾ ، فكلما أظلم عليهم سماءُ القلوب بسحاب الحظوظ سنح[2] لهم فيها لوائح الكشف وتلألأ لوامعُ القرب وهم فى زمان سترهم يرقبون فجأة اللوائح[3] .

فهم كما قال القائل :

يـأيها البـرق الـذى يلمـع   من أى أكناف السما تسطع

فتكون[4] أولا : لوائح ، ثم لوامع ، ثم طوالع :

فاللوائح كالبروق ، ما ظهرت حتى استترت ، كما قال القائل :

افتــرقنــا حــولاً فلما التقينــا   كــان تسليمـه عــلّى وداعــاً

وأنشدوا :

يـاذا الـذى زار ومـا زارا   كـأنـه مـقـتـبس نـاراً
مـر ببـاب الـدار مستعجـلاً   ما ضره لو دخل الـدارًا ؟

واللوامع : أظهر من اللوائح : ليس زوالها بتلك السرعة ، فقد تبقى اللوامع وقتين ، وثلاثة .

ولكن كما قالوا :

والعين باكية لم تَشْبع النظرا

---

(١) آية ٦٢ من سورة مريم .
(٢) ظهر .
(٣) ينتظرون مجىء اللوائح بغتة .
(٤) أى الأشياء التى تظهر لهم .

وكما قالوا :

لم تَرِد ماء وجهه العينُ إلا ... شرقت قبل ريها برقيب

فإذا لمعَ قطعك عنك ، وجمعك به ، لكن لم يسفر نور نهاره حتى كر عليه عساكر الليل ، فهؤلاء بين روح ونوح ؛ لأنهم بين كشف وستر .

كما قالوا :

فالليل يشملنا بفاضل برده ... والصبح يلحفنا رداء مذهبا

والطوالع : أبقى وقتاً ، وأقوى سلطانا ، وأدوم مكثاً ، وأذهب للظلمة وأنفى للتهمة ، لكنها موقوفة على خطر الأفول ، ليست برفيعة الأوج ، ولا بدائمة المكث ، ثم أوقات حصولها وشيكة الارتحال ، وأحوال أفولها طويلة الأذيال .

وهذه المعانى ، التى هى : اللوائح واللوامع والطوالع ، تختلف فى القضايا[١] ، فمنها ما إذا مات لم يبق عنها أثر[٢] ، كالشوارق إذا أفلت ، فكأنَّ الليل كان دائماً .

ومنها ما يبقى عنه أثر ، فإن زال رقمه[٣] بقى ألمه ، وإن غربت أنواره بقيت آثاره فصاحبه بعد سكون غلباته[٤] يعيش فى ضياء بركاته ، فإلى أن يلوح ثانيا يرجى[٥] وقته على انتظار عوده ، ويعيش بما وجد فى كونه[٦] .

---

(١) الأحكام .
(٢) والأولى أن يقول « عنه » .
(٣) أى أثره .
(٤) قلقه .
(٥) وفى نسخة يزجى : أى يدافع .
(٦) أى زمن وجوده .

ومن ذلك :

البواده والهجوم

البواده :

ما يفجأ قلبك من الغيب على سبيل الوهلة[1] ، إما موجب فرح ، وإما موجب ترح .

والهجوم :

ما يرد على القلب بقوةً الوقت ، من غير تصنع منك .

ويختلف فى الأنواع على حسب قوَّة الوارد وضعفه .

فمنهم من تغيره البواده ، وتصرفه الهواجم .

ومنهم من يكون فوق ما يفجؤه حالاً وقوة . أولئك سادات الوقت كما قيل :

لا تهتدى نوب[2] الزمان إليهم
وهم على الخطب الجليل لجام

---

(١) البغتة .

(٢) أحداثه . لجام : قوة وثبات .

ومن ذلك :

التلوين والتمكين

التلوين : صفة أرباب الأحوال .

التمكين : صفة أهل الحقائق .

فما دام العبد فى الطريق فهو صاحب تلوين ، لأنه يرتقى من حال إلى حال ، وينتقل من وصف إلى وصف ويخرج من مرحل[1] ويحصل فى مربع[2] ، فإذا وصل تمكن .

وأنشدوا :

مازلت أنزل فى ودادك منزلاً تتحير الألباب دون نزوله

وصاحب التلوين أبداً فى الزيادة وصاحب ، التمكين وَصل ثم اتَّصل .

وأمارة أنه اتَّصل : أنه بالكلية عن كليته بطل .

وقال بعض المشايخ :

انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بنفوسهم ، فإذا ظفروا بنفوسهم فقد وصلوا .

قال الأستاذ رحمه الله :

بريد انخناس أحكام البشرية ، واستيلاء سلطان الحقيقة ، فإذا دام للعبد هذه الحالة فهو صاحب تمكين .

كان الشيخ أبو عليٍّ الدَّقاق ، رحمه الله ، يقول :

كان موسى عليه السلام صاحب تلوين ، فرجع من سماع الكلام واحتاج إلى ستر وجهه ، لأنه أثر فيه الحال ، ونبينا ﷺ ، كان صاحب تمكين ، فرجع كما ذهب ، لأنه لم يؤثر فيه ما شاهده تلك الليلة .

وكان يستشهد على هذا بقصَّة يوسف عليه السلام : أن النسوة اللاتى رأين يوسف عليه السلام قطَّعن أيديهن لما ورد عليهن من شهود يوسف عليها السلام على وجه الفجأة . وامرأة

---

(١) مكان الرحيل .

(٢) محل الربيع .

العزيز كانت أتمَّ فى بلاء[1] يوسف منهن ، ثم لم تتغير عليها شعرة ذلك اليوم ، لأنها كانت صاحبة تمكين فى حديث يوسف عليه السلام .

قال الأستاذ :

واعلم ان التغير بما يرد على العبد يكون لأحد أمرين :

إمَّا لقوة الوارد ، أو لضعف صاحبه .

والسكون من صاحبه لأحد أمرين :

إمَّا لقوته ، أو لضعف الوارد عليه .

سمعت الأستاذ أبا علىٍّ الدَّقاق ، رحمه الله ، يقول :

أصول القوم فى جواز دوام التمكين تتخرج على وجهين :

أحدها : مالا سبيل إليه ، لأنه قال ﷺ : « لو بقيتم على ما كنتم عليه عندى لصافحتكم الملائكة »[2] ولأنه ﷺ قال : « لى وقت لا يسعنى فيه غير ربى عزَّ وجل » أخبر عن وقت مخصوص .

والوجه الثانى : أنه يصح دوام الأحوال ، لأن أهل الحقائق ارتقوا عن وصف التأثر بالطوارق ، والذى فى الخبر أنه قال : « لصافحتكم الملائكة » فلم يعلق الأمر فيه على أمر مستحيل ، ومصافحة الملائكة دون ما أثبت لأهل البداية من قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع »[3] .

---

(١) حب .

(٢) الحديث بأكمله : عن أبى ربعى : حنظلة بن الربيع الأسيدى : الكاتب أحد كتاب رسول الله ﷺ ، قال : « لقينى أبو بكر ، رضى الله عنه فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قلت : نافق حنظلة ! قال سبحان الله ! ما تقول ؟ فقلت : نكون عند رسول الله ، ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأنها رأى عين ، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً ، قال أبو بكر رضى الله عنه ، « فوالله إننا لنلقى مثل هذا : فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، نافق حنظلة ، فقالى رسول الله ﷺ : وما ذاك ؟ قال : نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنها رأى عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات : نسينا كثيراً فقال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده ، أن لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم ، ولكن يا حنظلة ، ساعة وساعة ثلاث مرات » رواه مسلم . عافسنا : داعبنا ؛ الضيعات : المعايش .

(٣) الحديث بتمامه فيما رواه أبو داود والترمذى عن أبى الدرداء رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يبتغى فه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء وفضل العالم على العابد : كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

وما قال : « لى وقت .. » فإنما قال على حسب فهم السامع . وفى جميع أحواله كان قائما بالحقيقة .

والأولى أن يقال : إن العبد ما دام فى الترقىِّ فصاحب تلوين يصحُّ فى نعته الزيادة فى الأحوال ، والنقصانُ منها ، فإذا وصل إلى الحق بانخناس أحكام البشرية مكنَّه الحق سبحانه ، بأن لا يرده إلى معلولات النفس ، فهو متمكن فى حاله ، على حسب محله واستحقاقه .

ثم يُتْحفُه – الحقُ سبحانه ، فى كل نفس ، فلا حدَّ لمقدوراته ، فهو فى الزيادات متلون ، بل ملوَّن . وفى أصل حاله متمكن ؛ فأبداً يتمكن فى حالة أعلى مما كان فيها قبله ، ثم يرتقى عنها إلى ما فوق ذلك إذ لا غاية لمقدورات الحق سبحانه فى كل جنس .

فأما المصطلم[1] عن شاهده ، المستوفى إحساسه بالكلية ، فللبشرية لا محالة حد وإذا بطل عن جملته ونفسه وحسه ، وكذلك عن المكونات بأسرها ، ثم دامت به هذه الغيبة ، فهو محو ، فلا تمكين له إذاً ، ولا تلوين ، ولا مقام ، ولا حال .

وما دام بهذا الوصف : فلا تشريف ، ولا تكليف اللهَّم إلا أن يردّ بما يجرى عليه من غير شىء منه ، فذلك[2] متصرف فى ظنون الخلق ، مصرَّف فى التحقيق .

قال الله تعالى ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمين وَذَاتَ الشِّمالِ ﴾[3] وبالله التوفيق .

---

(١) الغائب .

(٢) أى العبد .

(٣) آية ١٨ من سورة الكهف .

ومن ذلك :

القرب والبعد

أوَّل رتبة فى القرب : القربُ من طاعته ، والاتصاف فى دوام الأوقات بعبادته .

وأمَّا البعد ، فهو التدنس بمخالفته ، والتجافى عن طاعته .

فأوَّل البعد بعد عن التوفيق ، ثم بعد عن التحقيق ، بل البعد عن التوفيق هو البعد عن التحقيق ، قال ﷺ ، مخبراً عن الحق سبحانه : « ما تقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضته عليهم ، ولا يزال العبد يتقرب إلىَّ بالنوافل . حتى يحبنى وأحبه فإذا أحببته ، كنت له سمعاً وبصراً ، فبى يبصر ، وبى يسمع .. الخبر[١] ... » .

فقُرْب العبد أولا قرب بإيمانه وتصديقه ، ثم قرب بإحسانه وتحقيقه .

وقرب الحق سبحانه ، ما يخصه اليوم به من العرفان ، وفى الآخرة ما يكرِّمه به من الشهود والعيان ، وفيما بين ذلك من وجوه اللطف والامتنان .

ولا يكونُ تقرُب العبد من الحق إلا ببعده عن الخلق ، وهذه من صفات القلوب دون أحكام الظواهر والكون .

وقرب الحق سبحانه ، بالعلم ، والقدرة عام للكافه . وباللطف والنصرة خاص بالمؤمنين ، ثم بخصائص التأنيس[٢] مختص بالأولياء . قال الله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ[٣] ﴾ . وقال الله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ[٤] ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ[٥] ﴾ وقال الله تعالى ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نجوى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ[٦] ﴾ .

ومن تحقق بقرب الحق ، سبحانه وتعالى ، فأدْونه[٧] دوام مراقبته إيَّاه ، لأنَّ عليه رقيبَ التقوى ، ثم رقيب الحفظ والوفاء ثم رقيب الحياء . .

---

(١) الحديث بتمامه : قال تعالى فى الحديث القدسى الصحيح الذى رواه البخارى « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولا يزال يتقرب إلى عبدى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به . ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

(٢) أى الأنس بالله .

(٣) آية ١٩ من سورة : ق .

(٤) آية ٨٥ من سورة الواقعة .

(٥) آية ٤ من سورة الحديد .

(٦) آية ٧ من سورة المجادلة .

(٧) فأقله .

وأنشدوا :

كأن رقيباً منك يرعى خواطرى وآخرَ يرعى ناظرى ولسانى
فما رمقت عيناى بعدك منظراً يسوؤك إلا قلت قد رفعانى
ولا بدرت من فى دونك لفظة لغيرك إلا قلت قد سمعانى
ولا خطرت فى السر بعدك خطرة لغيرك إلا عرَّجا بعنانى
وإخوان صدق قد سئمت حديثهم وأمسكت عنهم ناظرى ولسانى
وما الزهد أسلى عنهم غير أننى وجدتك مشهوداً بكل مكان

وكان بعض المشايخ يخص واحداً من تلامذته بإقباله عليه ، فقال أصحابه له فى ذلك ، فدفع إلى كل واحد منهم طيراً ، وقال اذبحوه بحيث لا يراه أحد .

فمضى كل واحد وذبح الطير بمكان خال .. وجاء هذا الإنسان والطير معه غير مذبوح ؛ فسأله الشيخ ، فقال : أمرتنى أن أذبحه بحيث لا يراه أحد ، ولم يكن موضع إلا والحق سبحانه يراه ، فقال الشيخ ، لهذا أقدِّم هذا عليكم ؛ إذ الغالب عليكم حديثُ الخلق ، وهذا غير غافل عن الحق .

ورؤية القرب حجاب عن القرب ، فمن شاهد لنفسه محلا ، أو نَفساً ، فهو ممكور به[1] .

ولهذا قالوا : أوحشك الله من قربه : أى من شهودك لقربه ، فإن الاستئناس بقربه من سمات العزة به ، إذ الحق سبحانه وراء[2] كل أنس .

وإن مواضع الحقيقة توجب الدهش والمحو[3] .

وفى قريب من هذا قالوا :

محنتى فيك أننى ما أبالى بمحنتى
قربكم مثلُ بعدكم فمتى وقت راحتى

وكان الأستاذ أبو علىٍّ الدقاق ، رحمه الله ، كثيراً ما ينشد :

ودادكم هجر ، وحبكم قلى[4] وقربكم بعد وسلمكم حرب

---

(١) ممكور به : مغرور به :
(٢) أى أمام .
(٣) وفى نسخة و « المحق » .
(٤) بغض .

ورأى أبو الحسين النورى بعض أصحاب أبى حمزة ، فقال :

أنت من أصحاب أبى حمزة الذى يشير إلى القرب ؟ إذا لقيته ، فقل له : إن أبا الحسين النورى يقرئك السلام ، ويقول لك : قرب القرب فيما نحن فيه بعد البعد .

فأما القرب بالذات ، فتعالى الله الملك الحق عنه ، فإنه متقدس عن الحدود ؛ والأقطار ، والنهاية ، والمقدار ، وما اتصل به مخلوق ، ولا انفصل عنه حادث مسبوق به ، جلت صمديته عن قبول الوصل والفصل .

فقرب هو فى نعته محال : وهو تدانى الذوات .

وقرب هو واجب فى نعته : وهو قرب بالعلم والرؤية .

وقرب هو جائز فى وصفه ، يخص به من يشاء من عباده ، هو قرب الفضل[1] باللطف .

---

(١) وفى نسخة أخرى « الفعل » .

ومن ذلك :

الشريعة والحقيقة

الشريعة : أمر بالتزام العبودية .

والحقيقة : مشاهدة الربوبية .

فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول .

وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير مقبول .

فالشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق .

فالشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشهده .

والشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود لما قضى وقدر ، وأخفى وأظهر .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

قوله : ﴿ إياك نعبد ﴾ حفظ للشريعة ﴿ وإياك نستعين ﴾ إقرار بالحقيقة .

واعلم أن الشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره .

والحقيقة - أيضاً - شريعة ، من حيث إن المعارف به ، سبحانه ، أيضاً ، وجبت بأمره .

ومن ذلك :

النفَس[1]

النفَس : ترويح القلوب بلطائف الغيوب ، وصاحب الأنفاس أرق وأصفى من صاحب الأحوال ، فكان الوقت مبتدئاً ، وصاحب الأنفاس منتهياً ، وصاحب الأحوال بينهما .

فالأحوال وسائط ، والأنفاس نهاية الترقيِّ .

فالأوقات لأصحاب القلوب ، والأحوال لأرباب الأرواح ، والأنفاس لأهل السَّرائر :

وقالوا : أفضل العبادات عد الأنفاس مع الله سبحانه وتعالى .

وقالوا : خلق الله القلوب وجعلها معادن المعرفة ، وخلق الأسرار وراءها[2] . وجعلها محلًّا للتوحيد فكل نَفس حصل من غير دلالة المعرفة وإشارةِ التوحيد على بساط الأضطرار فهو ميت ، وصاحبه مسئول عنه .

سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

العارف لا يسلم له النفس ، لأنه لا مساحة تجرى معه ، والمحب لا بدله من نفس ، إذ لولا أن يكون له نفس لتلاشى ، لعدم طاقته .

---

(١) بفتح الفاء .

(٢) أى بعدها .

ومن ذلك :

الخـواطر

والخواطر خطاب يَرد على الضمائر ، وهو قد يكون بإلقاء ملك ، وقد يكون بإلقاء شيطان ، ويكون أحاديث النفس ، ويكون من قبل الحق سبحانه .

فإذا كان من الملك فهو الإلهام .

وإذا كان من قبل النفس ، قيل له : الهواجس .

وإذا كان من قبل الشيطان فهو : الوسواس .

وإذا كان من قبل الله سبحانه ، وإلقائه فى القلب ، فهو : خاطر حق .

وجملة ذلك من قبيل الكلام[١] .

فإذا كان من قبل الملك ، فإنما يعلم صدقهُ بموافقة العلم[٢]، ولهذا قالوا : كل خاطر لا يشهد له ظاهر فهو باطل .

وإذا كان من قبل الشيطان فأكثره يدعو إلى المعاصى .

وإذا كان من قبل النفس فأكثره ، يدعو إلى اتباع شهوة أو استشعار كبر ، أو ما هو من خصائص أوصاف النفس .

واتفق المشايخ على أن من كان أكله من الحرام لم يفرق بين الإلهام والوسواس[٣] .

وسمعت الشيخ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

من كان قوته معلومًا[٤] لم يفرق بين الإلهام والوسواس ، وأن من سكنت عنه هواجس نفسه بصدق مجاهدته نطق بيان[٥] قلبه بحكم مكابدته .

وأجمع الشيوخ على أن النفس لا تصدق ، وأن القلب لا يكذب .

---

(١) أى جميع ما تقدم فى معنى الخاطر هو من قبيل الكلام النفسى الملقى فى الضمائر .

(٢) بالكتاب والسنة .

(٣) لأن التمييز بينهما إنما يقع بدقيق النظر فى الأحكام وكمال العلم بالحلال والحرام .

(٤) أى معينا من جهه ما إذا اطمأن له واعتمد عليه .

(٥) وفى نسخة : بيان .

وقال بعض المشايخ : إن نفسك لا تصدق وقلبك لا يكذب ، ولو اجتهدت كل الجهد أن تخاطبك روحك لم تخاطبك .

وفرق الجنيد بين هواجس النفس ووساوس الشيطان بأن النفس إذا طالبتك بشىء ألحت .. فلا تزال تعاودك ، ولو بعد حين ، حتى تصل إلى مرادها ، ويحصل مقصودها ، اللهم إلا أن يدوم المجاهدة ، ثم إنها تعاودك وتعاودك .

وأما الشيطان إذا دعاك إلى زلة ، فخالفته بترك ذلك ، يوسوس بزلة أخرى ، لأن جميع المخالفات له سواء ، وإنما يريد أن يكون داعيًا أبدًا إلى زلة ما ، ولا غرض له فى تخصيص واحد دون واحد .

وقد قيل : كل خاطر يكون من الملك فربما يوافقه صاحبه ، وربما يخالفه .

فأما خاطر يكون من الحق سبحانه ، فلا يحصل خلاف من العبد له .

وتكلم الشيوخ فى الخاطر الثانى ، إذا كان الخاطران من الحق سبحانه ، هل هو أقوى من الأول ؟ .

فقال الجنيد : الخاطر الأول أقوى ، لأنه إذا بقى رجع صاحبه إلى التأمل . وهذا بشرط العلم ، فترك الأول يضعف الثانى .

وقال ابن عطاء الله : الثانى أقوى ، لأنه ازداد قوة بالأول .

وقال أبو عبدالله بن خفيف ، من المتأخرين :

هما سواء ، لأن كليهما من الحق ، فلا مزية لأحدهما على الآخر .

والأول لا يبقى فى حال وجود الثانى ، لأن الآثار لا يجوز عليها البقاء .

ومن ذلك :

علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين

هذه عبارات عن علوم جلية .

فاليقين : هو العلم الذى لا يتداخل[١] صاحبه ريب على مطلق العرف .

ولا يطلق فى وصف الحق سبحانه ؛ لعدم التوقيف .

فعلم اليقين : هو اليقين ، وكذلك عين اليقين : نفس اليقين ، وحق اليقين : نفس اليقين[٢] .

فعلم اليقين ، على موجب اصطلاحهم[٣] ما كان بشرط البرهان .

وعين اليقين ما كان بحكم البيان[٤] .

وحق اليقين ما كان بنعت العيان[٥] .

فعلم اليقين لأرباب العقول وعين اليقين لأصحاب العلوم[٦]. وحق اليقين لأصحاب المعارف[٧] .

والكلام فى الإفصاح عن هذا بحال تحقيقه[٨] يعود إلى ما ذكرناه .

فاقتصرنا على هذا القدر ، على جهة التنبيه .

---

(١) فى نسخة : يداخل ، وهى الأظهر .

(٢) فالثلاثة فى اللغة بمعنى واحد واختلاف العبارات بينها إشارة إلى تفاوت القوة فيها .

(٣) أى الصوفية .

(٤) أى بطريق الكشف .

(٥) أى بطريق المشاهدة .

(٦) أى الذين ثبتت علومهم وتوالت على قلوبهم حتى استغنوا عن البرهان .

(٧) الذين غلب على قلوبهم ما شغلهم عن ذكر غير الله .

(٨) وفى نسخة أخرى « وللكلام فى الإفصاح عن هذا مجال وتحقيقه .. » .

ومن ذلك :

الـوارد

ويجرى فى كلامهم ذكر الواردات كثيرًا .

والوارد :

ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة ، مما لايكون بتعمد العبد ، وكذلك ما لا يكون من قبيل الخواطر ، فهو أيضًا : وارد .

ثم قد يكون وارد من الحق ، ووارد من العلم .

فالواردات أعم من الخواطر ؛ لأن الخواطر تختص بنوع الخطاب ، أو ما يتضمن معناه .

والواردات تكون : وارد سرور ، ووارد حزن ، ووارد قبض ؛ ووارد بسط ، إلى غير ذلك من المعانى[1] .

---

(١) يقول الشيخ العروسى : ذلك باعتبار حال السالك أما العارف : فهو دائما فى حال جمع الحقيقة لا إحساس له بشىء من سرور أو حزن فحينئذ يكون وارد السرور وضده من واردات العلم لا من وارد الحق .

ومن ذلك لفظ :

الشاهد

كثيرًا ما يجرى فى كلامهم لفظ : الشاهد :

فلان بشاهد[1] العلم ، وفلان بشاهد الوجد ، وفلان بشاهد الحال .

ويريدون بلفظ الشاهد : ما يكون حاضر قلب الإنسان ، وهو ما كان الغالب عليه ذكره ، حتى كأنه يراه ويبصره ، وإن كان غائبًا عنه . فكل ما يستولى على قلب صاحبه ذكره فهو شاهده فإن كان الغالب عليه العلم ، فهو بشاهد العلم .

وإن كان الغالب عليه الوجد ، فهو بشاهد الوجد .

ومعنى الشاهد : الحاضر ، فكل ما هو حاضر قلبك فهو شاهدك . وسئل الشبلى عن المشاهدة ، فقال :

ومن أين لنا مشاهدة الحق ؟ الحق لنا شاهد[2] .

أشار بشاهد الحق إلى المستولى على قلبه ؛ والغالب عليه من ذكر الحق والحاضر فى قلبه دائمًا من ذكر الحق .

ومن حصل له مع مخلوق تعلق بالقلب ، يقال : إنه شاهده ، يعنى : أنه حاضر قلبه ، فإن المحبة توجب دوام ذكر المحبوب ، واستيلائه عليه .

وبعضهم تكلف فى مراعاة هذا الاشتقاق فقال :

إنما سمى الشاهد من الشهادة[3] ، فكأنه إذا طالع شخصًا بوصف الجمال : فإن كانت بشريته ساقطة عنه ، ولم يشغله شهود ذلك الشخص عما هو به من الحال ، ولا أثرت فيه صحبته بوجه ، فهو شاهد له على فناء نفسه .

ومن أثر فيه ذلك ، فهو شاهد عليه فى بقاء نفسه .

---

(١) أى متلبس .

(٢) وفى نسخة « لنا شاهد الحق » .

(٣) بمعنى المعاينة .

وقيامه بأحكام بشريته إما شاهد له ، أو شاهد عليه .

وعلى هذا حمل قوله ﷺ : « رأيت ربى ليلة المعراج فى أحسن صورة » أى أحسن صورة رأيتهاتلك الليلة لم تشغلنى عن رؤيته تعالى ، بل رأيت المصور فى الصورة ، والمنشىء فى الإنشاء ويريد بذلك رؤية العلم ، لا إدراك البصر[1] :

---

(١) قال الأنصارى : أن صح الخبر فمحله أن رؤيته صل الله عليه وسلم لربه كانت فى أحسن صورة هو عليها لأنه تعالى خلق له من الإدراك الذى رأى به ربه المنزه عن الأجسام والصور والهيآت مالم يخلقه له قبل ، فتلك الصورة راجعة إلى حاله ﷺ التى حصه بها ربه من الإدراك السريف الذى نخلقه لأوليائه فى الدار الآخرة ويخصهم به ، وتكون الصورة معنوية لا حسبة .

ومن ذلك :

النفْس[١]

نفْس الشيء فى اللغة : وجودُه .

وعند القوم : ليس المراد من إطلاق لفظ النفْس الوجودَ ، ولا القالب الموضوع[٢]. إنما أرادوا بالنفس : ما كان معلولا[٣] من أوصاف العبد ومذمومًا من أخلاقه وأفعاله .

ثم إن المعلولات من أوصاف العبد على ضربين :

أحدهما : ما يكون كسبًا له ؛ كمعاصيه ومخالفاته .

والثانى : أخلاقه الدنيئة ، فهى فى أنفسها مذمومة ، فإذا عالجها العبد ونازلها ، تنتفى عنه بالمجاهدة تلك الأخلاق على مستمر المادة .

والقسم الأوَّل من أحكام النفس : مانهى عنه نهى تحريم ، أونهىَ تنزيه .

وأما القسم الثانى ، من قسمى النفس : فسفساف الأخلاق ، والدنىء منها .

هذا حدُّه على الجملة . ثم تفصيلها[٤]: فالكبر ، والغضب ، والحقد ، والحسد ، وسوء الخلق ، وقلَّة الاحتمال ، وغير ذلك من الأخلاق المذمومة .

وأشد أحكام النفس وأصعبها : توهمها أن شيئًا منها حسن ، أو أن لها استحقاق قدر ، ولهذا عُدَّ ذلك من الشرك الخفىّ .

ومعالجة الأخلاق فى ترك النفس ، وكسرها ، أتم[٥] من مقاساة الجوع والعطش والسهر ، وغير ذلك من المجاهدات التى تتضمن سقوط القوة ، وإن كان ذلك أيضًا من جملة ترك النفس ، ويحتمل أن تكون النفس : لطيفة مودعة فى هذا القالب ، هى محل الأخلاق المعلومة[٦] .

---

(١) بسكون الفاء .

(٢) أى الجسم .

(٣) أى ذا علة وصفة ذميمة .

(٤) أى الجملة .

(٥) أى : فى طريق الوصول إلى المقصود حيث الخير كله فى مخالفة النفس .

(٦) وفى نسخة المعلولة أى : المذمومة .

كما أن الروح : لطيفة ، مودعة فى هذا القالب هى محل الأخلاق المحمودة .

وتكون الجملة مسخرًا بعضها لبعض ، والجميع إنسان واحد .

وكون الروح ، والنفس ، من الأجسام اللطيفة فى الصورة ، ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطافة ، وكما يصح أن يكون البصر محلَّ الرؤية ، والأذن محلَّ السمع ، والأنف محلَّ الشم ، والفم محلٍّ الذوْق ، والسميع ، والبصير والشامُّ ، والذائق إنما هى الجملة ، التى هى الإنسان فكذلك محل الأوصاف الحميدة : القلب والروح ، ومحل الأوصاف المذمومة : النفس ..

والنفس جزء من هذه الجملة ، والقلب جزء من هذه الجملة ، والحكم الاسم راجع إلى الجملة .

ومن ذلك :

الـروح

الأرواح مختلف فيها عند أهل التحقيق من أهل السنة :

فمنهم من يقول : إنها الحياة .

ومنهم من يقول : إنها أعيان مودعة فى هذه القوالب .

لطيفة :

أجرى الله العادة بخلق الحياة فى القالب ، مادامت الأرواح فى الأبدان ، فالإنسان حى بالحياة ، ولكن الأرواح مودعة فى القوالب ؛ ولها ترق[1] فى حال النوم ، ومفارقة للبدن ، ثم رجوع إليه .

وأن الإنسان : هو الروح ، والجسد ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ؛ سخر هذه الجملة بعضها لبعض ، والحشر يكون للجملة ، والمثاب والمعاقب الجملة .

والأرواح مخلوقة ، ومن قال بقدمها فهو مخطىء خطأً عظيماً .

والأخبار تدل على أنها أعيان لطيفة .

---

(١) أى صعود عن البدن .

ومن ذلك :

السرُّ

يحتمل أنها[1] لطيفة مودعة فى القالب ، كالأرواح .

وأصولهم تقتضى أنها محل المشاهدة ، كما أن الأرواح محل للمحبة ، والقلوبَ محل للمعارف[2] .

وقالوا : السر : مالك عليه إشراف ، وسر السرِّ : ما لا اطلاع عليه لغير الحق .

وعند القوم : على موجب مواضعاتهم[3] ومقتضى أصولهم : السر ألطف من الروح ، والروح أشرف من القلب .

ويقولون : الأسرارُ معتْقة عن رقّ الأغيار من الآثار والأطْلال .

ويطلق لفظ « السرِّ » على ما يكون مصونًا مكتومًا بين العبد والحق سبحانه ، فى الأحوال[4]. وعليه يحمل قول من قال .

أسرارنا بكر لم يفتضَّها وهم واهم .

ويقولون :

صدور الأحرار قبورُ الأسرار .

وقالوا :

لو عرف زرِىّ سِرّى لطرحته .

فهذا طرف من تفسير إطلاقاتهم ، وبيان عباراتهم فيما انفردوا به من ألفاظ ذكرناها على شروط الإيجاز .

* * *

ونذكر الآن أبوابًا فى شرح المقامات التى هى مدارج[5] أرباب السلوك ثمَّ بعدها أبوابًا[6] فى تفضيل الأحوال على الجد الذى يسهله الله تعالى ، بفضله إن شاء الله تعالى .

---

(١) وفى نسخة « أنه » .

(٢) قال العلامة علاء الدين القونوى : والظاهر أنها أسماء لحقيقة واحدة وهى اللطيفة الإنسانية ، لكنها تختلف باعتبارات مختلفة .. قال العروسى : وهو المتعين إذ لا دليل على هذا التقسيم .

(٣) اصطلاحاتهم .

(٤) أى الواردات على العبد .

(٥) عظيم تحت القلب .

(٦) طرق ؟

باب التوبة

قال الله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيهَ المؤمنونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ ﴾[1] .

أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين بن فورك ، رحمه الله ، قال : أخبرنا أحمد بن محمود بن خرَّاز قال : حدثنا محمد بن فضل بن جابر ، قال حدثنا سعيد بن عبدالله قال : حدثنا أحمد بن زكريا ، سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول :

« التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وإذا أحبَّ الله عبدًا لم يضرّه ذنب ، ثم تلا : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ ﴾[2] ، قيل : يارسول الله ، وما علامة التوبة ؟ قال الندامةَ »[3] .

أخبرنا عليُّ بن أحمد بن عبدان الأهوازى ، قال : أخبرنا أبو الحسين أحمد بن عبيد الصفار ، قال : أخبرنا محمد بن الفضل بن جابر قال : أخبرنا الحكم بن موسى ، قال : حدَّثنا غسَّان بن عبيد عن أبى عاتكة طريف بن سليمان ، عن أنس بن مالك . أن النبى ﷺ ، قال : « ما من شىء أحب إلى الله من شاب تائب »[4] .

فالتوبة أوَّل منزل من منازل السالكين .

وأوَّلُ مقام من مقامات الطالبين .

وحقيقة التوبة فى لغة العرب : الرجوع ، يقال : تاب أى رجع .

فالتوبة الرجوع عما كان مذمومًا فى الشرع إلى ما هو محمود فيه .

وقال النبى ﷺ : « الندم توبة » .

فأرباب الأصول من أهل السنَّة قالوا :

شرط التوبة ، حتى تصح ، ثلاثة أشياء :

---

(١) آية ٣١ من سورة النور .

(٢) آية ٢٢٢ من سورة آل عمران .

(٣) قال السيوطى : رواه أيضاً ابن النجار وحسنه وقد روى أوله ابن ما جه .

(٤) ذكره السيوطى فى جامعة من حديث طويل وقال : رواه أبو المظفر السمعانى فى أماليه عن سلمان وضعفه ، وله شواهد من الأحاديث الصحيحة .

النَدم على ما عمِل من المخالفات .

وترك الزَّلة فى الحال .

والعزمُ على أن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصى .

فهذه الأركان لابد منها ، حتى تصحَّ توبته .

قال هؤلاء : وما فى الخبر أن « الندم توبة »[١] إنما نصَّ على معظمه كما قال ﷺ : « الحج عرفة » ، أى معظم أركانه عرفه ، أى الوقوف بها ، لا أنه لا ركن فى الحج سوى الوقوف بعرفات ، ولكن معظم أركانه الوقوف بها .

كذلك قوله « الندم توبة » أى معظم أركانها الندم .

ومن أهل التحقيق من قال : يكفى الندم فى تحقيق ذلك ؛ لأن الندم يستتبع الركنين الآخرين فإنه يستحيل تقدير أن يكون نادمًا على ما هو مصر على مثله ؛ أو عازم على الإتيان بمثله .

وهذا معنى التوبة على جهة التحديد والإجمال .

فأما على جهة الشرح والإبانة ، فإن للتوبة أسبابًا وترتيبًا وأقسامًا .

فأول ذلك : انتباه القلب عن رقدة الغفلة ، ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة .

ويصل إلى هذه الجملة يالتوفيق للإصغاء إلى ما يخطر بباله من زواجر الحق ، سبحانه ، يسمع قلبه ، فإنه جاء فى الخبر « واعظُ الله فى قلب كل امرئ مسلم » .

وفى الخبر : « إن فى البدن لمضغة إذا صلحَت صلح جميع البدن وإذا فسدت فسد جميع البدن ، ألا وهى : القلب »[٢] .

فإذا فكر بقلبه فى سوء ما يصنعه ، وأبصر ما هو عليه من قبيح الأفعال ، سنح[٣] فى قلبه إرادة التوبة ، والإقلاعُ عن قبيح المعاملات فيمدُّه الحق ، سبحانه بتصحيح العزيمة ، والأخذ فى جميل الرجعى ، والتأهب لأسباب التوبة :

فأوَّل ذلك :

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم والبيهقى فى الشعب .

(٢) رواه الشيخان وأصحاب السنن .

(٣) خطر .

هجران إخوان السوء ؛ فإنهم هم الذين يحملونه على ردّ هذا القصد ويشوشون عليه صحة هذا العزم .

ولا يتم ذلك : إلا بالمواظبة على المشاهدة[1] التى تزيد رغبته فى التوبة وتوفّر دواعيه على إتمام ما عزم عليه ، مما يقوّى خوفه ورجاءه : فعند ذلك تنحل من قلبه عقدة الإصرار على ما هو عليه من قبيح الأفعال ، فيقف عن تعاطى المحظورات ، ويكبح لجام نفسه عن متابعة الشهوات فيفارق الزلةُ فى الحال ، ويبرم العزيمة على أن لا يعود إلى مثلها فى الاستقبال .

فإن مضى على موجب قصده ، ونفذ بمقتضى عزمه فهو الموفق صدقا .

وإن نقض التوبة مرَّة أو مرات ، وتحمله إرادته على تجديدها فقد يكون مثل هذا أيضًا كثيرًا ، فلا ينبغى قطع الرجاء عن توبة أمثال هؤلاء ، فإن لكل أجل كتابًا .

حكى عن أبى سليمان الدارانى ، أنه قال :

اختلفت إلى مجلس قاص ، فأثر كلامه فى قلبى ، فلما قمت لم يبق فى قلبى منه شىء . فعدت ثانيًا ؛ فبقى أثر كلامه فى قلبى ، حتى رجعت إلى منزلى فكسرت آلات المخالفات ولزمت الطريق .

فحكى هذه الحكاية ليحيى بن معاذ فقال :

عصفورًا اصطاد كركيًّا !! .

أراد بالعصفور ، ذلك القاص ، وبالكركىّ ، أبا سليمان الدارانى .

ويحكى عن أبى حفص الحدَّاد أنه قال :

تركت العمل كذا ، وكذا مرة ، فعدت إليه ، ثم تركنى العمل ، فلم أعد بعد إليه .

وقيل : إن أبا عمرو بن نجيد ، فى ابتداء أمره ، اختلفت إلى مجلس أبى عثمان[2] ، فأثرت فى قلبه كلامه ، فتاب .

ثم إنه وقعت له فترة ، فكان يهرب من أبى عثمان إذا رآه ، ويتأخر عن مجلسه فاستقبله أبو عثمان يومًا فحاد أبو عمرو عن طريقه ، وسلك طريقًا أخرى ، فتبعه أبو عثمان ، فمازال به يقفو أثره ، حتى لحقه ، فقال له :

---

(١) وفى نسخة المتشاهد .

(٢) سعيد بن سلام الحرانى .

يابُنى ، لا تصحب من لا يحبك إلا معصومًا ، إنما ينفعك أبو عثمان فى مثل هذه الحالة ، قال : فتاب أبو عمرو بن نجيد ، وعاد إلى الإرادة[١]، ونفذ فيها .

سمعت الشيخ أبا علىٍّ الدَّقاق ، رحمه الله ، يقول :

تاب بعض المريدين ، ثم وقعت له فترة[٢]، فكان يفكر وقتًا : لو عاد إلى توبته[٣] كيف حكمه ؟ فهتف به هاتف : يا فلان ، أطعتنا فشكرناك ، ثم تركتنا فأمهلناك ، وإن عدت إلينا قبلناك .

فعاد الفتى إلى الإرادة ، ونفذ فيها .

فإذا ترك المعاصى ، وحل عن قلبه عقدة الإصرار ، وعزم أن لا يعود إلى مثله ، فعند ذلك يخلص إلى قلبه صادق الندم ، فيتأسف على ما عمله ، ويأخذ فى التحسر على ما صنعه[٤] من أحواله ، وارتكبه من قبيح أعماله ، فتتم توبته ، وتصدق مجاهدته ، واستبدل[٥] بمخالطته العزلة ، وبصحبته مع إخوان السوء التوحش عنهم ، والخلوة دونهم ويصل ليله بنهاره فى التلهف[٦] ، ويعتنق فى عموم أحواله بصدق التأسف ، يمحو بصوب عبرته آثار عثرته ، ويأسو[٧] بحسن توبته كلوم[٨] حوبته[٩] ويعرف من بين أمثاله بذبوله ، ويستدل صحة حاله بنحو له .

ولن يتم له شىء من ذلك إلا بعد فراغه من إرضاء خصومه ، والخروج عما لزمه من مظالمه ، فإن أول منزلة من[١٠] التوبة إرضاء الخصوم بما أمكنه ، فإن اتسع ذات يده لإيصال حقوقهم إليهم ، أو سمحت أنفسهم بإحلاله والبراءة عنه[١١] ، وإلا فالعزم بقلبه على أن يخرج عن حقوقهم عند الإمكان والرجوعُ إلى الله سبحانه بصدق الابتهال والدعاء لهم .

وللتائبين صفات وأحوال :

هى من خصالهم ، يعدُّ ذلك[١٢] من جملة التوبة ، لكونها من صفاتهم ، لا لأنها من شرط صحتها ، وإلى ذلك تشير أقاويل الشيوخ فى معنى التوبة :

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمه الله تعالى ، يقول :

التوبة على ثلاثة أقسام :

---

(١) الحالة التى فتر عنها .
(٢) عودة إلى ما كان عليه قبل التوبة .
(٣) وفى نسخة « التوبة » .
(٤) وفى نسخة ضيعه » .
(٥) وفى نسخة « ويستبدل » .
(٦) أى التحسر .
(٧) يداوى .
(٨) جروح .
(٩) إثمه .
(١٠) وفى نسخة فى .
(١١) والأولى أن يقول عنها .
(١٢) أى مجموعها .

أوَّلها التوبة ، وأوسطها الإنابة ، وآخرها الأوبة .

فجعل التوبة بداية ، والأوبة نهاية ، والإنابة واسطتها .

فكلُّ من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة .

ومن تاب طمعًا فى الثواب ، فهو صاحب إنابة .

ومن تاب مراعاة للأمر[1] لا للرغبة فى الثواب أو رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة .

ويقال أيضًا : التوبة صفة المؤمنين ، قال الله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[2] .

والإنابة : صفة الأولياء والمقرَّبين ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾[3] .

والأوبة : صفة الأنبياء والمرسلين ، قال الله تعالى ، ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[4] .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، يقول : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت جعفر بن نصير يقول : سمعت الجنيد يقول :

التوبة على ثلاثة معان :

أولها : الندم ، والثانى العزم على ترك المعاوده إلى ما نهى الله عنه ، والثالث السعى فى أداء المظالم .

وقال سهل بن عبدالله : التوبة : ترك التسويف .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر الرازى ، يقول : سمعت أبا عبدالله القرشى يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت الحارث يقول :

ما قلت قط ، اللهم إنأ أسألك التوبة ، ولكنى أقول : أسألك شهوة التوبة .

أخبرنا أبو عبدالله الشيرازى ، رحمه الله قال : سمعت أبا عبدالله بن مصلح ، بالأهواز يقول . سمعت ابن زيرى يقول : سمعت الجنيد يقول :

دخلت على السرِّى يومًا فرأيته متغيرًا ، فقلت له : مالك ؟ .

---

(١) أى لامتثاله .

(٢) آية ٣١ من سورة النور .

(٣) آية ٣٣ من سورة ق .

(٤) آية ٣٠ من سورة ص و ٤٤ من سورة ص أيضًا .

فقال : دخل عليَّ شاب فسألني عن التوبة ، فقلت له : أن لا تنسى ذنبك !! . فعارضني ، وقال : بل التوبة أن تنسى ذنبك .

فقلت : إن الأمر عندى ما قاله الشاب .

فقال : لِمَ ؟ قلت : لأنى إذا كنت فى حال الجفاء فنقلنى إلى حال الوفاء ؛ فذكر الجفاء فى حال الصفاء جفاء . فسكت .

سمعت أبا حاتم السجستانى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا نصر السراج الصوفى يقول سئل سهل ابن عبدالله عن التوبة ، فقال : أن لاتنسى ذنبك .

وسئل الجنيد عن التوبة فقال : أن لا تنسى ذنبك .

قال أبو نصر السراج : أشار سهل إلى أحوال المريدين والمتعرضين ، تارة لهم ، وتارة عليهم ، فأما الجنيد فإنه أشار إلى توبة المحققين فإنهم لا يذكرون ذنوبهم بما غلب على قلوبهم من عظمة الله تعالى ، ودوام ذكره .

قال : وهو مثل ما سئل رويم عن التوبة ، فقال :

هى التوبة من التوبة .

وسئل ذو النُّون المصرى عن التوبة فقال :

توبة العوامِّ من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة .

وقال أبو الحسين النورى : التوبة أن تتوب من كل شىء سوى الله عز وجل .

سمعت محمد بن أحمد بن محمد الصوفى يقول : سمعت عبدالله بن على بن محمد التميمى يقول : شتان ما بين تائب يتوب من الزلات ، وتائب يتوب من الغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات .

وقال الواسطى :

التوبة النصوح[1] لا تبقى على صاحبها أثرًا من المعصية سرا ولا جهرًا ومن كانت توبته نصوحًا لا يبالى كيف أمسى أو أصبح .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى يقول : سمعت محمد بن إبراهيم بن الفضل الهاشمى يقول : سمعت محمد بن الرومى يقول : سمعت يحيى بن معاذ يقول :

---

(١) أى الخالصة .

إلهى ، لا أقول تبت ، ولا أعود لما أعرف من خلقى ، ولا أضمن ترك الذنوب لما أعرف من ضعفى ، ثم إنىِّ أقول : لا أعود لعَلى أن أموت قبل أن أعود .

وقال ذو النون : الاستغفار من غير إقلاع توبة الكاذبين .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت النصر اباذى يقول : سمعت ابن يزدانيار يقول : وقد سئل عن العبد إذا خرج إلى الله على أىّ أصل يخرج ؟

فقال : على أن لا يعود إلى ما منه خرج ، ولا يراعى غير[1] من إليه خرج ، ويحفظ سرَّه عن ملاحظة ماتبرأ منه .

فقيل له : هذا حكم من خرج عن وجود ، فكيف حكم من خرج عن عدم ؟ .

فقال : وجودُ الحلاوة فى المستأنف[2] عوضًا عن المرارة فى السالف .

وسئل البوشنجى عن التوبة فقال :

إذا ذكرتَ الذنب ثم لا تجد حلاوته عند ذكره ، فهو التوبة .

وقال ذو النون : حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت ، حتى لايكون لك قرار .. ثم تضيق عليك نفسك ، كما أخبر الله تعالى فى كتابه بقوله : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِم أَنْفُسُهُمْ ، وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيهِ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾[3] .

وقال ابن عطاء :

التوبة : توبتان : توبة الإنابة ، وتوبة الاستجابة .

فتوبة الإنابة : أن يتوب العبد خوفًا من عقوبته .

وتوبة الاستجابة : أن يتوب حياءً من كرمه :

وقيل لأبى حفص : لم يبغض التائب الدنيا ؟ .

قال : لأنها دار باشر فيها الذنوب .

فقيل له : فهى أيضًا دار أكرمه الله فيها بالتوبة ؟ .

فقال : إنه من الذنب على يقين ، ومن قبول توبته على خطر[4] .

---

(١) وفى نسخة إلا .

(٢) أى المستقبل .

(٣) آية ١١٧ من سورة التوبه .

(٤) وفى نسخة « التوبة » .

وقال الواسطى : طرب داود عليه السلام ، وما هو فيه من حلاوة الطاعة أوقعه فى أنفاس متصاعدة[١]، وهو فى الحالة الثانية[٢] أتم منه فى وقت ما ستر عليه من أمره .

وقال بعضهم : توبة الكذابين على أطراف ألسنتهم يعنى قول « أستغفر الله » .

وسئل أبو حفص عن التوبة ، فقال :

ليس للعبد فى التوبة شىء !! لأن التوبة إليه ، لا منه .

وقيل : أوحى الله سبحانه إلى آدم : يا آدم ورثت ذريتك التعب والنصب ، وورثتهم التوبة ، من دعانى منهم بدعوتك لبيّته كتلبيتك ، يا آدم أحشر التائبين ، من القبور مستبشرين ضاحكين ، ودعاؤهم مستجاب .

وقال رجل لرابعة : إنى أكثرت من الذنوب والمعاصى ، فلو تبت هل يتوب على ؟ فقالت : لا بل لو تاب عليك لتبت .

وأعلم[٣] أن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[٤] .

ومن قارف الزلة فهو من خطئه على يقين ، فإذا تاب ، فإنه من القبول على شك ، لا سيما إذا كان من شرطه وحقه أن يكون مستحقًا لمحبة الحق وإلى[٥] أن يبلغ العاصى محلًا يجد فى أوصافه أمارة محبة الله إياه مسافة بعيدة ، فالواجب إذن على العبد إذا علم أنه ارتكب ما تجب منه التوبة دوام الإنكسار ، وملازمة التنصل والاستغفار ، كما قالوا : « استشعار الوجل إلى الأجل » ، وقال عزَّ من قائل : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾[٦] .

وكان من سنته ﷺ : دوام الاستغفار ، وقال : ﷺ : « إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة » .

سمعت أبا عبدالله الصوفى يقول : سمعت الحسين بن على يقول : سمعت محمد بن أحمد يقول : سمعت عبدالله بن سهل يقول : سمعت يحيى بن معاذ يقول :

زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها :

---

(١) أى حزن طويل .
(٢) وفى نسخة ، وهو على حالته الثانية : وهى حالة حزنه .
(٣) وفى نسخة قال الأستاذ رضى الله عنه : واعلم .
(٤) آية ٢٢٢ من سورة البقرة .
(٥) أى والمسافة من حين التلبس بالمعصية إلى أن يبلغ المحل .
(٦) آية ٣١ سورة آل عمران .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا عبدالله الرازى يقول : سمعت أبا عثمان يقول فى قوله عزوجل ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾[1] قال : رجوعهم ، وإن تمادى بهم الجولان فى المخالفات .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا عمرو الأنماطى يقول : ركب على بن عيسى الوزير فى موكب عظيم فجعل الغرباء يقولون : من هذا ؟ من هذا ؟ فقالت امرأة قائمة على الطريق :

إلى متى تقولون من هذا ؟ من هذا ؟! هذا عبد سقط من عين الله[2]فابتلاه الله بما ترون . فسمع على بن عيسى ذلك ، فرجع إلى منزله واستغنى عن الوزارة ، وذهب إلى مكة وجاور بها .

---

(١) آية ٢٥ من سورة الغاشية .

(٢) أى من حفظه.

باب المجــاهدة

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ، لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[١] .

أخبرنا أبو الحسين على بن أحمد الأهوازى قال : أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، قال : أخبرنا العباس بن الفضل الإسقاطى ، قال : أخبرنا ابن كاسب قال أخبرنا ابن عيينة ، عن على بن زيد ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد الخدرى ، قال : « سئل رسول الله ﷺ ، عن أفضل الجهاد ، قال : « كلمة عدل عند سلطان جائر »[٢] فدمعت عينا أبى سعيد .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

من زين ظاهره بالمجاهدة حسن الله سرائره بالمشاهدة ، قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ، لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[٣] .

واعلم أن من لم يكن فى بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت أبا عثمان المغربى يقول : من ظن أن يفتح له شىء من هذه الطريقة ، أو يكشف له عن شىء منها إلا بلزوم المجاهدة فهو فى غلط .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

من لم يكن له فى بدايته قومة ، لم يكن له فى نهايته جلسة .

وسمعته أيضًا يقول :

قولهم الحركة بركة : حركات الظواهر توجب بركات السرائر .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أحمد بن على بن جعفر يقول : سمعت الحسين بن علويه يقول : قال أبو يزيد البسطامى :

كنت ثنتى عشرة سنة حدَّاد نفسى[٤] وخمس سنين كنت مرآة قلبى ، وسنة أنظر فيما بينهما ،

---

(١) آية ٦٩ من سورة العنكبوت :

(٢) رواه ابن ماجه عن أبى سعيد ، وأحمد والطبرانى والنسائى عن غيره بلفظ كلمة حق .

(٣) آية ٦٩ من سورة العنكبوت .

(٤) يقصد أنه فى بدء أمره كان يجاهد نفسه كما يجاهد الحداد فى طرق الحديد وتشكيله وفق ما يريد .

فإذا فى وسطى زَنَّار[1] ظاهر ، فعملت فى قطعه ثنتى عشرة سنة .

ثم نظرت ، فإذا فى باطنى زُنار[2] فعملت فى قطعه خمس سنين أنظر كيف أقطعه فكشف لى ، فنظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى فكبرت عليهم أربع تكبيرات .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت جعفرًا يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرى يقول :

يا معشر الشباب ، جدوا قبل أن تبلغوا مبلغى فتضعفوا وتقصروا كما ضعفت وقصرت : وكان فى ذلك الوقت[3] لا يلحقه الشباب العبادة .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت عبدالعزيز النجرانى يقول : سمعت الحسن القزاز يقول :

بنى هذا الأمر[4] على ثلاثة أشياء :

أن لا تأكل إلا عند الفاقة ، ولا تنام إلا عند الغلبة ، ولا تتكلم إلا عند الضرورة .

وسمعته يقول : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت محمد بن حامد يقول : سمعت أحمد بن خضرويه يقول : سمعت إبرهيم بن أدهم يقول :

لن ينال الرجل درجة الصالحين ، حتى يجوز ست عقبات :

أولها : أن يغلق باب النعمة ، ويفتح باب الشدة .

والثانى : أن يغلق باب العز ، ويفتح باب الذلّ .

والثالث : أن يغلق باب الراحة ؛ ويفتح باب الجهد .

والرابع : أن يغلق باب النوم ، ويفتح باب السهر .

والخامس : أن يغلق باب الغنى ، ويفتح باب الفقر .

والسادس : أن يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول سمعت جدى أبا عمرو بن نجيد يقول : من كرمت عليه نفسه هان عليه دينه !! .

---

(١) خيط غليظ يشد به الذمى وسطه ويتمنطق به تميزا له من المسلم .

(٢) يقصد ما وجده فى نفسه من استحسانه لأعماله وإعجابه بها فكان ذلك الإعجاب علامة الباطل كالزنار علامة الذمى .

(٣) وفى نسخة « السن » .

(٤) أى علم التصوف .

وسمعته يقول : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول : إذا قال الصوفى بعد خمسة أيام أنا جائع ، فألزموه السوق ، وأمروه بالكسب .

واعلم أن أصل المجاهدة وملاكها[١] : فطم النفس عن المألوفات ، وحملها على خلاف هواها فى عموم الأوقات .

وللنفس صفتان مانعتان لها من الخير : انهماك فى الشهوات ، وامتناع عن الطاعات فإذا جمحت عند ركوب الهوى وجب كبحها بلجام التقوى ، وإذا حرنت عند القيام بالموافقات يجب سوقها على خلاف الهوى ، وإذا ثارت عند غضبها ، فمن الواجب مراعاة حالها ، فما من منازلة[٢] أحسن عاقبة من غضب يكسر سلطانه بخلق حسن ، وتخمد نيرانه برفق ، فإذا استحلت شراب الرعونة فضاقت ، إلا عن إظهار مناقبها والتزين لمن ينظر إليها ويلاحظها ، فمن الواجب كسر ذلك عليها ، وإحلالها بعقوبة الذل بما يذكرها من حقارة قدرها ، وخساسة أصلها ، وقذارة فعلها .

وجهد العوام فى توفية الأعمال وقصد الخواص إلى تصفية الأحوال فإن مقاساة الجوع والسهر سهل يسير ، ومعالجة الأخلاق والتنقى[٣] من سفسافها[٤] صعب شديد .

ومن غوامض آفات النفس : ركونها إلى استحلاء[٥] المدح ، فإن من تحسى منه جرعة حمل السموات والأرضين على شفرة من أشفاره[٦] .

وأمارة ذلك : أنه إذا انقطع عنه ذلك الشرب[٧] آل حاله إلى الكسل والفشل .

وكان بعض المشايخ يصلى فى مسجده فى الصف الأول سنين كثيرة ، فعاقه يوما عن الابتكار إلى المسجد عائق ، فصلى فى الصف الأخير ، فلم ير بعد ذلك مدة ، فسئل عن السبب ، فقال : كنت أقضى صلاة كذا ، وكذا سنة صليتها وعندى أنى مخلص فيها لله ، فداخلنى يوم تأخرى عن المسجد من شهود الناس إياى فى الصف الأخير نوع خجل ، فعلمت أن نشاطى طول عمرى إنما كان رؤيتهم فقضيت صلواتى .

---

(١) ملاك الأمر بالكسر : قوامه .
(٢) نزول فى مرتبة .
(٣) وفى نسخة والترقى .
(٤) سفسافها : أى دنيئها .
(٥) وفى نسخة استجلاء .
(٦) أى أطراف أجفانه .
(٧) أى نصيبه من المدح .

ويحكى عن أبى محمد المرتعش ، أنه قال :

حججت كذا ، وكذا حجة على التجريد[1] ، فبان لى أن جميع ذلك كان مشوبًا بحظى ؛وذلك : أن والدتى سألتنى يومًا أن أستقى لها جرَّة ماء فثقل ذلك على نفسى ، فعلمت أن مطاوعة نفسى فى الحجات كانت لحظ ، وشوب لنفسى ، إذ لو كانت نفسى فانية[2] لم يصعب عليها ما هو حق فى الشرع .

وكانت امرأة قد طعنت فى السن ، فسئلت عن حالها ، فقالت :

كنت فى حال الشباب أجد من نفسى نشاطًا وأحوالاً ؛ أظنها قوة الحال ، فلما كبرت زالت عنى ، فعلمت أن ذلك كان قوة الشباب ، فتوهمتها أحوالا .

سمعت الشيخ أبا علىٍّ الدقاق يقول :

ما سمع هذه الحكاية أحد من الشيوخ إلا رقَّ لهذه العجوز ، وقال : إنها كانت منصفه .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن عبدالله بن شاذان يقول : سمعت يوسف ابن الحسين يقول : سمعت ذا النون المصرى يقول :

ما أعز الله عبدًا بعز هو أعز له من أن يدله على ذل نفسه ، وما أذل الله عبدًا بذل هو أذل له من أن يحجبه عن ذل نفسه .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن عبدالله الرازى يقول : سمعت إبراهيم الخواص يقول : ما هالنى شئ إلا ركبته[3] .

وسمعته يقول : سمعت عبدالله الرازىَّ يقول : سمعت محمد بن الفضل يقول ، الراحة : هو الخلاص من أمانى النفس .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن يقول : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول : دخلت الآفة على الخلق من ثلاثة :

سقم الطبيعة ، وملازمة العادة ، وفساد الصحبة .

فسألته : ما سقم الطبيعة ؟

فقال : أكل الحرام .

---

(١) أى لا آخذ زادًا ولا راحلة مقياسا فيها الجوع والتعب .

(٢) أى عن حظها .

(٣) أى ما أفزعنى شىء يجوزه الشرع من سهر أو جوع أو نحو ذلك من ألوان المجاهدة إلا فعلته ومارسته .

فقلت : ما ملازمة العادة ؟

فقال : النظر ، والاستمتاع بالحرام ، والغيبة .

قلت : فما فساد الصحبة ؟

قال : كلما هاجت فى النفس الشهوة تبعتها .

وسمعته يقول : سمعت النَّصراباذى يقول :

سجنك نفسك . فإذا خرجت منها وقعت فى راحة أبدية[١] .

وسمعته يقول : سمعت محمد الفراء يقول : سمعت أبا الحسين الورّاق يقول :

كان أجل أحكامنا فى مبادئ أمرنا فى مسجد أبى عثمان الحيرى الإيثارُ بما يفتح علينا ، وأن لا نبيت على معلوم ، ومن استقبلنا بمكروه لا ننتقم لأنفسنا ، بل نعتذر إليه ، ونتواضع له ، وإذا وقع فى قلوبنا حقارة لأحد قمنا بخدمته والإحسان إليه حتى يزول .

وقال أبو حفص : النفس ظُلْمة كلها ، وسراجها سرها ، ونور سراجها التوفيقُ ، فمن لم يصحبه فى سرِّه[٢] توفيق من ربه كان ظلمة كلَّه .

قال الأستاذ الإمام القشيرى :

معنى قوله « سراجها سرها » يريد : سرَّ العبد الذى بينه وبين الله تعالى ، وهو محل إخلاصه ، وبه يعترف العبد أن الحادثات بالله لا بنفسه ولا من نفسه ؛ ليكون متبرئا من حوْله وقوته على استدامة أوقاته ، ثم بالتوفيق يعتصم من شرور نفسه ، فإن من لم يدركه التوفيق لم ينفعه علمه بنفسه ، ولا بربه ، ولهذا قال الشيوخ : من لم يكن له سر فهو مُصر[٣] .

وقال أبو عثمان : لا يرى أحد عيب نفسه وهو مستحسن من نفسه شيئًا ، وإنما يرى عيوب نفسه من يتهمها فى جميع الأحوال .

وقال أبو حفص : ما أسرع هلاك من لايعرف عيبه ، فإن المعاصى بريد[٤] الكفر .

وقال أبو سليمان : ما استحسنت من نفسى عملا فاحتسبت[٥] به .

وقال السرى : إياكم وجيران الأغنياء ، وقرَّاء الأسواق ، وعلماء الأمراء :

وقال ذو النون المصرى : إنما دخل الفساد على الخلق من ستة أشياء :

---

(١) وفى نسخة إلى الابد .

(٢) أى معاملته لربه .

(٣) أى على المخالفات .

(٤) طريق .

(٥) فاعتددت .

الأول : ضعف النية بعمل الآخرة .

والثانى : صارت أبدانهم رهينة لشهواتهم .

والثالث : غلبهم طول الأمل مع قرب الأجل .

والرابع : آثروا رضا المخلوقين على رضا الخالق .

والخامس : اتبعوا أهواءهم ونبذوا سنة نبيهم ﷺ ، وراء ظهورهم .

والسادس : جعلوا قليل زلّات السلف حجة لأنفسهم ، ودفنوا كثير مناقبهم .

باب الخلوة والعزلة

أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد بن عبدان ، قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصرى ، قال : حدَّثنا عبدالعزيز بن معاوية قال : حدّثنا القعنبى قال : حدثنا عبدالعزيز بن أبى حازم عن أبيه ، عن بعجة بن عبدالله بن بدر الجهنى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من خير معايش الناس كلِّهم رجلًا آخذًا بعنان فرسه فى سبيل الله ، إن سمع فزعة أو هيعة كان على متن[1] فرسه يبتغى الموت أو القتل فى مظانه ، أو رجلًا فى غنيمة له فى رأس شعفة[2] من هذه الشعاف ، أو فى بطن واد من هذه الأودية ، يقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، ويعبُد ربَّه حتى يأتيه اليقين[3] ، ليس من الناس إلا فى خير »[4] .

قال الأستاذ :

الخلوة : صفة أهل الصفوة والعزلة : من أمارات الوصلة .

ولابد للمريد - فى ابتداء حاله - من العزلة عن أبناء جنسه ، ثم فى نهايته - من الخلوة ؛ لتحققه بأنسه .

ومن حَقِّ العبد - إذا آثر العزلة - أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره ولا يقصد سلامته من شر الخلق ، فإن الأول من القسمين : نتيجة استصغار نفسه ، والثانى . شهود مزيته على الخلق ، ومن استصغر نفسه فهو متواضع ، ومن رأى لنفسه مزية على أحد ، فهو متكبر .

ورؤى بعض الرهبان ، فقيل له : إنك راهب .

فقال . لا ، بل أنا حارس كلب[5] ؛ إن نفسى كلب يعقر الخلق أخرجتها من بينهم ، ليسلموا منها .

ومرّ إنسان ببعض الصالحين ؛ فجمع ذلك الشيخ ثيابه منه ، فقال له الرجل : لم تجمع عنى ثيابك ، ليست ثيابى نجسة ؟

---

(١) ظهر .
(٢) رأس الجبل .
(٣) الموت .
(٤) رواه مسلم بنحوه .
(٥) يقصد نفسه .

فقال الشيخ : وهمتَ فى ظنك ، ثيابى هى النجسة . جمعتها عنك ؛ لئلا تنجس ثيابك ، لا لكى لا تنجس ثيابى .

ومن آداب العزلة :

أن يحصل من العلوم ما يصحح به عقد توحيده ، لكى لا يستهويه الشيطان بوساوسه ، ثم يحصل من علوم الشرع ما يؤدى به فرضه ، ليكون بناء أمره على أساس محكم ، والعزلة فى الحقيقة : اعتزال الخصال المذمومة فالتأثير[١] لتبديل الصفات ، لا للتنائى عن الأوطان ، ولهذا قيل : من العارفُ ؟ قالوا : كائن بائن ، يعنى : كائن مع الخلق ، بائن عنهم بالسرّ .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقّاق ، رحمه الله ، يقول :

البس مع الناس ما يلبسون ، وتناول مما يأكلون ، وانفرد عنهم بالسر[٢] .

وسمعته يقول : جاءنى إنسان ، وقال : جئتك من مسافة بعيدة فقلت : ليس هذا الحديث[٣] من حيث قطع المسافة[٤] ومقاساة الأسفار فارقْ نفسك ولو بخطوة ، فقد حصل مقصودك .

ويحكى عن أبى يزيد قال : رأيت ربى عزوجلَّ فى المنام ، فقلت : كيف أجدك ؟ فقال : فارقْ نفسك وتعال .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول سمعت أبا عثمان المغربى يقول : من اختار الخلوة على الصحبة ينبغى أن يكون خاليًا من جميع الأذكار إلا ذكر ربه ، وخاليًا من جميع الإرادات إلا رضا ربِّه ، وخاليًا من مطالبة النفس من جميع الأسباب ، فإن لم يكن بهذه الصفة ، فإن خلوته توقعه فى فتنة أو بلية .

وقيل : الانفراد فى الخلوة أجمع لدواعى السلوة .

وقال يحيى بن معاذ : انظر : أنسك بالخلوة ، أو أنسك معه فى الخلوة ،

فإن كان أنسك بالخلوة ذهب أنسك إذا خرجت منها ، وإن كان أنسك به فى الخلوة استوت لك الأماكن فى الصحارى والبرارى .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت محمد بن حامد يقول : جاء رجل إلى زيارة أبى بكر الورَّاق ، فلما أراد أن يرجع ، قال له : أوصنى ، فقال وجدت خير الدنيا والآخرة فى الخلوة والقلة ، وشرَّهما فى الكثرة والاختلاط .

---

(١) أى تأثير العزلة .

(٢) أى فيما بينك وبين الله .

(٣) أى حصول علم الصوفية .

(٤) وفى نسخة المسافات .

وسمعته يقول : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت الجريرى وقد سئل عن العزلة ، فقال : هى الدخول بين الزحام وتمنع[١] سرك أن لا يزاحموك ، وتعزل نفسك عن الآثام ، ويكون شرك مربوطا بالحق .

وقيل ؛ من آثر العزلة[٢] حصل العزلة[٣] .

وقال سهل : لا تصح الخلوة إلا بأكل الحلال ، ولا يصح أكل الحلال إلا بأداء حق الله .

وقال ذو النون المصرى : لم أر شيئًا أبعث على الإخلاص من الخلوة .

وقال أبو عبدالله الرملى :

ليكن خدنك[٤] الخلوة ، وطعامك الجوع ، وحديثك المناجاة فإما أن تموت ؛ وإما أن تتصل بالله سبحانه .

وقال ذو النون : ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة ، كمن احتجب عنهم بالله .

سمعت أبا عبدالرحمن السلمى يقول سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت جعفر بن نصير يقول : سمعت الجنيد يقول :

مكابدة العزلة أيسرُ من مداراة الخلطة .

وقال مكحول : إن كان فى مخالطة الناس خير فإن فى العزلة السلامة .

وقال يحيى بن معاذ : الوحدة جليس الصديقين .

سمعت الشيخ أبا على الدقاق[٥] يقول : سمعت الشبلى يقول :

الإفلاس .. الإفلاس يا ناس .

فقيل له : يا أبا بكر ، ما علامة الإفلاس ؟

قال : من علامة الإفلاس الاستئناس بالناس .

وقال يحيى بن أبى كثير : من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم راياهم[٦] .

---

(١) وفى نسخة « وتحفظ » .

(٢) أى فراغ القلب عن الشواغل ولو مع الاختلاط .

(٣) أى فراغ القلب من الناس لامتلائه بالله .

(٤) أى رفيقك .

(٥) فى نسخة سمعت أبا عبدالرحمن يقول : سمع أبو بكر الشبلى يقول :

(٦) من المراءاة وهى المداهنة .

وقال شعيب بن حرب . دخلت على مالك بن مسعود بالكوفة ، وهو فى داره وحده ، فقلت له : أما تستوحش وحدك ؟

فقال : ما كنت أرى[1] أن أحدًا يستوحش مع الله .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا عمرو الأنماطى يقول : سمعت الجنيد يقول :

من أراد أن يسلم له دينه ، ويستريح بدنه وقلبه ، فليعتزل الناس ، فإن هذا زمان وحشة ، والعاقل من اختار فيه الوحدة .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : قال أبو يعقوب السوسى :

الانفراد لا يقوى عليه إلا الأقوياء ، ولأمثالنا : الاجتماع أوفر وأنفع ، يعمل بعضهم على رؤية بعض[2] .

وسمعته يقول : سمعت أبا عثمان سعيد بن أبى سعيد يقول : سمعت أبا العباس الدامغانى يقول : أوصانى الشبلى ، فقال :

الزم الوحدة ، وامح اسمك عن القوم ، واستقبل الجدار[3] حتى تموت .

وجاء رجل إلى شعيب بن حرب ، فقال له : ما جاء بك ؟

فقال أكون معك .

قال : يا أخى ، إن العبادة لا تكون بالشركة ، ومن لم يستأنس بالله لم يستأنس بشىء ، حكى أن بعضهم قيل له : ما أعجب ما لقيت فى سياحتك ؟

فقال لهم : لقينى الخضر ، فطلب منى الصحبة : فخشيت أن يفسد على توكلى .

وقيل لبعضهم : هل هنا أحد تستأنس به ؟

فقال : نعم ومد يده إلى مصحفه ووضعه فى حجره ، وقال : هذا .

وفى معناه أنشدوا :

وكـتـبـك حـولى لا تـفـارق مـضـجـعـى
وفـيـهـا شـفـاء لـلـذى أنـا كـاتـم

---

(١) أى أظن .
(٢) فتدفعهم الرؤية للعمل .
(٣) القبلة .

وقال رجل لذى النون المصرى .

متى تصح لى العزلة ؟

فقال : إذا قويت على عزلة نفسك[1] .

وقيل لابن المبارك : ما دواء القلب ؟

فقال : قلة الملاقاة للناس .

وقيل : إذا أراد الله أن يَنقل العبد من ذل المعصية إلى عز الطاعة آنسه بالوحدة وأغناه بالقناعة وبصره بعيوب نفسه ، فمن أعطى ذلك فقد أعطى خير الدنيا والآخرة .

---

(١) وعزلتها بمفارقة أخلاقها الذميمة .

باب التقـوى

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[١] .

وأخبرنا أبو الحسين على بن أحمد بن عبدان ، قال أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، قال : أخبرنا محمد بن الفضل بن جابر قال : حدثنا ابن عبدالأعلى القرشي ، قال : حدثنا يعقوب العمى ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن أبى سعيد الخدرى قال :

جاء رجل إلى النبى ﷺ ، فقال :

يانبىَّ الله ، أوصنى .

فقال : عليك بتقوى الله ؛ فإنه جِماع[٢] كلِّ خير ، وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية[٣] المسلم ، وعليك بذكر الله ، فإنه نور لك »[٤] .

وأخبرنا على بن أحمد بن عبدان ، قال أخبرنا أحمد بن عبيد ، قال : أخبرنا عباس بن المفضَّل الإسقاطى ؛ قال : حدثنا أحمد بن يونس قال :

حدثنا أبو هرمز نافع بن هرمز ، قال : سمعت أنسا رضى الله عنه ؛ يقول : « قيل يانبى الله من آل محمد ؟ قال : كل تقى »[٥] .

فالتقوى جماع الخيرات .

وحقيقة الاتقاء[٦] التحرز بطاعة الله عن عقوبته ؛ يقال : اتقي فلان بترسه .

وأصل التقوى : اتقاء الشرك ؛ ثم بعده : اتقاء المعاصى والسيئات ، ثم اتقاء الشبهات ؛ ثم يدع بعده الفضلات[٧] .

كذلك سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ؛ يقول ، سمعته يقول :

---

(١) آية ١٣ من سورة الحجرات .
(٢) أى يجمع خيرى الدنيا والآخرة .
(٣) أى شعاره وانقطاعه للعبادة .
(٤) رواه أبو يعلى فى مسنده بسند ضعيف .
(٥) رواه الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف .
(٦) وفى نسخة التقوى .
(٧) أى : الفضول ؛ وفى نسخة تدع .

ولكلٍّ قسم من ذلك باب ، وجاء فى تفسير قوله عزَّ وجل : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾[١] إن معناه : أن يطاع فلا يعصى ؛ ويُذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى يقول : سمعت أحمد بن على بن جعفر يقول : سمعت أحمد بن عاصم يقول : سمعت سهل بن عبدالله يقول :

لا معين إلاالله ، ولا دليل إلا رسول الله ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا الصبر عليه[٢] .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت الكتانى يقول :

قسمت الدنيا على البلوى وقسمت الآخرة على التقوى :

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر الرازىَّ يقول : سمعت الجريرى يقول :

من لم يُحْكم بينه وبين الله التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة .

وقال النصراباذى :

التقوى : أن يتقى العبد ما سوى الله عزَّ وجلَّ .

وقال سهل :

من أراد أن تصحَّ[٣] له التقوى فليترك الذنوب كلّها .

وقال النصراباذى :

من لزم التقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا ، لأن الله سبحانه يقول : ﴿ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[٤] .

وقال بعضهم : من تحقق فى التقوى هون الله على قلبه الإعراض عن الدنيا .

وقال أبو عبدالله الروذبارى :

التقوى : مجانبة ما يبعدك عن الله .

---

(١) آية ١٠٢ من سورة آل عمران .
(٢) أى على العمل .
(٣) وفى نسخة يفتح .
(٤) آية ٣٢ من سورة الأنعام .

وقال ذو النون المصرى :

التقى : من لايدنس ظاهره بالمعارضات ، ولا باطنه بالعلالات[١] ويكون واقفًا مع الله موقف الاتفاق .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا الحسن الفارسى يقول : سمعت ابن عطاء يقول :

للتقوى ظاهر وباطن ، فظاهره : محافظة الحدود . وباطنه النية والإخلاص .

وقال ذو النون :

ولا عيش[٢] إلا مع رجال قلوبهم   تحن إلى التقوى وترتاح للذكر
سكون إلى روح اليقين وطيبه   كما سكن الطفل الرضيع إلى الحجر

وقيل : يستدل على تقوى الرجل بثلاث :

حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر على ما قد فات .

وقال طلق بن حبيب :

التقوى : عمل بطاعة الله على نور من الله ، مخافة عقاب الله .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، يقول : سمعت محمدًا الفراء يحكى عن أبى حفص[٣] : أنه قال : التقوى بالحلال المحض ، لا غير .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا الحسين الزنجانى يقول : من كان رأس ماله التقوى كلّت الألسنُ عن وصف ربحه .

وقال الواسطى :

التقوى : أن يتقى من تقواه ، يعنى : من رؤية تقواه . والمتقى مثل ابن سيرين ؛ اشترى أربعين حبا[٤] سمنا ، فأخرج غلامه فأرة من حب فسأله : من أى حب أخرجتها ؟ فقال لا أدرى !! فصبها كلها على الأرض .

ومثل ابن يزيد[٥] :

اشترى بهمذان حب القرطم ، ففضل منه شىء ، فلما رجع إلى « بسطام » رأى فيه نملتين ، فرجع إلى همذان فوضع النملتين .

(١) وهى ما تعللت به .
(٢) المراد بالعيش الهنيىء .
(٣) وفى نسخة جعفر .
(٤) بضم أوله : أى خابية .
(٥) البسطامى .

ويحكى أن أبا حنيفة كان لا يجلس فى ظل شجرة غريمة . ويقول : قد جاء فى الخبر : « كلُّ قرض جر نفعًا فهو ربا » .

وقيل : إن أبا يزيد غسل ثوبه فى الصحراء مع صاحب له .

فقال له صاحبه : تعلق الثوب فى جدار[1] الكرم .

فقال لا ، لا تغرز الوتد فى جدار الناس .

فقال : نعلقه فى الشجر .

فقال : لا ، إنه يكسر الأغصان .

فقال : نبسطه على الأذْخِر[2] .

فقال : لا ؛ إنه علف الدواب ، لا نستره عنها .

فولى ظهره إلى الشمس والقميص على ظهره ، حتى جف جانب ، ثم قلبه حتى جف الجانب الآخر .

وقيل : إن أبا يزيد دخل يوما الجامع ، فغرز عصاه فى الأرض فسقطت ، ووقعت على عصا شيخ بجنبه ركز عصاه فى الأرض ، فألقتها ، فانحنى الشيخ وأخذ عصاه ، فمضى أبو يزيد إلى بيت الشيخ واستحله[3] ، وقال :

كان السبب فى انحنائك تفريطى فى غرز عصاى ، حيث احتجت إلى أن تنحنى .

ورؤى عتبة الغلام بمكان يتصبب عرقا فى الشتاء ، فقيل له فى ذلك .

فقال : إنه مكان عصيت فيه ربى !! .

فسئل عنه فقال :

كشطت من هذا الجدار قطعة طين ، غسل بها ضيف لى يده ، ولم أستحل من صاحبه .

وقال إبراهيم بن أدهم :

بت ليلة تحت الصخرة ببيت المقدس ؛ فلما كان بعض الليل نزل ملكان ، فقال أحدهما لصاحبه : من ها هنا ؟

---

(١) وفى نسخة جدران .

(٢) نبت تأكله السائمة .

(٣) رجاه أن يسامحه .

فقال الآخر : إبراهيم بن أدهم .

فقال : ذاك الذى حط الله سبحانه درجة من درجاته .

فقال : لم ؟

قال : لأنه اشترى بالبصرة تمرًا ، فوقعت تمرة على تمرة من تمر البقال ، فلم يردها على صاحبها .

قال إبراهيم : فمضيت إلى البصرة ، واشتريت التمر من ذلك الرجل ، وأوقعت تمرة على تمرة ، ورجعت إلى بيت المقدس ، وبت فى الصخرة .

فلما كان بعض الليل ، إذ أنا بملكين[1] نزلا من السماء .

فقال أحدهما لصاحبه : من ها هنا ؟

فقال الآخر : إبراهيم بن أدهم : فقال : ذلك الذى رد الله مكانه ، ورفُعت درجته .

وقيل : التقوى على وجوه :

للعامة : تقوى الشرك ، وللخاصة[2] : تقوى المعاصى ، وللأولياء : تقوى التوسل بالأفعال ، وللأنبياء تقوى نسبة الأفعال ؛ إذ تقواهم منه إليه .

وعن أمير المؤمنين على ، رضى الله عنه ، قال

سادة الناس فى الدنيا الأسخياء ، وسادة الناس فى الآخرة الأتقياء .

أخبرنا على بن أحمد الأهوازى ، قال : أخبرنا أبو الحسن البصرى قال : أخبرنا بشر بن موسى ، قال : حدثنا محمد بن عبدالله بن المبارك ، عن يحيى بن أيوب ، عن عبيدالله بن رحو ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ؛ عن النبى ﷺ أنه قال :

« من نظر إلى محاسن امرأة فغض بصره فى أول مرة ، أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها فى قلبه »[3] .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا العباس محمد بن الحسين ، يقول : سمعت محمد ابن عبدالله الفرغانى يقول : كان الجنيد جالسًا مع رويم ، والجريرى ، وابن عطاء ، فقال الجنيد :

---

(١) وفى نسخة : بالملكين .

(٢) وفى نسخة للخواص .

(٣) رواه أحمد .

مانجا من نجا إلا لصدق اللجا[١] ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الذينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِماَ رَحُبَتْ ﴾[٢] .. الآية .

وقال رويم ، رحمه الله : ما نجا من نجا إلا بصدق التقى ، قال تعالى : ﴿ وَيُنَجِّى اللهُ الذينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ .. ﴾[٣] .

وقال الجريرى : ما نجا من نجا إلا بمراعاة الوفاء[٤] ، قال الله تعالى : ﴿ وَالذينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾[٥] .

وقال ابن عطاء : ما نجا من نجا إلا بتحقيق الحياء من الله قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى ﴾[٦] .

وقال الأستاذ الإمام[٧] : ما نجا من نجا إلا بالحكم والقضاء ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى ﴾[٨] الآية .

وقال أيضًا : ما نجا من نجا إلا بما سبق له من الاجتباء ، قال الله تعالى : ﴿ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[٩] .

---

(١) أى الالتجاء .
(٢) آية ١١٨ من سورة التوبة .
(٣) آية ٦١ سورة الزمر .
(٤) أى بالعهود .
(٥) آية ٢٠ من سورة الرعد .
(٦) آية ١٤ من سورة العلق .
(٧) أبو القاسم القشيرى .
(٨) آية ١٠١ من سورة الأنبياء .
(٩) آية ٨٧ من سورة الأنعام .

باب الورع

أخبرنا أبو الحسين عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكى ، قال : حدثنا محمد ابن داود بن سليمان الزاهد قال أخبرنا محمد بن الحسين بن قتيبة ، قال : حدثنا أحمد بن أبي طاهر الخراساني . قال : حدثنا يحيى بن العيزار قال : حدثنا محمد بن يوسف الفريابيّ ، عن سفيان ، عن الأجلح ، عن عبد الله بن بريده ، عن أبي الأسود الدؤلي ، عن أبي ذرٍّ قال : قال رسول الله ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[١] .

قال الأستاذ الإمام رضى الله عنه : أما الورع ، فإنه : ترك الشبهات .

كذلك قال إبراهيم بن أدهم : الورع ترك كل شبهة ، وترك ما لا يعنيك[٢] هو ترك الفضلات .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : « كنا ندع سبعين بابًا من الحلال مخافة أن نقع فى باب من الحرام » . وقال ﷺ لأبى هريرة : « كن ورعًا تكن أعبد الناس »[٣] .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، يقول سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت جعفر بن محمد يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرى يقول :

كان أهل الورع فى أوقاتهم أربعة :

حذيفة المرتعش[٤] ، ويوسف بن أسباط ، وإبراهيم بن أدهم ، وسليمان الخواص ، فنظروا فى الورع ، فلما ضاقت عليهم الأمور فزعوا إلى التقلل[٥] .

وسمعته يقول : سمعت أبا القاسم الدمشقى يقول : سمعت الشبلى يقول : الورع أن تتورَّع عن كل ما سوى الله تعالى .

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه وغيرهما بسند صحيح .

(٢) أى والمراد بترك ما لايعنى فى الحديث السابق لرسول الله ﷺ هو ترك الفضلات أى ما لاتدعو إليه حاجة دينية وترك المحرم والمكروه ما فيه شبهة .

(٣) البيهقى فى الشعب بسند ضعيف .

(٤) فى نسخة . المرعشى .

(٥) أى فلما بالغوا فى تقصى الحلال من كسبهم ، ولم يقدروا على صفاته لجئوا حسب إمكانهم إلى القليل الصافى من ذلك الكسب .

وسمعته يقول : أخبرنا أبو جعفر الرازى قال : حدثَّنا العباس بن حمزة قال : حدثنا أحمد ابن أبي الحوارى قال : حدثنا إسحق بن خلف ؛ قال :

الورع ، المنطق : أشد منه فى الذهب والفضة ، وَالزهد فى الرياسة : أشد منه فى الذهب والفضة ، لأنك تبدلها فى طلب الرئاسة .

وقال أبو سليمان الدارانى : الورع : أول الزهد ، كما أن القناعة : طرف من الرضا .

وقال أبو عثمان : ثواب الورع خفَّة الحساب .

وقال يحيى بن معاذ : الورع : الوقوف على حدِّ العلم من غير تأويل .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت الحسين بن أحمد بن جعفر يقول : سمعت محمد بن داود الدينورى يقول . سمعت عبد الله بن الجَلَّاء يقول :

أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة لم يشرب من ماء زمزم إلا ما استقاه بركَوته[1] ، ورشائه[2] ، ولم يتناول من طعام جلب من مصر[3] .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت على بن موسى التاهرتى يقول : وقع من عبد الله بن مروان فلس فى بئر قذرة ، فاكترى عليه بثلاثة عشر دينارًا حتى أخرجه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : كان عليه اسم الله تعالى .

وسمعته يقول : سمعت أبا الحسن الفارسى يقول : سمعت بن علوية يقول : سمعت يحيى ابن معاذ يقول : الورع على وجهين :

ورع فى الظاهر ؛ وهو : أن لا يتحرك إلا لله تعالى .

وورع فى الباطن ، وهو : أن لا يدخل قلبك سوى الله تعالى .

وقال يحيى بن معاذ :

من لم ينظر فى الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء .

وقيل : من دق فى الدين نظره جل فى القيامة خطره[4] .

وقال ابنِ الجلاء : من لم يصحبه التقى فى فقره أكل الحرام النص[5] .

---

(١) بدلوه .

(٢) حبله .

(٣) أى من المدن .

(٤) قدره ومكانته .

(٥) الصرف .

وقال يونس بن عبيد : الورع : الخروج عن كل شبهة ، ومحاسبة النفس فى كل طرفة[١] .

وقال سفيان الثورى : ما رأيت أسهل من الورع : ماحاك[٢] فى نفسك[٣] تركته ، وقال معروف الكرخى : احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذمِّ .

وقال بشر بن الحارث : أشد الأعمال ثلاثة :

الجود فى القلَّة ، والورع فى الخلوة ، وكلمة الحقِّ عند من يخاف منه ويرجى .

وقيل : جاءت أخت بشر الحافى إلى أحمد بن حنبل وقالت :

إنا نغزل على سطوحنا ، فتمر بنا مشاعل الظاهرية ، ويقع الشعاع علينا ، أفيجوز لنا الغزل فى شعاعها ؟.

فقال أحمد : من أنت ؟ عافاك الله تعالى .

فقالت : أخت بشر الحافى .

فبكى أحمد وقال : من بيتكم يخرج الورع الصادق ، لا تغزلى فى شعاعها .

وقال على العطار : مررت بالبصرة فى بعض الشوارع ، فإذا مشايخ قعود وصبيان يلعبون ، فقلت : أما تستحون من هؤلاء المشايخ ؟!

فقال صبى من بينهم : هؤلاء المشايخ قل ورعهم فقلت هيبتهم .

وقيل : إن مالك بن دينار مكث بالبصرة أربعين سنة ، فلم يصح له أن يأكل شيئًا من تمر البصرة ، ولا من رطبها ، حتى مات ولم يذقه ، وكان إذا انقضى وقت الرطب قال :

يا أهل البصرة ، هذا بطنى ما نقص منه شىء ولا زاد فيكم .

وقيل لإبراهيم بن أدهم : ألا تشرب من ماء زمزم ؟

فقال : لو كان لى دلو لشربت منه .

سمعت الأستاذ أبا الدقَّاق يقول :

كان الحارث المحاسبى إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شبهة ضربَ على رأس إصبعه عرق فيعلم أنه غير حلال .

---

(١) لحظة .

(٢) تحرك .

(٣) مما تكره أن يطلع عليه الناس .

وقال : إن بشرًا الحافىَّ دعى إلى دعوة ، فوضع بين يديه طعام ، فجهد أن يمد يده إليه ، فلم تمتد ، ففعل ذلك ثلاث مرات ، فقال رجل يعرف ذلك منه :

إن يده لا تمتد إلى طعام فيه شبهة ، ما كان أغنى صاحب هذه الدعوة أن يدعو هذا الشيخ ؟!

أخبرنا أحمد بن محمد بن يحيى الصوفى ، قال : سمعت عبد الله بن على بن يحيى التميمى قال سمعت أحمد بن محمد بن سالم بالبصرة يقول : سئل سهل بن عبد الله عن الحلال الصافى ، فقال : هو الذى لا يعصى الله تعالى فيه .

وقال سهل : الحلال الصافى : الذى لا ينسى الله تعالى فيه .

ودخل الحسن البصرى مكة ، فرأى غلامًا من أولاد على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظ الناس ، فوثب عليه الحسن وقال له :

ما ملاك الدين ؟ فقال : الورع . فقال له : فما آفة الدين ؟ فقال : الطمع !. فتعجب الحسن منه .

وقال الحسن : مثقال ذرة من الورع السالم[1] خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة .

وأوحى الله سبحانه ، إلى موسى ، عليه الصلاة والسلام : لم يتقرب إلى المتقربون بمثل الورع والزهد .

وقال : أبو هريرة : جلساء الله تعالى غدًا : أهل الورع والزهد .

وقال : سهل بن عبد الله : من لم يصحبه الورع أكل رأس الفيل ولم يشبع !!

وقيل : حمل إلى عمر بن عبد العزيز مسك من الغنائم ، فقبض على مشامه[2] .

وقال : إنما ينتفع من هذا بريحه ، وأنا أكره أن أجد ريحه دون المسلمين .

وسئل أبو عثمان الحيرى عن الورع ، فقال :

كان أبو صالح حمدون عند صديق له ، وهو فى النزع ، فمات الرجل ، فنفث أبو صالح فى السراج ، فقيل له فى ذلك ، فقال :

إلى الآن كان الدهن له فى المسرجة ، ومن الآن صار للورثة . اطلبوا دهنا غيره .

---

(١) أى الخالص من الرياء والكبر .

(٢) أنفه .

وقال كهمس :

أذنبتُ ذنبًا أبكى عليه منذ أربعين سنة ؛ وذلك : أنه زارنى أخ لى ؛ فاشتريت لأجله بدانق سمكة مشوية ، فلما فرغ أخذت قطعة طين من جدار[1] جار لى حتى غسل بها يده ولم أستحله .

وقيل : كان رجل يكتب رقعة ، وهو فى بيت بكراء ، فأراد أن يُترب الكتاب من جدار البيت ، فخطر بباله أن البيت بالكراء .. ثم إنه خطر بباله أنه لا خطر لهذا ، فترب الكتاب ، فسمع هاتفًا يقول : سيعلم المستخف بالتراب ما يلقاه غدًا من طول الحساب !!

ورهن أحمد بن حنبل ، رحمه الله تعالى ، سِطلا له عند بقال بمكة .

حرسها الله تعالى ، فلما أراد فكاكه أخرج البقال إليه سطلين ، وقال : خذ أيهما هو لك .

فقال أحمد أشكل علىَّ سطلى ، فهو لك ، والدراهم لك .

فقال البقال : سطلك هذا ، وأنا أردت أن أجربك .

فقال : لا آخذه . ومضى . وترك السطل عنده .

وقيل : سيب ابن المبارك دابة قيمتها كثيرة ، وصلى صلاة الظهر ، فرتعت الدابة فى زرع قرية سلطانية[2] ، فترك ابن المبارك الدابة ولم يركبها .

وقيل : رجع ابن المبارك من « مرو » إلى « الشام » فى قلم[3] استعاره فلم يرده على صاحبه .

واستأجر النخعى دابة ، فسقط سوطه من يده ، فنزل ، وربط الدابة ، ورجع فأخذ السوط ، فقيل له : لو حولت الدابة إلى الموضع الذى سقط فيه السوط فأخذته كان أسهل لك فقال : إنما استأجرتها لأمضى هكذا .. لا هكذا !.

وقال أبو بكر الدقاق :

تهت فى تيه بنى إسرائيل خمسة عشر يومًا .. فلما وافيت الطريق ، استقبلنى جندى فسقانى شربة من ماء ، فعادت قسوتها على قلبى وتألمت ثلاثين سنة .

وقيل : خاطت رابعة العدوية شقا فى قميصها فى ضوء مشعلة سلطان ، ففقدت قلبها[4] زمانًا ، حتى تذكرت ، فشقت قميصها ، فوجدت قلبها .

---

(١) وفى نسخة من دار .
(٢) أى زرعت بأموال السلطان .
(٣) أى بسبب .
(٤) أى حضوره .

ورؤى سفيان الثورى فى المنام ، وله جناحان يطير بهما فى الجنة من شجرة إلى شجرة .

فقيل له : بم نلت هذا ؟ : فقال : بالورع .

ووقف حسان بن أبى سنان على أصحاب الحسن ، فقال : أى شىء أشد عليكم ؟

فقالوا : الورع .

فقال : ولا شىء أخف على منه .

فقالوا : فكيف ؟

فقال : لم أرو من نهركم منذ أربعين سنة .

وكان حسان بن أبى سنان لا ينام مضطجعًا ، ولا يأكل سمينا ، ولا يشرب ماء باردًا ستين سنة ، فرؤى فى المنام بعد موته ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟. فقال : خيرًا ، إلا أنى محبوس عن الجنة بإبرة استعرتها فلم أردها .

وكان لعبد الواحد بن زيد غلام خدمه سنين ، وتعبَّد أربعين سنة : وكان فى ابتداءِ أمره كيالاً ، فلما مات رؤى فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟.

فقال : خيرًا ، غير أنى محبوس عن الجنة ، وقد أخرج[1] على من غبار القفيز الذى اكتلته أربعين قفيزًا[2] .

ومر عيسى ابن مريم ؛ عليهما السلام بمقبرة ، فنادى رجلًا منها ، فأحياه الله تعالى :

فقال : من أنت ؟

فقال كنت حمالاً أنقل للناس ، فنقلت لإنسان يومًا حطبًا ، فكسرت منه خلالاً تخللت به فأنا مطالب به منذ مت .

وتكلم أبو سعيد الخراز فى الورع .. فمر به عباس بن المهتدى ، فقال :

يا أبا سعيد ، أما تستحى ، تجلس تحت سقف أبى الدوانيق ، وتشرب من بركة زبيدة ، وتتعامل بالدراهم المزيفة ، وتتكلم فى الورع ؟!.

---

(١) أى أظهر الله .

(٢) القفيز : مكيال وذلك لأن الكيال إذا اكتال ما فيه تراب حصل التراب فى أسفل الكيل ، فإن لم ينفضه فى الحال واكتال به مرة أخرى تزايد التراب وحصل بواسطته فى المدة الطويلة نقص كثير فيما يكال فحبس عنه الجنة بسبب ذلك .

باب الزهد

أخبرنا حمزة بن يوسف السهمى الجرجانى ، قال : أخبرنا أبو الحسن عبيد الله بن أحمد بن يعقوب المقرى ببغداد ، قال : حدثنا جعفر بن مجاشع قال : حدثنا زيد بن إسماعيل قال : حدثنا كثير بن هشام قال : حدثنا الحكم بن هشام ، عن يحيى بن سعيد ، عن أفروة ، عن أبى خلاد - وكانت له صحبة - قال : قال النبى ﷺ :

« إذا رأيتم الرجل قد أوتى زهدًا فى الدنيا ، ومنطقا ، فاقتربوا منه ، فإنه يلقن الحكمة »[١] .

قال الأستاذ الإمام أبو القاسم ، رحمه الله :

اختلف الناس فى الزهد[٢] ، فمنهم من قال .

الزهد فى الحرام ، لأن الحلال مباح من قبل الله تعالى ، فإذا أنعم الله على عبده بمال من حلال ، وتعبده بالشكر عليه ، فتركه له باختياره . لا يقدم[٣] على إمساكه له بحق إذنه[٤] .

ومنهم من قال : الزهد فى الحرام واجب ، وفى الحلال فضيلة ، فإن إقلال المال - والعبد صابر فى حاله ، راض بما قسم الله تعالى له ، قانع بما يعطيه - أتم من توسعه وتبسطه فى الدنيا فإن الله تعالى زهد الخلق فى الدنيا بقوله : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ﴾[٥] وغير ذلك من الآيات الواردة فى ذم الدنيا والتزهيد فيها .

ومنهم من قال : إذا أنفق العبد ماله فى الطاعة وعلم من حاله الصبر ، وترك التعرض لما نهاه الشرع عنه فى حال العسر ، فحينئذ يكون زهده فى المال الحلال أتم .

ومنهم من قال : ينبغى للعبد أن لا يختار ترك الحلال بتكلفه ، ولا طلب الفضول مما لا يحتاج إليه ويراعى القسمة ، فإن رزقه الله ، سبحانه وتعالى مالاً من حلال شكره ، وإن وقفه الله

---

(١) رواه ابن ماجه بنحوه وفيه ضعف .

(٢) لا من حيث معناه ، بل من متعلق حكمه .

(٣) أى فالأمر إلى سواء لا أولوية لأحدهما على الآخرفتركه مثل إمساكه فى الفضيلة (العروسى) .

(٤) فلا يكون تركه زهدًا .

(٥) آية ٧٧ من سورة النساء .

تعالى ، على حد الكفاف لم يتكلف فى طلب ما هو فضول المال ، فالصبر أحسن بصاحب الفقر ، والشكر أليق بصاحب المال الحلال .

وتكلموا فى معنى الزهد :

فكل نطق عن وقته ، وأشار إلى حدِّه .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله يقول : حدثنا أحمد بن إسماعيل الأزدى قال : حدثنا عمران بن موسى الإسفنجى قال : حدثنا الدروقى قال : حدثنا وكيع قال : قال سفيان الثورى :

الزهد فى الدنيا : قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ، ولا بلبس العباء .

وسمعته يقول : سمعت سعيد بن أحمد يقول : سمعت عباس بن عصام يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرى السقطى يقول :

إن الله سبحانه ، سلب الدنيا عن أوليائه ، وحماها[1] عن أصفيائه ، وأخرجها من قلوب أهل وداده ، لأنه لم يرضها لهم .

وقيل : الزهد من قوله[2] سبحانه وتعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم[3] ﴾ .

فالزاهد لا يفرح بموجود من الدنيا ، ولا يتأسف على مفقود منها .

وقال أبو عثمان : الزهد : أن تترك الدنيا ثم لا تبالى بمن أخذها[4] .

سمعت الأستاذ أبا علىٍّ الدقاق يقول :

الزهد : أن تترك الدنيا كما هى ، لا تقول أبنى بها رباطًا أو أعمر مسجدًا .

وقال يحيى بن معاذ : الزهد : يورث السخاء بالملك ، والحب يورث السخاء بالروح ، وقال ابن الجلاء : الزهد : هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال ، لتصغر فى عينك فيسهل عليك الإعراض عنها .

وقال ابن خفيف : علامة الزهد : وجود الراحة فى الخروج عن الملك .

---

(١) أمسكها .

(٢) أى مأخوذ

(٣) آية ٢٣ من سورة الحديد .

(٤) وفى نسخة : الزاهد : الذى يترك الدنيا ثم لا يبالى من أخذها .

وقال أيضًا : الزهد : سلو القلب عن الأسباب ، ونفض الأيدى من الأملاك .

وقيل الزهد : عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت النصر اباذى يقول : الزاهد : غريب فى الدنيا ، والعارف غريب فى الآخرة .

وقيل : من صدق فى زهده أتته الدنيا راغمة .

ولهذا قيل : لو سقطت قلنسوة من السماء لما وقعت إلا على رأس من لا يريدها .

وقال الجنيد : الزهد خلو القلب عمَّا خلت منه اليد .

وقال أبو سليمان الدارنى : الصوف علم من أعلام الزهد ، فلا ينبغى للزاهد أن يلبس صوفًا بثلاثة دراهم ، وفى قلبه رغبة خمسة دراهم .

وقد اختلف السلف فى الزهد[1] :

فقال سفيان الثورى ، وأحمد بن حنبل ، وعيسى بن يونس ، وغيرهم : الزهد فى الدنيا : إنما هو قصر الأمل .

وهذا الذى قالوه يحمل[2] على أنه من أمارات الزهد ، والأسباب الباعثة عليه والمعانى الموجبة له .

وقال عبد الله بن المبارك : الزهد : هو الثقة بالله تعالى مع حب الفقر .

وبه قال شقيق البلخى ، ويوسف بن أسباط وهذا أيضًا من أمارات الزهد ، فإنه لا يقوى العبد على الزهد ، إلا بالثقة بالله تعالى .

وقال عبد الواحد بن زيد : الزهد : ترك الدينار والدرهم[3] .

وقال أبو سليمان الدارنى : الزهد : ترك ما يشغل عن الله سبحانه وتعالى .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أحمد بن على يقول : سمعت إبراهيم ابن فاتك يقول : سمعت الجنيد يقول ، وقد سأله رويم عن الزهد ، فقال : هو استصغار الدنيا ، ومحو آثارها من القلب .

---

(١) أى : فى حقيقته وأسبابه .

(٢) أى فى العرف .

(٣) وفى نسخة « ونحوهما بقلبه » .

وقال سرى : لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه[١] ، ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه[٢] .

وسئل الجنيد عن الزهد ، فقال : خلوُّ اليد من الملك ، والقلب من التتبع .

وسئل الشبلى عن الزهد فقال : أن تزهد فيما سوى الله تعالى .

وقال يحيى بن معاذ :

لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاثُ خصال :

عمل بلا علاقة[٣] ، وقول بلا طمع ، وعز بلا رياسة .

وقال أبو حفص : الزهد لا يكون إلا فى الحلال ، ولا حلال في الدنيا ، فلا زهد .

وقال أبو عثمان : إن الله تعالى يعطى الزاهد فوق ما يريد ، ويعطى الراغب دون ما يريد ، ويعطى المستقيم موافقة ما يريد .

وقال يحيى بن معاذ : الزاهد يسعطك[٤] الخل والخردل ، والعارف يشمك المسك والعنبر .

وقال الحسن البصرى : الزهد فى الدنيا أن تبغض أهلها وتبغض ما فيها .

وقيل لبعضهم : ما الزهد فى الدنيا ؟ قال : ترك ما فيها على من فيها .

وقال رجل لذى النون المصرى : متى أزهد فى الدنيا ؟ .

فقال : إذا زهدت فى نفسك .

وقال محمد بن الفضل : إيثار الزهاد عند الاستغناء ، وإيثار الفتيان عند الحاجة ، قال الله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَو كان بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[٥] .

وقال الكتانى : الشىء الذى لم يخالف فيه كوفى ولا مدنى ولا عراقى ، ولا شامى : الزهد فى الدنيا ، وسخاوة النفس ، والنصيحة للخلق ، يعنى أن هذه الأشياء لا يقول أحد إنها غير محمودة .

وقال رجل ليحيى بن معاذ : متى أدخل حانوت التوكل ، وألبس رداء الزاهدين ؟ .

---

(١) أى بغيرها من شهوات الدنيا .

(٢) أى عن مولاه .

(٣) أى خالصًا لله تعالى لا لعلة دنيوية .

(٤) أى : أدخل فى أنفك .

(٥) آية ٩ من سورة الحشر .

فقال : إذا صرت من رياضتك فى السر إلى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف فى نفسك .

فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ، ثم لا آمن عليك أن تفتضح بينهم !!.

وقال بشر الحافى : الزهد : ملك لا يسكن إلا فى قلب مخلى[١] .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت بن محمد بن الأشعث البيكندى يقول :

من تكلم فى الزهد ، ووعظ الناس ، ثم رغب فى مالهم ، رفع الله تعالى حب الآخرة من قلبه .

وقيل : إذا زهد العبد فى الدنيا وكل الله تعالى به ملكا يغرس الحكمة فى قلبه .

وقيل : لبعضهم : لم زهدت فى الدنيا ؟ فقال : لزهدها فىّ .

وقال أحمد بن حنبل : الزهد على ثلاثة أوجه :

ترك الحرام ، وهو : زهد العوام :

والثانى : ترك الفضول من الحلال ، وهو : زهد الخواص .

والثالث : ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى ، وهو : زهد العارفين .

سمعت الأستاذ أبا على الدَّقاق ، يقول :

قيل لبعضهم : لم زهدت فى الدنيا ؟ .

قال : لما زهدت فى أكثرها أنفت من الرغبة فى أقلها .

وقال يحيى بن معاذ : الدنيا كالعروس المجلوة ، ومن يطلبها ما شطتها والزاهد فيها يسخم وجهها ، وينتف شعرها ، ويحرق[٢] ثوبها ، والعارف مشتغل بالله تعالى ، لا يلتفت إليها .

سمعت أبا عبد الله الصوفى يقول : سمعت : أبا الطيب السامرى يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرى يقول :

---

(١) أى ألا يتحقق إلا فى قلب انقطع طمعه عن الدنيا وتخلى عنها .

(٢) وفى نسخة : ويخرق .

مارست كل شىء من أمر الزهد ، فنلت منه ما أريد ، إلا الزهد فى الناس ، فإنى لم أبلغه ، ولم أطقه .

وقيل . ما خرج الزاهدون إلا إلى أنفسهم ، لأنهم تركوا النعيم الفانى للنعيم الباقى .

وقال النصراباذى : الزاهد حقن دماء الزاهدين ، وسفك دماء العارفين .

وقال حاتم الأصم . الزاهد يذيب كيسه قبل نفسه ، والمتزاهد يذيب نفسه قبل كيسه .

سمعت محمد بن عبد الله يقول : حدثنا على بن الحسين الموصلى قال : حدثنا أحمد بن الحسين قال : حدثنا محمد بن الحسن قال : حدثنا محمد بن جعفر قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول :

جعل الله الشر كله فى بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله فى بيت ، وجعل مفتاحه الزهد .

باب الصمت

أخبرنا عبد الله بن يوسف الاصبهانى قال : حدثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان قال : حدثنا أحمد بن يوسف السلمى قال : حدثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت »[1] .

أخبرنا على بن أحمد بن عبدان ، قال : أخبرنا أحمد بن عبيد قال : حدثنا بشر بن موسى الأسدى قال : حدثنا محمد بن سعيد الأصبهانى ، عن ابن المبارك ، عن يحيى بن أيوب ، عن عبيد الله بن زحر ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ، عن عقبة بن عامر قال : قلت :

« يارسول الله ، ما النجاة ؟

قال : احفظ عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك »[2]

قال الأستاذ رحمه الله : الصمت سلامة ، وهو[3] الأصل . وعليه ندامة إذا ورد عنه الزجر[4] فالواجب : أن يعتبر فيه الشرع ، والأمر والنهى .

والسكوت فى وقته : صفة الرجال ، كما أن النطق فى موضعه من أشرف الخصال .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس .

والصمت : من آداب الحضرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[5] .

وقال تعالى - خبرًا عن الجن بحضرة الرسول ﷺ - : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا .. ﴾[6] .

---

(١) رواه أحمد والشيخان وغيرهما .

(٢) رواه الترمذى وقال حسن .

(٣) وفى نسخة (وهى) أى السلامة .

(٤) لكون النطق مطلوبا .

(٥) آية ٢٠٤ من سورة الأعراف .

(٦) آية ٢٩ من سورة الأحقاف .

وقال تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسا ﴾[١] .

وكم بين عبد يسكت تصاونًا عن الكذب والغيبة ، وبين عبد يسكت لاستيلاء سلطان الهيبة عليه ، وفي معناه أنشدوا :

أفكر ما أقول إذا افترقنا وأحكم[٢] دائبًا حجج المقال
فأنساها إذا نحن التقينا فأنطق ، حين أنطق ، بالمحال[٣]

وأنشدوا :

فياليل[٤] كم من حاجة لى مهمة إذا جئتكم لم أدر ياليل ما هيا

وأنشدوا :

وكم حديث لك حتى إذا مكنت من لقياك أنسيته

وأنشدوا :

رأيت الكلام يزين الفتى والصمتُ خير لمن قد صمت
فكم من حروف تجر الحتوف ومن ناطق ود أن لو سكت

والسكوت على قسمين : سكوت بالظاهر ، وسكوت بالقلب والضمائر .

فالمتوكل : يسكت قلبه عن تقاضى الأرزاق .

والعارف : يسكت قلبه مقابلة للحكم بنعت الوفاق .

فهذا بجميل صنعه واثق ، وهذا بجميع حكمه قانع .

وفي معناه قالوا :

تجرى عليك صروفه وهموم سرك مطرقه[٥]

وربما يكون سبب السكوت حيرة البديهة ، فإنه إذا ورد كشف عن وصف البغتة خرست العبارات عند ذلك ، فلا بيان ، ولا نطق . وطمست الشواهد هنالك ، فلا علم ، ولاحس .

قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا[٦] ﴾ .

---

(١) آية ١٠٨ من سورة طه .
(٢) أتقن .
(٣) ما لايفيد الغرض .
(٤) اسم محبوبته « ليلى » .
(٥) راضية .
(٦) آية ١٠٩ من سورة المائدة .

فأما إيثار أرباب المجاهدة السكوت : فلما علموا ما فى الكلام من الآفات ، ثم ما فيه من حظ النفس ، وإظهار صفات المدح ، والميل إلى أن يتميز بين أشكاله[1] بحسن النطق ، وغير هذا من آفات فى الخلق ، وذلك نعت أرباب الرياضات ، وهو أحد أركانهم فى حكم المنازلة وتهذيب الخلق .

وقيل : إن داود الطائى ، لما أراد أن يعقد فى بيته اعتقد[2] أن يحضر مجالس أبى حنيفة ، رحمه الله ، إذ كان تلميذًا له ، ويقعد بين أقرانه من العلماء ، ولا يتكلم فى مسألة ، فلما قوَّى نفسه على ممارسة هذه الخصلة سنة كاملة ، قعد فى بيته عند ذلك وآثر العزلة .

وكان عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله ، إذا كتب كتابًا واستحسن لفظه مزق الكتاب وغيره .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : أخبرنا عبد الله بن محمد الرازى ، قال : حدثنا أبو العباس محمد بن إسحق السراج قال : سمعت أحمد بن الفتح يقول : سمعت بشر بن الحارث يقول :

إذا أعجبك الكلام فاصمت ، وإذا أعجبك الصمت فتكلم .

وقال سهل بن عبد الله : لا يصح لأحد الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة ، ولا تصح له التوبة حتى يلزم نفسه الصمت .

وقال أبو بكر الفارسى : من لم يكن الصمت وطنه فهو فى الفضول وإن كان صامتًا ، والصمت ليس بمخصوص على اللسان ، لكنه على القلب والجوارح كلها .

وقال بعضهم : من لم يستغنم[3] السكوت فإذا نطق نطق بلغو .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن عبدالله بن شاذان يقول : سمعت ممشاد الدينورى يقول : الحكماء ورثوا الحكمة بالصمت والتفكر .

وسئل أبو بكر الفارسى عن صمت السر فقال : ترك الاشتغال بالماضى والمستقبل .

وقال أبو بكر الفارسى : إذا كان العبد ناطقًا فيما يعنيه ، وفيما لابد منه ، فهو فى حد الصمت .

---

(١) أقرانه .

(٢) عزم .

(٣) أى يعرف فضيلته ويعده غنيمة .

روى عن معاذ بن جبل ، رضى الله عنه ، أنه قال :

كلم الناس قليلاً ، وكلم ربك كثيرًا ، لعل قلبك يرى الله تعالى .

وقيل لذى النون المصرى : من أصون الناس لقلبه[١] ؟ . قال : أملكهم للسانه .

وقال ابن مسعود : ما من شىء بطول السجن أحق من اللسان .

وقال على بن بكار : جعل الله تعالى لكل شىء بابين ، وجعل للسان أربعة أبواب : فالشفتان مصراعان ، الأسنان مصراعان .

وقيل : إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، كان يمسك فى فيه حجرًا كذا كذا سنة ، ليقل كلامه .

وقيل : إن أبا حمزة البغدادى ، رحمة الله ، كان حسن الكلام ، فهتف به هاتف ، فقال له : تكلمت فأحسنت ، بقى أن تسكت فتحسن ؟ فما تكلم بعد ذلك حتى مات قريبا من هذه الحالة على رأس أسبوع ، أو أقلَّ أو أكثر .

وربما يكون السكوت يقع على المتكلم[٢] تأديبًا له ، لأنه أساء أدبه فى شىء .

كان الشبلى إذا قعد فى حلقته ، ولا يسألونه ، يقول : ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لاَ يَنْطِقُونَ[٣]﴾ .

وربمًا يقع السكوت على المتكلم ، لأن فى القوم من هو أولى منه بالكلام .

سمعت ابن السماك يقول : كان بين شاه الكرمانى ، ويحيى بن معاذ صداقة ، فجمعمها بلد ، فكان شاه لا يحضر مجلسه ، فقيل له فى ذلك : فقال : الصواب هذا . فمازالو به حتى حضر يومًا مجلسه ، وقعد ناحية لا يشعر به يحيى بن معاذ ، فلما أخذ يحيى فى الكلام سكت ، ثم قال : هاهنا من هو أولى بالكلام منى ، وأرتج[٤] عليه . فقال شاة : قلت لكم الصواب أن لا أحضُر مجلسه .

وربّما يقع السكوت على المتكلم لمعنى فى الحاضرين ، وهو أنه يكون هناك من ليس بأهل لسماع ذلك الكلام فيصون الله تعالى لسانٰ المتكلم غيرة وصيانة لذلك الكلام عن غير أهله .

وربما كان سبب السكوت الذى يقع على المتكلم : أن بعض الحاضرين كان معلومُ الله تعالى

---

(١) فى نسخة لنفسه .

(٢) أى يطلب منه .

(٣) آية ٨٥ من سورة النمل .

(٤) تعذر عليه الكلام .

من حاله أنه يسمع ذلك الكلام ، فيكون فتنة له ، إما لتوهمه أنه وقته ولا يكون[1] ، أو لأنه يحمل نفسه ما لا يطيق فيرحمه الله ، عزَّ وجل ، بأن يحفظ سمعه عن ذلك الكلام ، إما صيانة له ، أو عصمة عن غلطه .

وقال مشايخ هذه الطريقة .

ربما يكون السبب فيه حضور من ليس بأهل لسماعه من الجن ، إذ لا تخلو مجالس القوم من حضور جماعة من الجن .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

اعتللت مرة « بمرو » فاشتقت أن أرجع إلى « نيسابور » .. فرأيت فى المنام . كأن قائلاً يقول لى : لا يمكنك أن تخرج من هذا البلد ، فإن جماعة من الجن قد استحلوا[2] كلامك ، ويحضرون مجلسك ، فلأجلهم تجلس هاهنا .

وقال بعض الحكماء : إنما خلق للإنسان لسان واحد ، وعينان . وأذنان ، ليسمع ويبصر أكثر مما يقول :

ودعى إبراهيم بن أدهم إلى دعوة ، فلما جلس أخذوا فى الغيبة ، فقال : عندنا يؤكل اللحم بعد الخبز ، وأنتم ابتدأتم بأكل اللحم ؟ أشار إلى قوله تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ، فَكَرِهْتُموه ﴾[3] .

وقال بعضهم : الصمت ، لسان الحلْم .

وقال بعضهم : تعلمَّ الصمت ، كما تتعلم الكلام ، فإن كان الكلام يهديك فإن الصمت يقيك .

وقيل : عفة اللسان صمته .

وقيل : مثل اللسان مثل السبع إن لم تُوثقه عدا عليك :

وسئل أبو حفص : أى الحالين للولىِّ أفضل ؟ الصمت ، أو النطق ؟

فقال : لو علم الناطق ما آفة النطق لصمت إن استطاع عمرَ نوح .

ولو علم الصامت ما آفة الصمت لسأل الله تعالى ، ضعفى عمر نوح حتى ينطق[1] .

---

(١) يتوهم أن هذا الكلام حاله أى المطلوب له ولا يكون الأمر كذلك .

(٢) انتفعوا به .

(٣) آية ١٢ من سورة الحجرات .

وقيل : صمت العوامِّ بألسنتهم ، وصمت العارفين بقلوبهم ، وصمت المحبين بالتحفظ من خواطر أسرارهم .

وقيل لبعضهم : تكلَّم فقال : ليس لى لسان فأتكلم .

فقيل له : اسمع ، فقال : ليس فىَّ مكان فأسمع .

وقال بعضهم : مكثت ثلاثين سنة لا يسمع لسانى إلا من قلبى ، ثم مكثت ثلاثين سنة لا يسمع قلبى إلا من لسانى .

وقال بعضهم : لو أسكت لسانك لم تنج من كلام قلبك ، ولو صرت رميا لم تتخلص من حديث نفسك ، ولو جهدت كلَّ الجهد لم تكلمك روحك ، لأنها كاتمة للسر .

وقيل : لسان الجاهل مفتاح حتفه .

وقيل : المحب : إذا سكت هلك ، والعارف إذا سكت مَلك .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول سمعت عبد الله بن محمد الرازى يقول : سمعت محمد بن نصر الصائغ يقول : سمعت مردوية الصائغ يقول : سمعت الفضيل بن عياض يقول :

من عدَّ كلامه من عمله قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه .

---

(١) أى فلكل من النطق والصمت ضرر ؛ فعلى المكلف العمل فيهما بالهدى المحمدى ليغنم أو يسلم .

باب الخوف

قال الله تعالى : ﴿ يَدْعُون رَبَّهم خَوفا وطَمَعا ﴾[١] .

أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد عبدوس الحيرى العدل ، قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن دلوية الدقّاق قال : حدثنا محمد بن يزيد قال : حدثنا عامر بن أبى الفرات قال : حدثنا المسعودى ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن عيسى بن طلحة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا يدخل النار من بكى من خشية الله تعالى ، حتى يلج[٢] اللبن فى الضرع ، ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى منخرى عَبْدٍ أبدًا » .

حدثنا أبو نعيم أحمد بن محمد بن ابراهيم المهرجانى قال : حدثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن الحسن بن الشرقى ، قال : حدثنا عبدالله بن هاشم قال : حدثنا يحيى بن سعيد القطان قال : حدثنا شعبة قال : حدثنا قتادة ، عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرًا »[٣] .

قلت الخوف : معنى متعلقه فى المستقبل ، لأنه إنما يخاف أن يحلَّ به مكروه أو يفوته محبوب . ولا يكون هذا إلا لشىء يحصل فى المستقبل .

فأما ما يكون فى الحال موجودًا ، فالخوف لا يتعلق به .

والخوف من الله تعالى ، هو : أن يخاف أن يعاقبه الله تعالى إمّا فى الدنيا ، وإما فى الآخرة . وقد فرض الله ، سبحانه ، على العباد أن يخافوه ، فقال تعالى : ﴿ وَخَافُونِ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنين ﴾[٤] .

---

(١) آية ١٦ من سورة السجدة .

(٢) يدخل والحديث رواه الترمذى وقال : حسن صحيح .

(٣) رواه أحمد والشيخان والترمذى والنسائى وابن ماجه .

(٤) آية ١٧٥ من سورة آل عمران .

وقال : ﴿ فَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ[١] ﴾ ، ومدح المؤمنين بالخوف ، فقال : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾[٢] .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

الخوف على مراتب : الخوف ، والخشية ، والهيبة .

فالخوف من شرط الإيمان وقضيته . قال الله تعالى : ﴿ وَخَافُون إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِين[٣] ﴾ .

والخشية من شرط العلم ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّما يَخْشَى الله مِنْ عِبَاده الْعُلماءُ ﴾[٤] والهيبة من شرط المعرفة ، قال الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُم الله نَفْسَهُ ﴾[٥] .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن على الحيرى يقول : سمعت محفوظاً يقول : سمعت أبا حفص يقول : الخوف سوط الله يقوّم به الشاردين عن بابه .

وقال أبو القاسم الحكيم : الخوف على ضربين : رهبة ، وخشية .

فصاحب الرهبة يلتجئ إلى الهرب إذا خاف ، وصاحب الخشية يلتجئ إلى الرب .

قال رحمه الله : ورهب ، وهرب ، يصح أن يقال : أنهما واحد معنى ، مثل :[٦] جذب وجبذ .

فإذا هرب انجذب فى مقتضى هواه ، كالرهبان الذين اتبعوا أهواءهم فإذا كبحهم لجام العلم وقاموا بحق الشرع ، فهو الخشية .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت عبد الله بن محمد الرازى يقول : سمعت أبا عثمان يقول : سمعت أبا حفص يقول :

الخوف ، سراج القلب ، به يبصر ما فيه من الخير والشر .

سمعت الأستاذ أبا على الدقّاق ، رحمه الله . يقول :

الخوف ألاَّ تعلل نفسك بعسى وسوف .

سمعت محمد بن الحسين . يقول : سمعت أبا القاسم الدمشقى يقول : سمعت أبا عمر الدمشقى يقول : الخائف ، من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان .

---

(١) آية ٥١ من سورة النحل .

(٢) آية ٥٠ من سورة النحل .

(٣) آية ١٧٥ من سورة آل عمران .

(٤) آية ٢٨ من سورة فاطر .

(٥) آية ٢٨ من سورة آل عمران .

(٦) فى نسخة : هما واحد أى معناهما واحد وهو الرجوع إلى الطاعة .

وقال ابن الجلاء : الخائف ، من تؤمنه المخوفات[١] .

وقيل : ليس الخائف الذى يبكى ويمسح عينيه ، إنما الخائف من يترك ما يخاف أن يعذب عليه .

وقيل للفضيل[٢] ، ما لنا لا نرى خائفًا ؟ .

فقال : لو كنتم خائفين لرأيتم الخائفين ، إن الخائف لا يراه إلا الخائفون ، وإن الثكلى[٣] ، هى التى تحب أن ترى الثكلى .

وقال يحيى بن معاذ : مسكين ابن آدم ، لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لدخل الجنة

وقال شاه الكرمانى : علامة الخوف : الحزن الدائم .

وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف من شىء هرب منه ، ومن خاف من الله عزَّ وجل هرب إليه .

وسئل ذو النون المصرى ، رحمه الله ، متى يتيسر على العبد سبيل الخوف ؟ .

فقال : إذا أنزل نفسه منزلة السقيم ، يحتمى من كل شىء ، مخافة طول السقام .

وقال معاذ بن جبل ، رضى الله عنه : إن المؤمن لا يطمئن قلبه ، ولا تسكن روعته حتى يخلِّف[٤] جسر جهنم وراءه .

وقال بشر الحافى : الخوف من الله ملك لا يسكن إلا فى قلب متق .

وقال أبو عثمان الحيرى : عيب الخائف فى خوفه السكون إلى خوفه لأنه أمر خفّى .

وقال الواسطى : الخوف حجاب بين الله تعالى وبين العبد .

وهذا اللفظ فيه إشكال[٥] ومعناه : أن الخائف متطلع لوقت ثان . وأبناء الوقت[٦] لا تطلع لهم فى المستقبل ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن النهاوندى يقول : سمعت ابن فاتك يقول : سمعت النورى يقول : « الخائف يهرب من ربه إلى ربه » .

وقال بعضهم : علامة الخوف ، التحير[٧] والوقوف على باب الغيب :

---

(١) أى تجعله فى أمان ، بأن يأمن منها فى حال طروقها عليه فلا تؤثر فيه لغيبته عنها بخوف الله .

(٢) هو ابن عياض .

(٣) التى فقدت ولدها .

(٤) يجاوز ويترك .

(٥) لأن الخوف مطلوب ، فكيف يكون حجابًا بين الخائف وربه ؟

(٦) وهم الصوفية .

(٧) أى القلق فى أسباب النجاة والخلاص مما يوجب العقاب .

سمعت أبا عبد الله الصوفى يقول : سمعت على بن إبراهيم العكبرى يقول : سمعت الجنيد وقد سئل عن الخوف ، فقال :

هو توقع العقوبة مع مجارى الأنفاس .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت الحسين بن أحمد الصفار يقول : سمعت محمد بن المسيب يقول : سمعت هاشم بن خالد يقول : سمعت أبا سليمان الدارانى يقول :

ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن يقول : سمعت أبا عثمان يقول :

صدق الخوف ، هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنا .

وقال ذو النون : الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف ، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق .

وقال حاتم الأصم : لكل شيء زينة ، وزينة العبادة الخوف ، وعلامة الخوف قصر الأمل .

وقال رجل لبشر الحافى : أراك تخاف الموت !!

فقال : القدوم على الله ، عزَّ وجلَّ شديد .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، يقول : دخلت على الإمام أبى بكر بن فورك عائدًا ، فلما رآنى دمعت عيناه ، فقلت له : إن شاء[1] الله تعالى يعافيك ويشفيك .

فقال لى : ترانى أخاف من الموت ؟ إنما أخاف مما وراء الموت !!

أخبرنا على بن أحمد الأهوازى قال : أخبرنا أحمد بن عبيد قال : حدثنا محمد بن عثمان قال : حدثنا القاسم بن محمد قال : حدثنا يحيى بن يمان ، عن مالك بن مغول ، عن عبد الرحمن بن سعيد بن موهب ، عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : قلت :

يا رسول الله : الذين يؤتون ما آتوا : وقلوبهم وجلة ، أهو الرجل يسرق ويزنى ويشرب الخمر ؟ .

قال : لا : ولكن الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه[2] .

---

(١) وفى نسخة إن الله سبحانه .

(٢) رواه أحمد والترمذى .

وقال ابن المبارك : رحمه الله : الذي يهيج الخوف حتى يسكن فى القلب دوامُ المراقبة فى السر والعلانية .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن الحسن يقول سمعت أبا القاسم بن أبى موسى يقول : سمعت محمد بن أحمد : قال : حدثنا على الرازى قال سمعت أبن المبارك : رحمه الله يقول ذلك .

وسمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت إبراهيم بن شيبان يقول :

إذا سكن الخوف القلب أحرق مواضع الشهوات منه ، وطرد رغبة الدنيا عنه .

وقيل ، الخوف ، قوّة العلم بمجارى الأحكام .

وقيل ، الخوف ، حركة القلب من جلال الربّ .

وقال أبو سليمان الدارانى ، ينبغى للقلب أن لا يكون الغالب عليه إلا الخوف ، فإنه إذا غلب الرجاء على القلب فسد القلب .

ثم قال : يا أحمد ، بالخوف ارتفعوا ، فإن ضيعوه نزلوا .

وقال الواسطى : الخوف ، والرجاء ، زمامان على النفوس ، لئلا ، تخرج إلى رعوناتها .

وقال الواسطى : إذا ظهر[1] الحق على السرائر ، لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف .

قال الأستاذ أبو القاسم : وهذا فيه إشكال . ومعناه : إذا اصطلمت[2] شواهد الحق ، تعالى ، الأسرار ملكتها ، فلا يبقى فيها مساغ لذكر حدثان[3] ، والخوف والرجاء من آثار بقاء الإحساس بأحكام البشرية .

وقال الحسين بن منصور : من خاف من شيء سوى الله عزَّ وجلَّ أو رجا سواه أغلق عليه أبواب كل شيء ، وسلط عليه المخافة ، وحجبه[4] بسبعين حجابًا أيسرها الشك ، وإن مما أوجب شدة خوفهم ، فكرهم فى العواقب ، وخشية تغير أحوالهم . قال الله تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِنَ اللهِ مَالَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾[5] وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فى الحياة الدُّنْيا وهم يحسبون أَنَّهُمْ يُحْسِنُون صُنْعاً ﴾[6] .

---

(١) غلب .

(٢) استأصلت .

(٣) أى حديث أو حادثة .

(٤) وفى نسخة « وحجب قلبه » .

(٥) آية ٤٧ من سورة الزمر .

(٦) آية ١٠٣ وآية ١٠٤ من سورة الكهف .

فكم من مغبوط[١] فى أحواله انعكست عليه الحال ، ومنى بمقارنة[٢] قبيح الأفعال ، فبدل بالأنس وحشة ، وبالحضور غيبة .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمة الله ، ينشد كثيرا :

أحسنت ظنك بالأيام إذا حسنت ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها وعند صفو الليالى يحدث الكدر

سمعت منصور بن خلف المغربى يقول :

كان رجلان اصطحبا فى الإرادة[٣] برهة من الزمان .. ثم إن أحدهما سافر ، وفارق صاحبه .. وأتى عليه مدة من الزمان ولم يسمع منه[٤] خبراً .. فبينا هذا الآخر كان فى غزاة يقاتل عسكر الروم إذ خرج على المسلمين رجل مقنع فى السلاح ، يطلب المبارزة .. فخرج إليه من أبطال المسلمين واحد ، فقتله الرومى .. ثم خرج آخر فقتله .. ثم ثالث فقتله ، فخرج إليه هذا الصوفى .. وتطاردا[٥] ، فحسر الرومى عن وجهه ، فإذا هو صاحبه الذى صحبه فى الإرادة والعبادة سنين .

فقال هذا له : إيش الخبر ؟ .

فقال : إنه أرتد .. وخالط القوم .. وولد له أولاد .. واجتمع له مال فقال له : كنت تقرأ القرآن بقراءات كثيرة ؟!.

فقال : لا أذكر منه حرفًا .

فقال له هذا الصوفى : لا تفعل ، وارجع ، فقال : لا أفعل ، فلى فيهم جاه ومال ، فانصرف أنت عنى ، وإلا لأفعلن بكل ما فعلت بأولئك .

فقال له الصوفى : أعلم أنك قتلت ثلاثة من المسلمين ، وليس عليك أنفة فى الانصراف ، فانصرف أنت وأنا أمهلك .

فرجع الرجل موليا : فتبعه هذا الصوفى ، وطعنه ، فقتله .

فبعد تلك المجاهدات ، ومقاساة تلك الرياضات ، قتل على النصرانية

---

(١) المغبوط : هو من يتمنى غيره مثل ما ثبت له من الخير مع عدم ميل ذلك الغير إلى زوال نعمته عنه .
(٢) مخالطة .
(٣) إرادة العبادة والخير .
(٤) أى عنه .
(٥) تضاربا .

وقيل : لما ظهر على إبليس ما ظهر ، طفق جبريل وميكائيل ، عليهما السلام يبكيان زمانًا طويلًا ، فأوحى الله ، تعالى ، إليهما : مالكما تبكيان كل هذا البكاء ؟ فقالا : ياربنا ، لا نأمن مكرك .

فقال الله تعالى : هكذا كونا ، لا تأمنا مكرى .

ويحكى عن السرى السقطى أنه قال :

إنى لأنظر إلى أنفى فى اليوم كذا مرة ، مخافة أن يكون قد اسود ، لما أخافه من العقوبة !!.

وقال أبو حفص : منذ أربعين سنة اعتقادى فى نفسى ، أن الله ، تعالى ، ينظر إلى نظر السخط ، وأعمالى تدل على ذلك .

وقال حاتم الأصم : لا تغتر بموضع صالح ، فلا مكان أصلح من الجنة ، فلقى آدم ، عليه السلام فيها ما لقى !! ولا تغتر بكثرة العبادة ، فإن إبليس بعد طول تعبده لقى ما لقى !! ولا تغتر بكثرة العلم ، فإن « بلعام[1] » كان يحسن اسم الله الأعظم ، فانظر ماذا لقى !! ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر قدرًا من المصطفى ، ﷺ ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه .

وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال :

إنى قد اجترأت البارحة على الله عز وجل : سألته الجنة .

وقيل : خرج عيسى عليه السلام ، ومعه صالح من صالحى بنى إسرائيل فتبعهما رجل خاطئ مشهور بالفسق فيهم ، فقعد منتبذًا عنهما منكسرا ، فدعا الله سبحانه وقال اللهم اغفر لى .

ودعا هذا الصالح وقال : اللهم لا تجمع غدا بينى وبين ذلك العاصى .

فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : أنى قد استجبت دعاءهما جميعا ، رددت ذلك الصالح ، وغفرت لذلك المجرم .

وقال ذو النون المصرى : قلت لعليم . لم سميت مجنونا ؟ .

قال : لما طال حبسى عنه صرت مجنونًا لخوف فراقه فى الآخرة .

وفى معناه أنشدوا :

لو أن مابى على صخر لأنحله فكيف يحمله خلق من الطين ؟

---

(١) ويقال له : « بلعم بن باعورا » من علماء « بنى إسرائيل » .

وقال بعضهم ، ما رأيت رجلًا أعظم رجاء لهذه الأمة ، ولا أشد خوفًا على نفسه ، من « ابن سيرين » .

وقيل ، مرض سفيان الثورى ، فعرض دليله[1] على الطبيب ، فقال : هذا رجل قطع الخوف كبده .

ثم جاء وجسَّ عِرقه[2] ، ثم قال : ما علمت أنَّ فى الحنيفية مثله .

وسئل الشبلى : لم تصفر الشمس عند الغروب ؟ .

فقال : لأنها عُزلت عن مكان التمام : فاصفرت لخوف المقام .

وكذا المؤمن إذا قارب خروجه من الدنيا اصفر لونه ، لأنه يخاف المقام ، فإذا طلعت الشمس طلعت مضيئة : كذلك المؤمن إذا بعث من قبره خرج ووجه يشرق .

ويحكى عن أحمد بن حنبل ، رحمه الله تعالى ، أنه قال :

سألت ربى ، عز وجلَّ أن يفتح على بابا من الخوف ، ففتح ، فخفت على عقلى ، فقلت ، ياربّ ، أعطنى على قدر ما أطيق ، فسكن ذلك عنى .

---

(١) أى ما يستدل به على مرضه .

(٢) نبضه .

باب الرجـاء

قال الله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لقاءَ لله ، فَإِنَّ أَجَلَ الله لآتٍ[1] ﴾ .

أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد الأهوازى ، قال : أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، قال : حدثنا عمرو بن مسلم الثقفى قال : حدثنا الحسن بن خالد قال : حدثنا العلاء بن زيد ، قال :

دخلت على مالك بن دينار ، فرأيت عنده شهر بن حوشب فلما خرجنا من عنده ، قلت لشهر : يرحمك الله تعالى ، زوِّدنى ، زودك الله تعالى .

فقال : نعم ، حدثتنى عمتى أم الدرداء ، عن أبى الدرداء ، عن نبى الله ، ﷺ ، عن جبريل عليه السلام ، قال : « قال ربكم عز وجل : عبدى ، ما عبدتنى ورجوتنى ولم تشرك بى شيئاً غفرت لك على ما كان منك ، ولو استقبلتنى بملء الأرض خطايا وذنوبا ، استقبلتك بمثلها[2] مغفرة ، فأغفر لك ولا أبالى»[3] .

أخبرنا على بن أحمد قال : أخبرنا أحمد بن عبيد قال : حدثنا بشر بن موسى ، قال : حدثنا خلف بن الوليد ، قال : حدثنا مروان بن معاوية الفزارى قال : حدثنا أبو سفيان طريف ، عن عبد الله بن الحارث ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى ، يوم القيامة : أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة شعير من إيمان ثم يقول : أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، ثم يقول : وعزتى وجلالى لا أجعل من آمن بى ساعة من ليل أو نهار كمن لم يؤمن بى »[4] .

الرَّجاء : تعلق القلب بمحبوب سيحصل فى المستقل .

وكما أن الخوف يقع فى مستقبل الزمان ، فكذلك الرجاء يحصل لما يؤمل فى الاستقبال وبالرجاء عيش القلوب ، واستقلالها[5] .

---

(١) آية ٥ من سورة العنكبوت .

(٢) وفى رواية بمثلهن .

(٣) رواه الطبرانى عن أبى الدرداء بسند حسن والترمذى بنحوه وقال حسن .

(٤) أوله فى الصحيحين .

(٥) أى : بالأجر الأخروى .

والفرق بين الرجاء ، وبين التمنى ، أن التمنى : يورث صاحبه الكسل[١] ، ولا يسلك طريق الجهد والجد ، وبعكسه صاحب الرجاء ، فالرجاء محمود ، والتمنى معلول[٢] .

وتكلموا فى الرجاء ، فقال شاه الكرمانى : علامة الرجاء : حسن الطاعة .

وقال ابن خبيق : الرجاء ثلاثة :

رجل عمل حسنة : فهو يرجو قبولها .

ورجل عمل سيئة : ثم تاب : فهو يرجو المغفرة .

والثالث الرجل الكاذب : يتمادى فى الذنوب : ويقول أرجو المغفرة .

ومن عرف نفسه بالإساءة ينبغى أن يكون خوفه غالبًا على رجائه .

وقيل الرجاء : ثقة الجود من الكريم الودود .

وقيل : الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال .

وقيل : هو قرب القلب من ملاطفة الرب .

وقيل : سرور الفؤاد بحسن المعاد .

وقيل : هو النظر إلى سعة رحمة الله تعالى .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى : رحمه الله : يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول : الخوف ، والرجاء ، هما كجناحى الطائر ، إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه ، وإذا نقض أحدهما وقع فيه النقص : وإذا ذهبا صار الطائر فى حد الموت .

وسمعته يقول : سمعت النصر اباذى يقول : سمعت ابن أبى حاتم يقول : سمعت على بن شهمر ذان يقول : قال أحمد بن عاصم الأنطاكى ، وسئل ما علامة الرجاء فى العبد ؟ قال :

أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر ، راجيا لتمام النعمة من الله تعالى فى إلدنيا ، وتمام عفوه فى الآخرة .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : الرجاء : استبشار بوجود فضله .

وقال ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو المحبوب .

---

(١) وفى نسخة « يصاحبه الكسل » .

(٢) مذموم .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا عثمان المغربى يقول : من حمل نفسه على الرجاء تعطل ، ومن حمل نفسه على الخوف قنط ولكن من هذه مرة ، ومن هذه مرة .

وسمعته يقول : حدثنا أبو العباس البغدادى قال : حدثنا الحسن بن صفوان قال : حدثنا ابن أبى الدنيا ، قال : حدثت عن بكر بن سليم الصواف ، قال : دخلنا على مالك بن أنس فى العشية التى قبض فيها ، فقلنا ، يا أبا عبد الله ، كيف تجدك ؟ .

فقال : ما أدرى ما أقول لكم ، غير أنكم ستعاينون من عفو الله تعالى ، ما لم يكن لكم فى حساب ، ثم ما برحنا حتى أغمضناه .

وقال يحيى بن معاذ : يكاد رجائى لك مع الذنوب ، يغلب رجائى لك مع الأعمال ، لأنى أجدنى أعتمد فى الأعمال على الاخلاص ، وكيف أحرزها[1] وأنا بالآفة معروف !! وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك ، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف .

وكلموا ذا النون المصرى ، وهو فى النزع ، فقال لا تشغلونى ؟ فقد تعجبت من كثرة لطف الله تعالى معى .

وقال يحيى بن معاذ : إلهى ، أحلى العطايا فى قلبى رجاؤك ، وأعذب الكلام على لسانى ثناؤك ، وأحبُّ الساعات إلى ساعة يكون فيها لقاؤك .

وفى بعض التفاسير « أن رسول الله ﷺ دخل على أصحابه ، من باب بنى شيبة ، فرآهم يضحكون فقال : أتضحكون ؟ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا » ثم مرَّ ، ثم رجع القهقرى ، وقال : نزل علىَّ جبريل ، عليه السلام ، وأتى بقوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عبادى أَنِّى أَنَا الغفُورُ الرَّحِيمُ[2] ﴾ .

أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد الأهوازى قال : حدثنا أبو الحسن الصفار قال : حدثنا عباس بن تميم قال : حدثنا يحيى بن أيوب قال : حدثنا مسلم بن سالم قال : حدثنا خارجة بن مصعب ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن عائشة ، قالت :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى ليضحك من يأس العباد وقنوطهم وقرب الرحمة منهم ، فقلت : بأبى وأمى يارسول الله ، أويضحك ربنا عز وجل ؟ .

---

(١) أى أحفظها من الآفة .

(٢) آية ٤٩ من سورة الحجر والحديث رواه ابن أبى حاتم وابن جرير بنحوه .

فقال : والذى نفسى بيده ، إنه ليضحك ، فقالت : لا يعدمنا خيرًا إذا ضحك » .

وأعلم أن الضحك فى وصفه من صفات فعله ، وهو إظهار فضله ، كما يقال : ضحكت الأرض بالنبات[1] وضحكه من قنوطهم إظهار تحقيق فضله الذى هو ضعف انتظارهم له .

وقيل : إن مجوسيا استضاف[2] إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، فقال له : إن أسلمت أضفتك فقال المجوسى : إذا أسلمت فأى مِنَّةٍ تكون لك علىَّ ؟ فمرَّ المجوسى ، فأوحى الله تعالى إلى ابراهيم ، عليه السلام : يا إبراهيم ، لم تطعمه إلا بتغييره دينه ؟! ونحن منذ سبعين سنة نطعمه على كفره ، فلو أضفته ليلة ماذا عليك ؟ .

فمرَّ ابراهيم ، عليه السلام ، خلف المجوسى ، وأضافه ، فقال له المجوسى : أى شىء كان السبب فى الذى بدا لك ؟ فذكر له ذلك ، فقال له المجوسى : أهكذا يعاملنى ؟ ثم قال : أعْرض علىَّ الإسلام فأسلم :

سمعت الشيخ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول : رأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكى ، رحمه الله ، أبا سهل الزَّجاج فى النوم[3] ، وكان يقول بوعيد الأبد[4] ، فقال له : كيف حالك ؟ .

فقال وجدنا الأمر أسهل مما توهمنا .

سمعت أبا بكر بن أشكيب يقول : رأيت الأستاذ أبا سهل الصعلوكى فى المنام على هيئة حسنة لا توصف ، فقلت له . يا أستاذ ، بم نلت هذا ؟ ، فقال : بحسن ظنِّى بربى .

ورؤى مالك بن دينار فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك .

قال : قدمت على ربى ، عزَّ وجلَّ ، بذنوب كثيرة محاها عنى حسن ظنى به تعالى :

وروى عن النبى ﷺ ، أنه قال : « يقول الله عز وجل ، أنا عند ظنِّ عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، إن ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ هو خير منه ، وإن اقترب إلىَّ شبرا اقتربت إليه ذراعًا ، وإن اقترب إلىَّ ذراعًا اقتربت إليه باعًا ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة »[5] .

---

(١) أى أخرجته منها .

(٢) طلب منه أن يضيفه .

(٣) وفى نسخة : فى « المنام » .

(٤) أى أن الله إذا توعد على معصية بعقاب « فلابد من وقوعه » .

(٥) رواه الشيخان بنحوه وابن ماجه كما هنا .

أخبرنا بذلك أبو نعيم عبد الملك بن الحسن الاسفرايني قال : اخبرنا يعقوب بن إسحق قال : حدثنا على بن حرب قال : حدثنا أبو معاوية ومحمد بن عبيد ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، يقول ذلك .

وقيل : كان ابن المبارك يقاتل « علْجا »[1] مرة فدخل وقت صلاة العلج ، فاستمهله ، فأمهله .

فلما سجد للشمس : أراد ابن المبارك أن يضربه بسيفه ، فسمع من الهواء قائلا يقول : ﴿ وَأَوْفُوا بِالعهدِ إنَّ العَهْدَ كانَ مسئُولاً ﴾[2] فأمسك . فلما سلم المجوسى ، قال له : لم أمسكت عما هممت به ؟ فذكر له ما سمع ، فقال له المجوسى :

نعم الرب رب يعاتب وليه فى عدوِّه . فأسلم . وحسن إسلامه .

وقيل : إنما أوقعهم فى الذنب حين سمى نفسه عفوًا .

وقيل : لو قال لا أغفر الذنوب ، لم يذنب مسلم قط ، - كما أنه لما قال : « إن الله لا يغفر أن يشرك به[3] » لم يُشرك مسلم قط ، ولكن لما قال : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ طمعوا فى مغفرته .

ويحكى عن إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه أنه قال : كنت أنتظر مدة من الزمن أن يخلو المطاف لى ، فكانت ليلة ظلماء ، فيها مطر شديد ، فخلا المطاف ، فدخلت الطواف ، وكنت أقول فيه : اللهم اعصمنى . اللهم اعصمنى ، فسمعت هاتفا يقول لى :

يا ابن أدهم ، أنت تسألنى العصمة ، وكل الناس يسألونى العصمة ، فإذا عصمتكم فمن أرحم .

وقيل : رأى أبو العباس بن شريح ، فى منامه فى مرض موته ، كأن القيامة قد قامت ، وإذا الجبار ، سبحانه ، يقول : أين العلماء ؟ . قال : فجاءوا . ثم قال : ماذا عملتم فيما علمتم ؟ قال فقلنا : يارب ، قصرنا ، وأسأنا .

قال : فأعاد السؤال ، كأنه لم يرض به ، وأراد جوابًا آخر .

فقلت : أما أنا ، فليس فى صحيفتى الشرك ، وقد وعدت أن تغفر ما دونه فقال : اذهبوا فقد غفرت لكم ، ومات بعد ذلك بثلاث ليال .

---

(١) الكافر الشديد .

(٢) آية ٣٤ من سورة الإسراء .

(٣) آية ٤٨ من سورة النساء .

وقيل : كان رجل شرِّيب[1] ، جمع قومًا من ندمائه ، ودفع إلى غلام له أربعة دراهم ، وأمره أن يشترى بها شيئا من الفواكه للمجلس ، فمر الغلام بباب مجلس منصور بن عمَّار وهو يسأل لفقير شيئا ، ويقول : من دفع له أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات .

قال : فدفع له الغلام الدراهم ، فقال منصور : ما الذى تريد أن أدعو لك به ؟ .

فقال : لى سيد أريد أن أتخلص منه ! .

فدعا لى منصور بذلك ، وقال : ما الأخرى ، فقال : أن يخلف الله ، تعالى ، علىَّ دراهمى .

فدعا لى بذلك . ثم قال : وما الأخرى : فقال : أن يتوب الله على سيدى فدعا قال : وما الأخرى ؟ فقال : أن يغفر الله لى ولسيدى ، ولك ، وللقوم . فدعا ، منصور بذلك .

فرجع الغلام إلى سيده ، فقال له : لم أبطأت ؟ فقصَّ عليه القصة فقال له . وبم دعا ؟ فقال : سألت لنفسى العتق فقال : اذهب ، فأنت حر وما الثانى ؟ فقال : أن يخلف الله علىَّ الدراهم ، فقال : لك أربعة آلاف درهم . فقال : وما الثالث ؟ فقال : أن يتوب الله عليك ، فقال : تبت إلى الله تعالى ، فقال : وما الرابع ؟ فقال : أن يغفر الله تعالى لك ولى وللقوم وللمذكر ، فقال : هذا الواحد ليس إلى ، فلما بات ، رأى فى المنام كأن قائلا يقول له : أنت فعلت ما كان إليك[2] ترانى لا أفعل ما إلى !! قد غفرت لك ، وللغلام ، ولمنصور بن عمار ، وللقوم الحاضرين .

وقيل : حج رباح القيسى حجات كثيرة ، فقال يومًا - وقد وقف تحت الميزاب .

إلهى وهبت من حجاتى كذا وكذا للرسول ﷺ وعشرة منها لأصحابه العشرة ، وثنتين لوالدى ، والباقى للمسلمين .

ولم يحبس منها شيئا لنفسه : فسمع هاتفًا يقول :

هو ذا يتسخى علينا ، لأغفرن لك ، ولأبويك ، ولمن شهد شهادة الحق .

وروى عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى أنه قال :

رأيت جنازة يحملها ثلاثة من الرجال وامرأة . قال فأخذت مكان المرأة وذهبنا إلى المقبرة . فصلينا عليها ، ودفناها ، فقلت للمرأة ، ومن كان هذا منك ؟ فقالت : ابنى قلت : أو لم يكن لك جيران ؟ قالت : نعم ، ولكنهم صغروا أمره .

---

(١) كثير الشرب للخمر .

(٢) ما كان فى وسعك أن تفعله .

فقلت : وإيش كان هذا ؟ فقالت : مخنثا ! قال : فرحمتها : وذهبت بها إلى منزلى ، وأعطيتها دراهم ، وحنطة ، وثيابا .

ونمت تلك الليلة ، فرأيت كأنه أتانى آت كأنه القمر ليلة البدر ، وعليه ثياب بيض فجعل يتشكر لى ، فقلت من أنت ؟ فقال : المخنث ، الذى دفنتمونى اليوم ، رحمنى ربى باحتقار الناس إياى .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمة الله ، يقول :

مر أبو عمر البيكندى يومًا بسكة ، فرأى قومًا أرادوا إخراج شاب من المحلة ، لفساده ، وامرأة تبكى ، قيل إنها أمه ، فرحمها أبو عمرو فتشفع له إليهم وقال : هبوه منى هذه المرة ، فإن عاد إلى فساده فشأنكم فوهبوه منه ، فمضى أبو عمرو ، فلما كان بعد أيام ، اجتاز بتلك السكة ، فسمع بكاء العجوز من وراء ذلك الباب ، فقال فى نفسه : لعل الشاب عاد إلى فساده ، فنفى من المحلة .

فدق عليها الباب ، وسألها عن حال الشاب ، فخرجت العجوز وقالت له : إنه مات .

فسألها عن حاله ، فقالت ، لما قرب أجله ، قال : لا تخبرى الجيران بموتى ، فلقد آذيتهم ، وإنهم يشتمون بى ، ولا يحضرون جنازتى ، وإذا دفنتينى ، فهذا خاتم لى مكتوب عليه « بسم الله » فادفنيه . معى ، فإذا فرغت من دفنى فتشفعى لى إلى ربى عزَّ وجل .

قالت : ففعلت وصيته . فلما انصرفت عن رأس قبره ، سمعت صوته يقول :

انصرفى يا أماه ، قدمت على رب كريم .

وقيل : أوحى الله ، تعالى ، إلى داود ، عليه السلام :

قل لهم : إنى لم أخلقهم لأربح عليهم ، وإنما خلقتهم ، ليربحوا على .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا بكر الحربى يقول : سمعت إبراهيم الأطروش يقول :

كنا قعودًا ببغداد ، مع معروف الكرخى ، على الدجلة ، إذ مر بنا قوم أحداث فى زورق ، يضربون بالدف ويشربون ، ويلعبون ، فقلنا لمعروف :

أما تراهم كيف يعصون الله تعالى مجاهرين ؟ ادع الله عليهم :

فرفع يده وقال : إلهى كما فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة .

فقالوا : إنما سألناك أن تدعو عليهم !!

فقال : إذا فرحهم فى الآخرة فقد تاب عليهم .

سمعت أبا الحسن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد المزكى ، قال : حدثنا أبو زكريا يحيى ابن محمد[1] الأديب ، قال : حدثنا الفضل بن صدقة قال : حدثنا أبو عبد الله الحسين بن عبد الله بن سعيد ، قال :

كان يحيى بن أكثم القاضى صديقا لى ، وكان يودنى وأوده ، فمات يحيى ، فكنت أشتهى أن أراه فى المنام ، فأقول له : ما فعل الله تعالى بك ، فرأيته ليلة فى المنام فقلت ما فعل الله تعالى بك ؟ .

قال : غفر لى ، إلا أنه وبخنى ، ثم قال لى : يايحيى ، خلطت على فى دار الدنيا .

فقلت : أى ربى ، اتكلت على حديث حدثنيه أبو معاوية الضرير ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ، إنك قلت ، « إنى لأستحيى أن أعذب ذا شيبة بالنار » فقال : قد عفوت عنك يايحيى وصدق نبيى ، إلا أنك خلطت على فى دار الدنيا .

---

(١) وفى نسخة « ابن يحيى » .

باب الحزن

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالوا الحَمدُ لله الَّذى أذْهب عَنَّا الحَزَنَ[1] ﴾ .

أخبرنا على بن أحمد بن عبدان ، قال : أخبرنا أحمد بن عبيد ، قال : أخبرنا على بن حبيش قال : حدثنا أحمد بن عيسى قال : حدثنا ابن وهب قال : حدثنا أسامة بن زيد الليثى ، عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : سمعت عطاء بن يسار قال : سمعت أبا سعيد الخدرى يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من شىء يصيب العبد المؤمن ، من وصب[2] ، أو نصب[3] ، أو حزن ، أو ألم يهمه[4] إلا كفر الله تعالى عنه من سيئاته »[5] .

الحزن : حال يقبض القلب عن التفرق فى أودية الغفلة .

والحزن من أوصاف أهل السلوك .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمة الله تعالى ، يقول :

صاحب الحزن يقطع من طريق الله فى شهر مالا يقطعه من فقد حزنه سنين ، وفى الخبر :

« إن الله يحبُّ كل قلب حزين » .

وفى التوراة :

« إذا أحب الله عبدًا جعل فى قلبه نائحة ، وإذا بغض عبدًا جعل فى قلبه مزمارا » .

وروى أن رسول الله ﷺ كان متواصل الأحزان دائم الفكر .

وقال بشر بن الحارث .

الحزن ملك ، فإذا سكن فى موضع لم يرض أن يساكنه أحد .

وقيل :

القلب إذا لم يكن فيه حُزن خرب ، كما أنَّ الدار إذا لم يكن فيها ساكن تخرب .

---

(١) آية ٣٤ من سورة فاطر .
(٢) مرض .
(٣) تعب .
(٤) يقلقه .
(٥) رواه الترمذى .

وقال أبو سعيد القرشي :

بكاء الحزن يعمي ، وبكاء الشوق يغشي البصر ولا يعمى : قال الله تعالى : ﴿ وابيضت عيناه من الحزنِ فَهُوَ كَظِيمٌ[1] ﴾ .

وقال ابن خفيف :

الحزن : حصر النفس عن النهوض فى الطرب

وسمعت رابعة العدوية رجلاً يقول : واحزناه ! فقالت : قل : واقلة حزناه ، لو كنت محزونًا لم يتهيأ لك أن تتنفس .

وقال سفيان بن عيينه : لو أن محزونًا بكى فى أمةٍ لرحم الله تعالى تلك الأمة ببكائه .

وكان داود الطائى الغالب عليه الحزن ، وكان يقول بالليل : إلهى ، همك عطل على الهموم ، وحال بينى وبين الرقاد .

وكان يقول : « كيف يتسلى من الحزن من تتجدد عليه المصائب فى كل وقت ؟ » .

وقيل : الحزن : يمنع من الطعام ، والخوف : يمنع من الذنوب .

وسئل بعضهم : بم يستدل على حزن الرجل ؟ فقال : بكثرة أنينه .

وقال سرى السقطى : وددت أن حزن كل الناس ألقى على .

وتكلم الناس فى الحزن ، فكلهم قالوا : إنما يحمد حزن الآخرة ، وأما حزن الدنيا فغير محمود ، إلا أبا عثمان الحيرى ، فإنه قال :

الحزن بكل وجه فضيلة ، وزيادة للمؤمن ، مالم يكن بسبب معصية ، لأنه إن لم يوجب تخصيصا فإنه يوجب تمحيصًا .

وعن بعض المشايخ أنه كان إذا سافر واحد من أصحابه يقول له :

إن رأيت محزونا ، فأقرئه منى السلام .

سمعت الأستاذ أبا علىٍّ الدقاق يقول : كان بعضهم يقول للشمس عند غروبها ، هل طلعت اليوم على محزون ؟ .

وكان الحسن البصرى لا يراه أحد إلا ظن أنه حديث عهد بمصيبة .

---

(١) آية ٨٤ من سورة يوسف

وقال وكيع لما مات الفضيل ، ذهب الحزن اليوم من الأرض .

وقال بعض السلف ، أكثر ما يجده المؤمن فى صحيفته من الحسنات الهم ، والحزن .

سمعت أبا عبد الله الشيرازى يقول : سمعت على بن بكران يقول : سمعت محمد بن على المروزى يقول ، سمعت أحمد بن أبى روح يقول : سمعت أبى يقول : سمعت الفضيل بن عياض يقول : كان السلف يقولون : إن على كل شىء زكاة وزكاة العقل[1] طول الحزن .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن أحمد الفراء يقول : سمعت أبا الحسين الوراق يقول ، سألت أبا عثمان الحيرى يومًا عن الحزن فقال : الحزين لا يتفرغ إلى سؤال الحزن ، فاجتهد فى طلب الحزن ، ثم سل .

---

(١) القلب .

باب الجوع وترك الشهوة

قال الله تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَىءٍ مِنَ الخوْف وَالجُوع ﴾[1]

ثم قال فى آخر الآية : ﴿ وَبَشِّر الصَّابِرِينَ ﴾ فبشرهم بجميل الثواب على الصبر على مقاساة الجوع .

وقال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَة ﴾[2][3].

أخبرنا على بن أحمد الأهوازى قال : أخبرنا أحمد بن عبيد الصفَّار قال : حدثنا عبد الله ابن أيوب قال: حدثنا أبو الوليد الطيالسى قال : حدثنا أبو هاشم صاحب الزعفرانى قال : حدثنا محمد بن عبد الله عن أنس بن مالك أنه حدثه قال « جاءت فاطمة ، رضى الله عنها ، بكسرة خبز لرسول الله ﷺ فقال : ما هذه الكسرة يافاطمة » ؟ .

قالت : قرص خبزته ، ولم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة .

فقال : أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام .

وفى بعض الروايات : جاءت فاطمة ، رضى الله عنها ، بقرص شعير .

ولهذا كان الجوع من صفات القوم[4] ، وهو أحد أركان المجاهدة ، فإن أرباب السلوك تدرجوا إلى اعتياد الجوع والإمساك عن الأكل ، ووجدوا ينابيع الحكمة فى الجوع ، وكثرت الحكايات عنهم فى ذلك .

سمعت محمد بن أحمد بن محمد الصوفىَّ يقول : سمعت عبدالله بن على التميمى يقول : سمعت ابن سالم يقول : أدب الجوع أن لا ينقص[5] من عادته إلا مثل أذن السنور .

وقيل : كان سهل بن عبد الله لا يأكل الطعام إلا فى كل خمسة عشر يومًا ، فإذا دخل شهر رمضان كان لا يأكل حتى يرى الهلال ، وكان يفطر كل ليلة على الماء القراح[6] .

وقال يحيى بن معاذ : لو أن الجوع يباع فى السوق لما كان ينبغى لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره .

---

(١) آية ١٥٥ من سورة البقرة .
(٢) خصاصة : فقر وحاجة .
(٣) آية ٩ من سورة الحشر .
(٤) أى الصوفية .
(٥) أى العبد .
(٦) الخالص .

أخبرنا محمد بن عبد الله بن عبيد الله قال : حدثنا على بن الحسين الأرجانى قال : حدثنا أبو محمد عبد الله بن أحمد الأصطخرى بمكة - حرسها الله تعالى - قال : قال سهل بن عبد الله :

لما خلق الله تعالى الدنيا جعل فى الشبع : المعصية والجهل ، وجعل فى الجوع : العلم والحكمة .

وقال يحيى بن معاذ :

الجوع للمريدين رياضة ، وللتائبين تجربة ، وللزهاد سياسة ، وللعارفين مكرمة .

سمعت الأستاذ أبا علىٍّ الدَّقاق ، رحمه الله ، يقول :

دخل بعضهم على بعض الشيوخ ، فرآه يبكى ، فقال له : مالك تبكى ؟

فقال : إنى جائع .

فقال : ومثلك يبكى من الجوع ؟! .

فقال : اسكت ، أما علمت أن مراده من جوعى أن أبكى .

سمعت أبا عبد الله الشيرازى ، رحمه الله ، يقول : حدثنا محمد بن بشر قال : حدَّثنا الحسين بن منصور قال : حدثَّنا داود بن معاذ قال : سمعت مخلدًا[1] يقول :

كان الحجاج بن فرافصة معنا بالشام ، فمكث خمسين ليلة لا يشرب الماء ، ولا يشبع من شىء يأكله .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر الغزالى يقول : سمعت محمد بن على يقول : سمعت أبا عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء يقول : دخل أبو تراب النخشبى من بادية البصرة مكة - حرسها الله تعالى - فسألناه عن أكله ، فقال : خرجت من البصرة .. وأكلت بنباج[2] . ثم بذات عرق .. ومن ذات عرق إليكم . فقطع البادية بأكلتين .

وسمعته يقول : حدثنا على بن النحاس المصرى قال : حدثنا هارون بن محمد الدقاق قال : حدثنا أبو عبد الرحمن بن الدرقش قال : حدثنا أحمد بن أبى الحوارى قال : سمعت عبد العزيز بن عمير يقول : تجوَّع صنف من الطير أربعين صباحا ، ثم طاروا فى الهواء ، فرجعوا بعد أيام ، فكان يفوح منهم رائحة المسك .

---

(١) وفى نسخة مجالدا .

(٢) قرية بالبادية .

وكان سهل بن عبد الله إذا جاع قوى ، وإذا أكل شيئا ضعف .

وقال أبو عثمان المغربى : الرَّبانى لا يأكل فى أربعين يومًا ، والصمدانى فى ثمانين يومًا .

وسمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله يقول : سمعت محمد بن العلوى يقول :

سمعت على بن إبراهيم القاضى بدمشق ، يقول سمعت محمد بن علىٰ بن خلف يقول : سمعت أحمد بن أبى الحوارى يقول : سمعت أبا سليمان الدارانى يقول : مفتاح الدنيا الشبع ، ومفتاح الآخرة الجوع .

سمعت محمد بن عبد الله بن عبيد الله يقول : سمعت على بن الحسين الأرجانى يقول : سمعت أبا محمد الإصطخري يقول : سمعت سهل بن عبد الله ، وقيلَ له : الرجل يأكل فى اليوم أكلة ، فقال أكل الصدِّيقين . قال : فأكلتين قال : أكل المؤمنين . قال : فثلاثة قال : قل لأهلك يبنون لك معلفًا .

وسمعته يقول : حدثنا عبد العزيز بن الفضل قال : حدثنا أبو بكر السائح قالَ : سمعت يحيى بن معاذ يقول : الجوع نور ، والشبع نار ، والشهوة مثل الحطب يتولد منه الاحتراق ، ولا تطفأ ناره حتى يحرق صاحبه .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السراج الطوسى يقول : دخل يومًا رجل من الصوفية على شيخ ، فقدم إليه طعامًا .. ثم قال له : منذ كم يوم لم تأكل ؟ .

فقال : منذ خمسة أيام . فقال جوعك جوع بخل !! عليك ثياب وأنت تجوع ؟ ! ليس هذا جوع فقر !.

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن أحمد بن سعيد الرازى يقول : سمعت العباس بن حمزة يقول : سمعت أحمد بن أبى الحوارى يقول : قال أبو سليمان الدارانى :

لأن أترك من عشائى لقمة أحب إلى من أن أقوم الليل إلى آخره .

وسمعته يقول سمعت أبا القاسم جعفر بن أحمد الرازى يقول :

اشتهى أبو الخير العسقلانى السمك سنين ، ثم ظهر له ذلك من موضع حلال ، فلما مد يده إليه ليأكل أخذت شوكة من عظامه أصبعه ، فذهبت فى ذلك يده ، فقال : يارب ، هذا لمن مد يده بشهوة إلى حلال ، فكيف بمن مد يده بشهوة إلى حرام ؟ .

سمعت الأستاذ أبو بكر بن فورك يقول :

شغل العيال[١] نتيجة متابعة الشهوة بالحلال ، فما ظنك بقضية شهوة الحرام ؟ .

سمعت رستم الشيرازى الصوفى يقول : كان أبو عبد الله بن خفيف فى دعوة فمدَّ واحد من أصحابه يده إلى الطعام قبل الشيخ ، لما كان به من الفاقة ، فأراد بعض أصحاب الشيخ أن ينكروا عليه لسوء أدبه ، حيث مدَّ يده إلى الطعام قبل الشيخ ، فوضع شيئاً بين يدى هذا الفقير ، فعلم الفقير أنه أنكر عليه لسوء أدبه ، فاعتقد[٢] أن لا يأكل خمسة عشر يوما ، عقوبة لنفسه ، وتأديبًا لها ، وإظهارًا لتوبته من سوء أدبه ، وكان قد أصابته فاقة قبل ذلك .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول : حدثنا أبو الفرج الورثانى قال : حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر ، قال : حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحارث ، قال : حدثنا سليمان بن داود قال : حدثنا جعفر بن سليمان قال : سمعت مالك بن دينار يقول :

من غلب شهوات الدنيا فذلك الذى يفرق[٣] الشيطان من ظله .

وسمعته يقول : سمعت منصور بن عبد الله الاصبهانى يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول :

إذا قال الصوفى بعد خمسة أيام أنا جائع فألزموه السوق ، وأمروه بالكسب .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، حاكيًا عن بعض المشايخ أنه قال : إن أهل النار غلبت شهْوتهم حميتهم ، فلذلك افتضحوا .

وسمعته يقول : قيل لبعضهم : ألا تشتهى ؟ فقال : أشتهى ولكن أحتمى .

قال : وقيل لبعضهم : ألا تشتهى ؟ فقال : اشتهى أن لا أشتهى وهذا أتم .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : أخبرنا أحمد بن منصور قال : أخبرنا ابن مخلد قال : حدثنا أبو الحسين الحسن بن عمرو بن الجهم قال : سمعت أبا نصر التمار ، يقول :

أتانى بشر ليلة ، فقلت : الحمد لله الذى جاء بك ، جاءنا قطن من خراسان فغزلته البنت ، وباعته ، واشترت لنا لحمًا ، فتفطر عندنا .

---

(١) أى الاشتغال بهم .

(٢) عزم .

(٣) يفرق : يخاف ، وفى نسخة « يفر » .

فقال : لو أكلت عند أحد أكلت عندكم ثم قال : إنى لأشتهى الباذنجان منذ سنين ، ولم يتفق لى أكله !! فقلت : إن فيها الباذنجان من الحلال . فقال : حتى يصفو لى حب الباذنجان .

سمعت عبد الله بن باكويه الصوفى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا أحمد الصغير يقول :

أمرنى أبو عبد الله بن خفيف أن أقدم إليه كل ليلة عشر حبات زبيب ، لإفطاره ، فليلة أشفقت عليه ، فحملت إليه خمس عشرة حبة ، فنظر إلى وقال :

من أمرك بهذا ؟ وأكل عشر حبات ، وترك الباقى .

سمعت محمد بن عبد الله بن عبيد الله يقول : سمعت أبا العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن الفرغانى يقول : سمعت أبا الحسين الرازى يقول : سمعت يوسف بن الحسين يقول : سمعت أبا تراب النخشبى يقول :

ما تمنت نفسى من الشهوات ، إلا مرة واحدة ، تمنت خبزًا وبيضا وأنا فى سفر ، فعدلتُ إلى قرية ، فقام واحد وتعلق بى وقال : هذا كان مع اللصوص . فضربونى سبعين درة . ثم عرفنى رجل منهم ، فقال : هذا أبو تراب النخشبى !! فاعتذروا إلى ، فحملنى رجل إلى منزله ، إكرامًا لى ، وشفقة على .. وقدم لى خبزا وبيضًا ، فقلت لنفسى : كلى بعد سبعين درة !.

باب الخشوع والتواضع

قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمنون الَّذِينَ هُمْ فى صَلاتِهم خَاشِعُونَ ﴾[١].

أخبرنا أبو الحسن عبد الرحيم بن إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكى ، قال : أخبرنا أبو الفضل سفيان بن محمد الجوهرى ، قال حدثنا على بن الحسين قال : حدثنا يحيى بن حماد قال : حدثنا شعبة ، عن أبان بن ثعلب ، عن فضل الفقيمى ، عن إبراهيم النخعى ، عن علقمة بن قيس ، عن عبد الله بن مسعود ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من فى قابه مثقال ذرَّة من إيمان ، فقال رجل : يارسول الله ، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا . فقال : إن الله تعالى جميل يحب الجمال ، الكبر من بطر الحق[٢] ، وغمص[٣] الناس » .

وأخبرنا على بن أحمد الأهوازى قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصرى ، قال : حدثنا محمد ابن الفضل بن جابر قال حدثنا أبو إبراهيم قال : حدثنا على ابن مسهر ، عن مسلم الأعور ، عن أنس بن مالك ، قال : « كان رسول الله ﷺ يعود المريض ، ويشيع الجنائز ، ويركب الحمار ، ويجيب دعوة العبد ، وكان يوم قريظة والنضير على حمار مخطوم بحبل من ليف ، عليه إكاف[٤] من ليف » .

الخشوع : الانقياد للحق .

والتواضع : هو الاستسلام للحق ، وترك الاعتراض على الحكم .

وقال حذيفة : أول ما تفقدون من دينكم : الخشوع

وسئل بعضهم عن الخشوع ، فقال :

الخشوع : قيام القلب بين يدى الحق ، سبحانه ، بهم [٥] مجموع .

---

(١) آية ١ ، ٢ من سورة المؤمنون .

(٢) أى : رده وابطاله .

(٣) غمص احتقار والحديث رواه مسلم .

(٤) برذعة .

(٥) أى بهمة عظيمة .

وقال : من علامات الخشوع للعبد : أنه إذا أغضب أو خولف ، أورد عليه أن يستقبل ذلك بالقبول .

وقال بعضهم : خشوع القلب : قيد العيون عن النظر .

وقال محمد بن على الترمذى : الخاشع : من خمدت نيران شهوته ، وسكن دخان صدره ، وأشرق نور التعظيم فى قلبه ، فماتت شهوته ، وحيى قلبه ، فخشعت جوارحه .

وقال الحسن البصرى : الخشوع : الخوف الدائم اللازم للقلب .

وسئل الجنيد عن الخشوع ، فقال : تذلل القلوب لعلام الغيوب .

قال الله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾[١] .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول ما معناه : متواضعين ، متخاشعين .

وسمعته يقول : هم الذين لايستحسنون شِسع نعالهم إذا مشوا .

واتفقوا على أن الخشوع محله القلب .

ورأى بعضهم رجلاً منقبض الظاهر ، منكسر الشاهد[٢] ، قد زوى[٣] منكبيه ، فقال له : يا فلان ، الخشوع هاهنا ، وأشار إلى صدره لاهاهنا وأشار إلى منكبيه .

وروى أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يعبث فى صلاته بلحيته ، فقال : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه »[٤] .

وقيل ، شرط الخشوع ، فى الصلاة أن لا يعرف من على يمينه ومن على شماله .

قال الاستاذ الإمام : ويحتمل أن يقال :

الخشوع ، إطراق السريرة بشرط الأدب بمشهد الحق سبحانه وتعالى .

ويقال : الخشوع ، ذبول يرد على القلب عند اطلاع الرب .

ويقال : الخشوع ، ذوبان القلب وانخناسه عند سلطان الحقيقة .

ويقال : الخشوع ، مقدمات غلبات الهيبة .

ويقال : الخشوع : قشعريرة ترد على القلب بغتة عند مفاجأة كشف الحقيقة .

---

(١) آية ٦٣ من سورة الفرقان .

(٢) أى غاض البصر .

(٣) جمع .

(٤) رواه الحكيم عن أبى هريرة بسند ضعيف .

وقال الفضيل بن عياض : كان يكره أن يرى على الرجل من الخشوع أكثر مما فى قلبه .

وقال أبو سليمان الدارانى : لو اجتمع الناس على أن يضعونى كاتضاعى عند نفسى لما قدروا عليه .

وقيل : من لم يتضع عند نفسه لم يتضع عند غيره .

وكان عمر بن عبد العزيز لا يسجد إلّا على التراب .

أخبرنا على بن أحمد الأهوازى قال : حدثّنا أحمد بن عبيد البصرى ، قال : حدثّنا إبراهيم ابن عبد الله ، قال : حدثنا أبو الحسن على بن يزيد الفرائضى ، قال : حدثنا محمد بن كثير ، وهو المصيصى ، عن هارون بن حيان ، عن حصيف ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر[1] » .

وقال مجاهد ، رحمة الله : لما أغرق الله سبحانه ، قوم نوح شمخت الجبال ، وتواضع الجودى[2] ، فجعله الله سبحانه ، قرارا لسفينة نوح عليه السلام .

وكان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، يسرع فى المشى ، ويقول : إنه أسرع للحاجة ، وأبعد من الزهو .

وكان عمر بن عبد العزيز ، رضى الله عنه ، يكتب ليلة شيئا ، وعنده ضيف ، فكاد السراج . ينطفئ ، فقال الضيف : أقوم إلى المصباح فأصلحه ، فقال :

لا : ليس من الكرم استخدام[3] الضيف .

قال : فأنبِّه الغلام .

قال : لا ، هى أول نومة نامها .

فقام إلى البطة[4] ، وجعل الدهن فى المصباح ، فقال الضيف :

قمت بنفسك يا أمير المؤمنين !! .

فقال له عمر : ذهبتُ وأنا عمر ، ورجعت وأنا عمر .

وروى أبو سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ : كان يعلف البعير ، ويقم[5]

---

(١) رواه مسلم .

(٢) جبل .

(٣) وفى نسخة « استعمال » .

(٤) التى فيها الدهن .

(٥) يكنسه .

البيت ، ويخصف[١] النعل ، ويرقع الثوب ، ويحلب الشاة ، ويأكل مع الخادم ، ويطحن معه إذا أعيا[٢] ، وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله ، وكان يصافح الغنى والفقير ، ويسلم مبتدئًا ، ولا يحتقر ما دعى إليه ، ولو إلى حشف[٣] التمر ، وكان هين المؤنة[٤] ، لين الخلق ، كريم الطبيعة[٥] جميل المعاشرة ، طلق الوجه ، بسامًا من غير ضحك ، محزونًا من غير عبوسة ، متواضعا من غير مذلة ، جوادًا من غير سرف ، رقيق القلب ، رحيما بكل مسلم ، لم يتجشأ قط من شبع ، ولم يمد يده إلى طمع » .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبد الله بن محمد الرازى يقول : سمعت محمد بن نصر الصائغ يقول : سمعت مردويه الصائغ يقول : سمعت الفضيل بن عياض يقول : قراء الرحمن ، عز وجل ، أصحاب خشوع وتواضع ، وقراء القضاة[٦] أصحاب عجب وتكبر .

وقال الفضيل بن عياض : من رأى لنفسه قيمة فليس له فى التواضع نصيب .

وسئل الفضيل عن التواضع ، فقال : تخضع للحق ، وتنقاد له وتقبله ممن قاله .

وقال الفضيل : أوحى الله ، سبحانه وتعالى ، إلى الجبال : أنى مكلم على واحد منكم نبيا . فتطاولت الجبال ، وتواضع « طور سينا » ، فكلم الله سبحانه عليه موسى ، عليه السلام ، لتواضعه .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أحمد بن على بن جعفر ، يقول : سمعت ابراهيم بن فاتك ، يقول : سئل الجنيد عن التواضع ، فقال :

خفض الجناح للخلق ، ولين الجانب لهم .

وقال وهب : مكتوب فى بعض ما أنزل الله تعالى من الكتب : « إنى أخرجت الذر[٧] من صلب آدم ، فلم أجد قلبًا أشدَّ تواضعاً من قلب موسى ، عليه السلام ، فلذلك اصطفيته وكلَّمته » .

---

(١) يخرز .
(٢) تعب .
(٣) أردأ التمر : وهو الذى يجف من غير نضج ولا إدراك .
(٤) أى يرضى بما تيسر منها ولا يتكلف الزيادة .
(٥) أى كرمًا جبليًا بدون تكلف .
(٦) الولاة .
(٧) أى بنى آدم .

وقال ابن المبارك : التكبر على الأغنياء ، والتواضع للفقراء من التواضع .

وقيل لأبى يزيد : متى يكون الرجل متواضعا ؟ .

فقال : إذا لم ير لنفسه مقامًا ولا حالاً ، ولا يرى أن فى الخلق من هو شر منه .

وقيل : التواضع نعمة لا يحسد عليها ، والكبر محنة لا يرحم عليها . والعزُّ فى التواضع فمن طلبه فى الكبر لم يجده .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله يقول : سمعت إبراهيم بن شيبان يقول : للشرف فى التواضع ، والعزُّ فى التقوى ، والحرية فى القناعة .

وسمعته أيضا يقول : سمعت الحسن الساوى يقول : سمعت ابن الأعرابى يقول : بلغنى أنَّ سفيان الثورى قال : أعز الخلق خمسة أنفس :

عالم زاهد ، وفقيه صوفى ، وغنى متواضع ، وفقير شاكر ، وشريف سُنى .

وقال يحيى بن معاذ : التواضع حسن فى كلِّ أحد لكنه فى الأغنياء أحسن ، والتكبر سمج فى كل أحد لكنه فى الفقراء أسمجَ !!.

وقال ابن عطاء : التواضع : قبول الحق ممن كان .

وقيل : ركب زيد بن ثابت ، فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه ، فقال له :

مه[1] يا ابن عمِّ رسول الله . فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا .

فأخذ زيد بن ثابت يد ابن عباس فقبلها ، وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل رسول الله ﷺ .

وقال عروة بن الزبير : رأيت عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، وعلى عاتقه قربة ماء ، فقلت :

يا أمير المؤمنين ، لا ينبغى لك هذا !! .

فقال : لما أتانى الوفود سامعين مطيعين ، دخلت فى نفسى نخوة[2] فأحببتُ أن أكسرها .. ومضى بالقربة إلى حجرة امرأة من الأنصار فأفرغها فى إنائها .

---

(١) اكفف وامتنع .

(٢) كبر وعظمة .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السراج الطوسى يقول : رؤى أبو هريرة ، وهو أمير المدينة ، وعلى ظهره حزمة حطب ، وهو يقول : طرقوا[١] للأمير .

وقال عبد الله الرازى : التواضع ترك التمييز فى الخدمة .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن أحمد بن هارون يقول : سمعت محمد بن العباس الدمشقى يقول : سمعت أحمد بن أبى الحوارى يقول : سمعت أبا سليمان الدارانى يقول :

من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة .

وقال يحيى بن معاذ : التكبر[٢] على من تكبر عليك بماله تواضع .

وقال الشبلى رحمه الله : ذلى عطّل ذل اليهود[٣] .

وجاءه رجل ، فقال له الشبلى : ما أنت ؟ .

فقال : ياسيدى النقطة التى تحت الباء[٤] .

فقال له : أنت شاهدى[٥] ، ما لم نجعل لنفسك مقامًا .

وقال ابن عباس ، رضى الله عنهما ، من التواضع أن يشرب الرجل من سؤر[٦] أخيه .

وقال بشر : سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم .

وقال شعيب بن حرب : بينا أنا فى الطواف إذ لكزنى إنسان بمرفقه ، فالتفت إليه ، فإذا هو الفضيل بن عياض ، فقال : يا أبا صالح ، إن كنت تظن أنه شهد الموسم شر منى ومنك فبئس ما ظننت !! .

وقال بعضهم رأيت فى الطواف إنسانًا بين يديه « شاكريه[٧] » يمنعون الناس لأجله عن الطواف .. ثم رأيته بعد ذلك بمدة على جسر بغداد يسأل الناس شيئا ..

---

(١) أوسعوا الطريق .

(٢) المقصود به الإعراض .

(٣) ذل اليهود المذكور فى قوله تعالى : ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا ﴾ .
والمعنى : أن ذلى فى نفسى أعظم من ذل اليهود فى أنفسهم ، لأن ذلهم قهرى ، وذلى عن علم بما عليه نفسى من النقص .

(٤) فتميز الباء عن غيرها من الحروف كذلك حاله متميزا عن غيره من المخلوقات .

(٥) حاضرى يعنى : حالك مستقيم .

(٦) بقية مشروب .

(٧) أى : يشكرونه ويمدحونه .

فتعجبت منه ، فقال لى :

أنا تكبرت فى موضع يتواضع الناس هناك ، فابتلانى الله ، سبحانه ، بالتذلل فى موضع يترفع فيه الناس .

وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنًا له اشترى فصا بألف درهم ، فكتب إليه عمر :

« بلغنى أنك اشتريت فصا بألف درهم ، فإذا أتاك كتابى هذا فبع الخاتم ، وأشبع ألف بطن واتخذ خاتما من درهمين ، واجعل فصه حديداً صينيا ، واكتب عليه « رحم الله امرءا عرف قدر نفسه » .

وقيل : عرض على بعض الأمراء مملوك بألف درهم ، فلما أحضر الثمن استكثره فبدا له فى شرائه ، فردَّ الثمن إلى الخزانة ! فقال العبد :

يا مولاى ، اشترنى ، فإن فىَّ بكل درهم من هذه الدراهم خصلة تساوى أكثر من ألف درهم ، فقال : وما هى ؟ فقال : أقلها وأدناها مالو اشتريتنى وقدمتنى على جمع مماليكك لآ أغلظ فى نفسى ، وأعلم أنى أنا عبدك فاشتراه .

وحكى عن رجاء بن حيوة أنه قال : قوِّمت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو يخطب باثنى عشر درهمًا ، وكانت : قباء ، وعمامة ، وقميصا ، وسراويل ، وخفين ، وقلنسوة .

وقيل : مشى عبد الله بن محمد بن واسع مشيًا لا يحمد[1] فقال له أبوه :

وتدرى بكم اشتريتُ أمك . بثلاثمائة درهم ، وأبوك لا أكثر الله فى المسلمين مثله أبًا ، وأنت تمشى هذه المشية !!

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أحمد بن الفراء يقول : سمعت عبد الله بن منازل يقول : سمعت حمدون القصار يقول :

التواضع : أن لا ترى لأحد إلى نفسك حاجة ، لا فى الدين ، ولا فى الدنيا .

وقال إبراهيم بن أدهم : ما سررت فى إسلامى إلا ثلاث مرات :

مرة كنت فى سفينة ، وفيها رجل مضحاك[2] كان يقول : كنا نأخذ العلج[3] فى بلاد الترك هكذا (وكان يأخذ بشعر رأسى ، ويهزنى) ، فيسرنى ذلك ، لأنه لم يكن فى السفينة أحدٌ أحقر فى عينه منى .

---

(١) متبخترا .

(٢) كثير الضحك .

(٣) الرجل من الكفار .

والأخرى : كنت عليلاً فى مسجد ، فدخل المؤذن ، وقال اخرج ، فلم أطق ، فأخذ برجلى وجرنى إلى خارج المسجد .

والثالثة : كنت بالشام ، وعلىَّ فرو ، فنظرت فيه فلم أميز بين شعره وبين القمل ، لكثرته ، فسرنى ذلك .

وفى حكاية أخرى عنه قال : ما سررت بشىء كسرورى أنى كنت يومًا جالساً فجاء إنسان وبال على .

وقيل : تشاجر أبو ذر وبلال ، رضى الله عنهما ، فعير أبو ذر بلالاً بالسواد . فشكاه إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا أبا ذر ، إنه بقى فى قلبك من كبر الجاهلية شىء .

فألقى أبو ذر نفسه .. وحلف أن لا يرفع رأسه حتى يطأ بلال خده بقدمه .. فلم يرفع حتى فعل بلال ذلك .

ومر الحسن بن على ، رضى الله عنهما ، بصبيان معهم كسر خبز ، فاستضافوه ، فنزل ، وأكل معهم ، ثم حملهم إلى منزله ، وأطعمهم ، وكساهم ، وقال :

اليد[1] لهم ، لأنهم لم يجدوا غير ما أطعمونى ، ونحن نجد أكثر منه .

وقيل : قسم عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، الحلل بين الصحابة من غنيمة ، فبعث إلى معاذ حلة يمانية ، فباعها واشترى ستة أعبد ، وأعتقهم ، فبلغ عمر ذلك ، فكان يقسم الحلل بعده ، فبعث إليه حلة دون تلك ، فعاتبه معاذ ، فقال له عمر :

لا معاتبة ، لأنك بعت الأولى .

فقال معاذ : وما عليك ، ادفع إلى نصيبى ، وقد حلفت لأضربن بها رأسك[2] .

فقال عمر : هذا رأسى بين يديك ، وقد يرفُق الشيخ بالشيخ .

---

(١) النعمة .

(٢) أى لأضربن رأسك بهذه الحلة .

باب مخالفة النفس وذكر عيوبها

قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى[١] ﴾ .

أخبرنا على بن أحمد بن عبدان قال : حدثنا أحمد بن عبيد قال : أخبرنا تمام قال : حدثنا محمد بن معاوية النيسابورى قال : حدثنا على بن أبى على بن عتبة بن أبى لهب ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « أخوف ما أخاف على أمتى : اتباع الهوى ، وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة »[٢] .

ثم اعلم أن مخالفة النفس رأس العبادة ، وقد سئل المشايخ عن الإسلام ، فقالوا : ذبح النفس بسيوف المخالفة .

واعلم أن من نجمت طوارق نفسه[٣] أفلت[٤] شوارق أنسه .

وقال ذو النون المصرى : مفتاح العبادة : الفكرة ، وعلامة الإصابة : مخالفة النفس والهوى ، ومخالفتها ترك شهواتها .

وقال ابن عطاء : النفس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة الأدب ، فالنفس تجرى بطبعها فى ميدان المخالفة ، والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة ، فمن أطلق عنانها فهو شريكها معها فى فسادها .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا عمر الأنماطى يقول : سمعت الجنيد يقول : النفس الأمارة بالسوء : هى الداعية إلى المهالك ، المعينة للأعداء المتبعة للهوى ، المتهمة بأصناف الأسواء .

وقال أبو حفص : من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ، ولم يخالفها فى جميع الأحوال ، ولم

---

(١) آية ٤٠ من سورة النازعات .

(٢) رواه ابن عدى عن جابر بسند ضعيف .

(٣) طلعت آثار خواطره .

(٤) غربت من قلبه .

يجرها إلى مكروهها فى سائر أيامه كان مغروراً ومن نظر إليها باستحسان شىء منها فقد أهلكها .

وكيف يصح لعاقل : الرضا عن نفسه ، والكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل ، يقول : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى ، إِنَّ النَّفْس لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾[1] .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت إبراهيم بن مقسم ببغداد يقول : سمعت ابن عطاء يقول : قال الجنيد : أرقت ليلة ، فقمت إلى وردى[2] ، فلم أجد ما كنت أجده من الحلاوة والتلذذ بمناجاتى لربى ، فتحيرت ، فأردت أن أنام ، فلم أقدر عليه ، فقعدت ، فلم أطق القعود ، ففتحت الباب ، وخرجت ، فإذا رجل ملتف فى عباءة مطروح على الطريق ، فلما أحس بى ، رفع رأسه ، وقال : يا أبا القاسم ، إلى الساعة[3] فقلت : ياسيدى من غير موعد ؟ فقال : بلى قد سألت محرك القلوب أن يحرك إلى قلبك[4] .

فقلت : فقد فعل فما حاجتك ؟

فقال : متى يصير داء النفس دواؤها .

فقلت : إذا خالفت النفس هواها صار داؤها دواؤها .

فأقبل على نفسه ، وقال : اسمعى ، قد أجبتك بهذا الجواب سبع مرات فأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيد ، فقد سمعت ، وانصرف عنى ولم أعرفه . ولم أقف عليه بعد .

وقال أبو بكر الطمستانى : النعمة العظمى الخروج من النفس ، لأنه أعظم حجاب بينك وبين الله عز وجل .

وقال سهل بن عبد الله ما عبد الله بشىء مثل مخالفة النفس والهوى .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول سمعت أبا عمر الأنماطى يقول : سمعت ابن عطاء ، وقد سئل عن أقرب شىء إلى مقت الله تعالى ، فقال :

---

(١) آية ٥٣ من سورة يوسف .
(٢) من الصلاة .
(٣) أى تأخرت عنى .
(٤) أى فالوقت الذى طلبتك فيه منه هو أول ما حركك ، فهو الموعد .

رؤية النفس وأحوالها ، وأشدُّ من ذلك مطالعة الأعواض على أفعالها[١] .

وسمعته يقول : سمعت الحسين بن يحيى يقول : سمعت جعفر بن نصير يقول : سمعت إبراهيم الخوَّاص يقول كنت فى جبل « اللكام[٢] » فرأيت رمانًا فاشتهيته .. فدنوت منه ، فأخذت منه واحدة ، فشققتها ، فوجدتها حامضة ، فمضيت ، وتركت الرمان ، فرأيت رجلًا مطروحا ، قد اجتمع عليه الزنابير ، فقلت : السلام عليك . فقال : وعليك السلام يا إبراهيم ، فقلت له : وكيف عرفتنى ؟ فقال : من عرف الله تعالى لا يخفى عليه شىء فقلت : أرى لك حالاً مع الله تعالى ، فلو سألته أن يحميك ويقيك الأذى من هذه الزنابير ؟ فقال : وأنا أرى لك حالاً مع الله تعالى ، فلو سألته أن يقيك شهوة الرمان !! فإن لدغ الرمان يجد الإنسان ألمه فى الآخرة ، ولدغ الزنابير يجد ألمه فى الدنيا . فتركته ومضيت .

وحكى عن إبراهيم بين شيبان أنه قال : مابت تحت سقف ، ولا فى موضع عليه غَلق أربعين سنة ، وكنت أشتهى فى أوقات أن أتناول شبعة عدس ، فلم ، يتفق .. فكنت وقتا بالشام ، فحمل إلى غضارة[٣] فيها عدس ، فتناولت منه ، وخرجت .. فرأيت قوارير[٤] معلقة فيها شىء شبه « نموذجات »[٥] .. فظننته خلا .. فقال لى بعض الناس : إيش تنظر هذه نموذجات الخمر ، وهذه الدنان خمر .

فقلت فى نفسى : لزمنى فرض .. فدخلت حانوت الخمار ، ولم أزل أصب تلك الدنان وهو يتوهم أنى أصبها بأمر السلطان .. فلما علم ، حملنى إلى ابن طولون .. فأمر بضربى مائتى خشبة .. وطرحنى فى السجن .. فبقيت فيه مدَّة ، حتى دخل أبو عبدِ الله المغربى استاذى ذلك البلد ، فشفع لى ، فلما وقع بصره على ، قال :

إيش فعلت ؟ فقلت : شبعة عدس ومائتى خشبة فقال لى : نجوت مجاناً[٦] .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت جعفر بن نصير يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرى السقطى يقول :

---

(١) أى تطلع العبد إلى الجزاء على أعماله وفى نسخة : ومطالعة الأعراض .

(٢) بلدة بالشام .

(٣) آنية من طين .

(٤) آنية من زجاج .

(٥) قطرات من مائع .

(٦) أى بلا عقوبة فى الآخرة بعد هذه العقوبة الدنيوية .

إن نفسى تطالبنى ، منذ ثلاثين سنة أو أربعين سنة ، أن أغمس جزرة فى دبس[١] فما أطعتها[٢] .

وسمعته يقول : سمعت جدى يقول : آفة العبد : رضاه من نفسه بما هو فيه .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن عبد الله الرازى يقول : سمعت الحسين بن على القرمسينى يقول : وجه عصام بن يوسف البلخى شيئا إلى حاتم الأصمّ ، فقبله منه .

فقيل له : لم قبلته ؟ .

فقال : وجدت فى أخذه ذلىّ وعزه ، وفى رده عزى وذله ، فاخترت عزه على عزى وذلى على ذله .

وقيل لبعضهم : إنى أريد أن أحج على التجريد .

فقال له : جرد أولا قلبك عن السهو ، ونفسك عن اللهو ، ولسانك عن اللغو ، ثم اسلك حيث شئت .

وقال أبو سليمان الدارانى :

من أحسن فى ليله كوفئ فى نهاره ، ومن أحسن فى نهاره كوفئ فى ليله ، ومن صدق فى ترك شهوة كفى مؤنتها ، والله أكرم من أن يعذب قلبًا ترك شهوة لأجله .

وأوحى الله سبحانه إلى داود عليه السلام .

يا داود ، حذر ، وأنذر أصحابك أكل الشهوات ، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عنى محجوبة .

ورؤى رجل جالساً[٣] فى الهواء ، فقيل له : بم نلت هذا ؟

فقال : تركت الهوى فسخر لى الهواء .

وقيل : لو عرض للمؤمن ألف شهوة لأخرجها بالخوف ، ولو عرض للفاجر شهوة واحدة لأخرجته من الخوف .

وقيل : لا تضع زمامك فى يد الهوى ، فإنه يقودك إلى الظلمة .

---

(١) الدبس : عسل التمر وعسل النحل .

(٢) وفى نسخة « فما أطعمتها » .

(٣) وفى نسخة « جالس » .

وقال يوسف بن أسباط : لا يمحو الشهوات من القلب إلا خوف مزعج[١] أو شوق مقلق[٢] .

وقال الخواص : من ترك شهوة ، فلم يجد عوضها فى قلبه ، فهو كاذب فى تركها .

وقال جعفر بن نصير : دفع إلى الجنيد درهمًا ، وقال : اشتر لى به التين الوزيرى ، فاشترَيته له ، فلما أفطر أخذ واحدة ووضعها فى فمه ، ثم ألقاها ، وبكى ، وقال : احمله . فقلت له فى ذلك ، فقال : هتف فى قلبى أما تستحى ؟ شهوة تركتها من أجلى[٣] ثم تعود إليها .

وأنشدوا :

نون الهوان من الهوى مسروقة وصريع كل هوى صريع هوان

وأعلم أن للنفس أخلاقا ذميمة ، فمن ذلك : الحسد

---

(١) كامل .
(٢) قوى .
(٣) فى نسخة من أجله .

باب الحسد

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ ، مِنْ شَر مَا خَلَقَ ﴾

ثم قال : ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

فختم السورة التى جعلها عوذة[1] بذكر الحسد .

أخبرنا أبو الحسين الأهوازى ، قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصرى قال : حدثنا إسماعيل ابن الفضل قال : حدثنا يحيى بن مخلد ، قال : حدثنا معا فى ابن عمران ، عن الحارث بن شهاب ، عن معبد ، عن أبى قلابة ، عن ابن مسعود قال : إن النبى ﷺ قال : ثلاث هنَّ أصل كل خطيئة فاتقوهن واحذروهن :

إياكم والكبر ، فإن إبليس حمله الكبر على أن لا يسجد لآدم .

وإياكم والحرص ، فإن آدم حمله الحرص على أن أكل من الشجرة .

وإياكم والحسد ، فإن ابنى آدم إنما قتل أحدهما صاحبه حسدا[2] .

وقال بعضهم : الحاسد جاحد ، لأنه لا يرضى بقضاء الواحد .

وقيل : الحسود لا يسود .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ[3] ﴾ ، قيل ما بطن : الحسد ، وفى بعض الكتب : الحاسد عدو نعمتى .

وقيل : أثر الحسد يتبين فيك قبل أن يتبين فى عدوك .

وقال الأصمعى : رأيت أعرابيًا أتى عليه مائة وعشرون سنة ، فقلت له : ما أطول عمرك .

فقال : تركتُ الحسد فبقيت .

وقال ابن المبارك : الحمد لله الذى لم يجعل فى قلب أميرى ما جعله فى قلب حاسدى .

---

(١) عوذة بفتح العين وضمها ؛ أى : تعويذًا .

(٢) رواه ابن عساكر عن ابن مسعود .

(٣) آية ٣٣ سورة الأعراف .

وفى بعض الآثار[١] إن فى السماء الخامسة ملكا يمر به عمل عبد ، له ضوء كضوء الشمس ، فيقول له الملك : قف فأنا ملك الحسد ، اضرب به وجه صاحبه ، فإنه حاسد .

وقال معاوية : كل إنسان أقدر على أن أرضيه ، إلا الحاسد ، فإنه لا يرضيه إلا زوال النعمة .

ويقال : الحاسد ظالم غشوم ، لا يبقى ولا يذر .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من الحاسد : غم دائم ونفس متتابع .

وقيل : من علامات الحاسد أن يتملق إذا شهد ، ويغتاب إذا غاب ، ويشمت بالمصيبة إذا نزلت .

وقال معاوية : ليس فى خلال[٢] الشر خلة أعدل من الحسد ، تقتل الحاسد قبل المسحود[٣] .

وقيل : أوحى الله ، سبحانه ، إلى سليمان بن داود ، عليهما السلام : أوصيك بسبعة أشياء : لا تغتابن صالح عبادى ، ولا تحسدن أحدا من عبادى .

فقال سليمان :

يارب ، حسبى .

وقيل : رأى موسى عليه السلام ، رجلًا عند العرش فغبطه[٤] ، فقال : ما صفته ؟ فقيل : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله .

وقيل : الحاسد إذا رأى نعمة بهت ، وإذا رأى عثرة شمت .

وقيل : إذا أردتَ أن تسلم من الحاسد ، فلبس عليه أمرك[٥] .

وقيل : الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له ، بخيل بما لا يملكه .

وقيل : إياك أن تتعنى[٦] فى مودة من يحسدك ، فإنه لا يقبل إحسانك .

---

(١) وفى نسخة « الأخبار » .

(٢) خصال .

(٣) وفى « نسخة يقتل الحاسد » أى : همًا وغمًا ، « كما قتل المحسود » أى : بزوال نعمه أن زالت .

(٤) أى تمنى أن ينال مثل ما ناله .

(٥) أى استر نعم الله عليك .

(٦) تتعب نفسك .

وقيل : إذا أراد الله تعالى أن يسلط على عبد عدوا لا يرحمه سلط عليه حاسده :

وأنشدوا :

وحسبك من حادث بامرئٍ   ترى حاسديه له راحمينا

وأنشدوا :

كلُّ العداوة قد ترجى إماتتها[١]   إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال ابن المعتز :

قل للحسود إذا تنفس : طعنة[٢]   يا ظالمًا وكأنه مظلوم

وأنشدوا :

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ   طويت أتاح لها لسان حسود

ومن الأخلاق المذمومة للنفس : اعتياد الغيبة .

---

(١) وفى نسخة « مودتها » .

(٢) أى : رزقك الله بطعنه .

باب الغيبة

قال الله سبحانه : ﴿ وَلَا يَغْتَبْ بَعضُكُمْ بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يأْكُلَ لَحْمَ أَخِيه مَيْتًا[1] ﴾ الآية .

أخبرنا أبو سعيد محمد بن إبراهيم الإسماعيلى ، قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين بن الحسن بن الخليل ، قال : حدثنا على بن الحسن قال : حدثنا إسحق بن عيسى ابن بنت داود ابن أبى هند ، قال حدثنا محمد بن أبى حميد ، عن موسى بن وردان ، عن أبى هريرة : أن رجلًا قام ، وهو مع رسول الله ﷺ قبل ذلك جالس ، فقال بعض القوم : ما أعجز فلانًا ، فقال ﷺ :

أكلتم أخاكم واغتبتموه[2]

وأوحى الله ، سبحانه إلى موسى عليه السلام :

« من مات تائبًا من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصرا عليها فهو أول من يدخل النار » .

وقال عوف : دخلت على ابن سيرين ، فتناولت الحجاج[3] ، فقال ابن سيرين : إن الله تعالى ، حكم عدل ، فكما يأخذ من الحجاج يأخذ للحجاج ، وإنك إذا لقيت الله عز وجلّ غدا كان أصغر ذنب أصبته أشدَّ عليك من أعظم ذنب أصابه الحجَّاج .

وقيل : دعى إبراهيم بن أدهم إلى دعوة ، فحضر ، فذكروا رجلًا لم يأتهم ، فقالوا : إنه ثقيل ! فقال إبراهيم : إنما فعل بى هذا نفسى ، حيث حضرت موضعًا يغتاب فيه الناس ، فخرج ، ولم يأكل ثلاثة أيام .

وقيل : مثل الذى يغتاب الناس ، كمثل من نصب « منجنيقًا » يرمى به حسناتِه شرقًا وغربًا ، يغتاب واحداً خراسانيًا ، وآخر تركيا ، فيفرق حسناته ، ويقوم لا شىء معه ! .

---

(١) آية ١٢ من سورة الحجرات .

(٢) رواه أبو يعلى والطبرانى .

(٣) اغتبته .

وقيل : يؤتى العبد يوم القيامة كتابه ، فلا يرى فيه حسنة ، فيقول : أين صلاتى ، وصيامى ، وطاعتى ؟؟؟ فيقال :

ذهب عملك كله .

وقيل : من اغتيب بغيبة غفر الله له نصف ذنوبه .

وقال سفيان بن الحسين : كنت جالسا عند إياس بن معاوية ، فنلت من إنسان .

فقال لى : هل غزوت فى هذا العام الترك والروم ؟ . فقلت : لا .

فقال : سلم منك الترك والروم ، وما سلم منك أخوك المسلم ؟ .

وقيل : يعطى الرجل كتابه . فيرى فيه حسنات لم يعملها . فيقال له :

هذا بما اغتابك الناس وأنت لم تشعر .

وسئل سفيان الثورى عن قوله ﷺ : « إن الله يبغض أهل البيت اللحميين » . فقال : هم الذين يغتابون الناس : يأكلون لحومهم .

وذكرت الغيبة عند عبد الله بن المبارك ، فقال :

لو كنت مغتابًا أحدًا لاغتبت والدى ، لأنهما أحق بحسناتى :

وقال يحيى بن معاذ : ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال :

إن لم تنفعه فلا تضره ، وإن لم تسره فلا تغمه ، وإن لم تمدحه فلا تذمه :

وقيل للحسن البصرى : إن فلانا اغتابك : فبعث إليه طبق حلواء وقال : بلغنى أنك أهديت إلى حسناتك ، فكافأتك :

أخبرنا على بن أحمد الأهوازى قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصرى قال : أخبرنا أحمد بن عمرو القطوانى قال : حدثنا سهل بن عثمان العسكرى قال : حدثنا الربيع بن بدر ، عن أبان ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له »[1] .

سمعت حمزة بن يوسف السهمى يقول ، سمعت أبا طاهر محمد بن أسيد الرقى يقول ، سمعت جعفر بن محمد بن نصير يقول ، قال الجنيد :

كنت جالسا فى مسجد « الشونزية » أنتظر جنازة أصلى عليها ، وأهل بغداد ، على

---

(١) رواه البيهقى عن أنس بسند ضعيف .

طبقاتهم[١] ، جلوس ينتظرون الجنازة ، فرأيت فقيرًا عليه أثر النسك[٢] يسأل النّاس ، فقلت فى نفسى ، لو عمل هذا عملاً يصون به نفسه كان أجمل به .

فلما انصرفت إلى منزلى ، وكان لى شىء من الورد بالليل ، حتى البكاء والصلاة وغير ذلك ، فثقل على جميع أورادى ، فسهرت وأنا قاعد ، فغلبتنى عيناى .. فرأيت ذلك الفقير .. جاءوا به على خوان ممدود . وقالوا لى : كل لحمه ، فقد اغتبته !. وكشف لى عن الحال ، فقلت :

ما اغتبته ! إنما قلت فى نفسى شيئا ، فقيل لى :

ما أنت ممن يرضى منك بمثله ، اذهب فاستحله ،

فأصبحت ولم أزل أتردد حتى رأيته فى موضع يلتقط من الماء ، عند تزايد[٣] الماء ، أوراقًا من البقل مما تساقط من غسل البقل ، فسلمت عليه ، فقال يا أبا القاسم ، تعود ؟

فقلت : لا .

فقال : غفر الله لنا ولك .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا طاهر الإسفراينى يقول : سمعت أبا جعفر البلخى يقول : كان عندنا شاب من أهل بلخ ، وكان يجتهد ، ويتعبَّد ، إلا أنه كان أبدًا يغتاب الناس ويقول : فلان كذا ، وفلان كذا ، وفلان كذا ، .. فرأيته يوما عند المخنثين[٤] الغسالين ، خرج من عندهم .

فقلت : يا فلان ، ما حالك ؟ .

فقال : تلك الوقيعة فى الناس[٥] أوقعتنى إلى هذا ، ابتليتُ بمخنث من هؤلاء ، وأنا هوذا أخدمهم من أجله ، وتلك الأحوال كلها قد ذهبت ، فادع الله أن يرحمنى .

---

(١) مراتبهم .
(٢) العبادة .
(٣) وفى نسخة تراد .
(٤) المتشبهين بالنساء فى أفعالهم .
(٥) أى : اغتيابى لهم .

باب القناعة

قال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالحا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً[١] ﴾ .

أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، قال : حدَّثنا أبو عمرو محمد بن جعفر بن مطر ، قال : حدثنا محمد بن موسى الحلوانى ، قال : حدثنا عبد الله بن ابراهيم الغفارى ، عن المنكدر بن محمد ، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « القناعة كنز لايفنى[٢] » .

أخبرنا أبو الحسن الأهوازى ، قال : حدثنا أحمد بن عبيد البصرى ، قال : حدثنا عبد الله ابن أيوب المقرى قال : حدثنا أبو الربيع الزهرانى ، قال : حدثنا اسماعيل بن زكريا ، عن أبى رجاء ، عن برد بن سنان ، عن مكحول ، عن واثلة بن الأسقع ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كن ورعا تكن أعبد الناس ، وكن قنعًا تكن أشكر الناس ، وأحب للناس ما تحب لنفس تكن مؤمنًا وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما ، وأقل الضحك ، فإن كثرة الضحك تميت القلب[٣]» .

وقيل : الفقراء أموات ، إلا من أحياه الله تعالى بعز القناعة .

وقال بشر الحافى : القناعة : ملك لا يسكن إلا فى قلب مؤمن .

سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت عبدالله بن محمد الشعرانى يقول : سمعت إسحق بن إبراهيم بن أبى حسان الأنماطى يقول : سمعت أحمد بن أبى الحوارى يقول : سمعت أبا سليمان الدارانى يقول : القناعة[٤] من الرضا بمنزلة الورع من الزهد ، هذا[٥] أول الرضا وهذا[٦] أول الزُّهد .

وقيل القناعة : السكون عند عدم المألوفات .

وقال أبو بكر المراغى : العاقل من دبَّر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف وأمر الآخرة بالحرص والتعجيل ، وأمر الدين بالعلم والاجتهاد .

---

(١) آية ٩٧ من سورة النحل .
(٢) القضاعى عن أنس بنحوه بسند ضعيف .
(٣) رواه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف .
(٤) أى منزلة القناعة .
(٥) أى القناعة .
(٦) أى الورع .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : القناعة : ترك التشوف إلى المفقود ، والاستغناء بالموجود .

وقيل فى معنى قوله تعالى : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله رِزْقًا حَسَنًا ﴾[1] يعنى : القناعة .

وقال محمد بن على الترمذى : القناعةُ : رضا النفس بما قسم لها من الرزق .

ويقال : القناعة : الاكتفاء بالموجود ، وزوال الطمع فيما ليس بحاصل .

وقال وهب : إن العزَّ والغنى خرجا يجولان ، يطلبان رفيقا ، فلقيا القناعة ، فاستقرا .

وقيل : من كانت قناعته سمينة[2] طابت له كل مَرقه[3] ومن رجع إلى الله تعالى على كل حال رزقه الله القناعة[4] .

وقيل : مر أبو حازم بقصاب معه لحم سمين ، فقال : خذ يا أبا حازم فإنه سمين . فقال : ليس معى درهم .

فقال : أنا أنظرك . فقال : نفسى أحسن نظرة[5] لى منك .

وقيل لبعضهم : من أقنع الناس ؟ .

فقال : أكثرهم للناس معونة ، وأقلهم عليهم مؤونة .

وفى الزبور : القانع غنى وإن كان جائعًا .

وقيل : وضع الله تعالى خمسة أشياء فى خمسة مواضع :

العز فى الطاعة ، والذل فى المعصية ، والهيبة فى قيام الليل ، والحكمة فى البطن الخالى ، والغنى فى القناعة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت نصر بن محمد يقول : سمعت سليمان بن أبى سليمان يقول : سمعت أبا القاسم بن أبى نزار يقول : سمعت إبراهيم المارستانى يقول :

انتقم من حرصْك بالقناعة ، كما تنتقم من عدوك بالقصاص .

وقال ذو النون المصرى : من قنع استراح من أهل زمانه ، واستطال على أقرانه .

---

(١) آية ٥٨ من سورة الحج .

(٢) أى غزيرة كثيرة .

(٣) أى رضى بالقليل المتيسر .

(٤) وهذه العبارة من قوله : ومن رجع . ساقطة فى بعض النسخ .

(٥) أى تأخيرًا وصبرًا .

وقيل : من قنع استراح من الشغل ، واستطال على الكل .

وقال الكتانى : من باع الحرص بالقناعة ظفر بالعزِّ والمروءة .

وقيل : من تبعت عيناه ما فى أيدى الناس طال حزنه .

وأنشدوا :

وأحسنُ بـالفتى من يوم عـار ينـال به الغنى كـرم وجـوع

وقيل : رأى رجل حكيمًا يأكل ما تساقط من البقل على رأس ماء فقال : لو خدمت السلطان لم تحتج إلى أكل هذا .

فقال الحكيم : وأنت لو قنعت بهذا لم تحتج إلى خدمة السلطان .

وقيل : « العقاب[1] عزيز فى مطاره ، لا يسمو إليه طرف[2] صياد . ولا طعمه ، فإذا طمع فى جيفة علقت على حباله[3] ، نزل من مطاره ، فتعلق فى حباله[4] .

وقيل : لما نطق موسى عليه السلام ، بذكر الطمع ، فقال : ﴿ لو شئت لتخذتَ عليه أجرًا ﴾[5] .

قال الخضر له : ﴿ هذا فراق بينى وبينك ﴾ .

وقيل : لما قال ذلك موسى عليه السلام وقف بين يدى موسى والخضر ، عليهما السلام ظبى وكانا جائعين ، الجانب الذى يلى موسى عليه السلام غير مشوى ، والجانب الذى يلى الخضر مشوى .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ إنَّ الأبْرَارَ لَفِى نَعيمٍ ﴾[6] هو القناعة فى الدنيا ، ﴿ وَإنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحيمٍ ﴾[7] هو : الحرص فى الدنيا .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ فَك رَقَبةٍ ﴾[8] أى : فكها من ذل الطمع .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ إنَّما يُرِيدُ اللهُ ليُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البيت ﴾[9] يعنى : البخل ، والطمع . ﴿ وَيُطهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ يعنى : بالسخاء والإيثار .

---

(١) النسر .
(٢) نظر .
(٣) شبكة يصاد بها .
(٤) شباكه .
(٥) آية ٧٧ من سورة الكهف .
(٦) آية ١٣ من سورة الانفطار .
(٧) آية ١٤ من سورة الانفطار .
(٨) آية ١٣ من سورة البلد .
(٩) آية ٣٣ من سورة الأحزاب .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾[1] أى : مقامًا فى القناعة أنفرد به من أشكالى ، وأكون راضيًا فيه بقضائك .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿لأعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾[2] يعنى : لأسلبنه القناعة ، ولأبتلينه بالطمع ، يعنى : أسأل الله تعالى ، أن يفعل به ذلك .

وقيل لأبى يزيد : بم وصلت إلى ما وصلت ؟ .

فقال : جمعت أسباب الدنيا ، فربطتها بحبل القناعة ، ووضعتها فى « منجنيق » الصدق ، ورميت بها فى بحر اليأس فاسترحت .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول : سمعت محمد بن فرحان « بسامرة » يقول : سمعت خالى عبد الوهاب يقول : كنت جالسًا عند الجنيد ، أيام الموسم ، وحوله جماعة كثيرون من العجم والمولدين .

فجاءه إنسان بخمسمائة دينار ، ووضعها بين يديه ، وقال :

تفرِّقها على هؤلاء الفقراء .

فقال : ألك غيرها ؟ فقال نعم ، لى دنانير كثيرة ، فقال : أتريد غير ما تملك ؟ فقال : نعم : فقال له الجنيد ، خذها ، فإنك أحوج إليها منّا ولم يقبلها .

---

(١) آية ٣٥ من سورة ص .

(٢) آية ٢١ من سورة النمل .

باب التوكل

قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَتَوكَّلْ عَلَى الله فَهُو حَسْبُه ﴾[١] .

وقال : ﴿ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُون ﴾[٢] .

وقال : ﴿ وَعَلَى الله فَتَوَكَّلوا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[٣] .

أخبرنا الإمام أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك ، قال : أخبرنا عبد الله بن جعفر بن أحمد الأصبهانى قال : حدثنا يونس بن حبيب بن عبد القاهر قال : حدثنا أبو داود الطيالسى ، قال : حدثنا حماد بن سلمة ، عن عاصم بن بهدلة ، عن زر بن حبيش ، عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« أريت الأمم بالموسم[٤] ، فرأيت أمتى قد ملئوا السهل والجبل ، فأعجبنى كثرتهم وهيئهتم ، فقيل لى : أرضيت ؟ فقلت : نعم . قال : ومع هؤلاء سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ، لا يكتوون ، ولا يتطيرون ، ولا يسترقون ، وعلى ربهم يتوكلون . فقام عكاشة بن محصن الأسدى ، فقال :

يارسول الله ، ادع أن يجعلنى منهم .

فقال رسول الله ﷺ : اللهمَّ اجعله منهم .

فقام آخر ، فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال ﷺ : « سبقك بها عكاشة »[٥] .

سمعت عبدالله بن يوسف الأصبهانى يقول : سمعت أبا نصر السراج يقول : سمعت أبا بكر الوجيهى يقول : قال أبو على الروذبارى قلت : لعمرو بن سنان : احك لى عن سهل بن عبد الله حكاية ، فقال إنه قال : علامة المتوكل ثلاث لا يسأل ، ولا يرد ، ولا يحبس .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت أبا عبد الله الشيرازى يقول : سمعت أبا موسى الديبلى يقول : قيل لابى يزيد ، ما التوكل ؟ .

---

(١) آية ٣ من سورة الطلاق .
(٢) آية ١١ من سورة إبراهيم .
(٣) آية ٢٣ من سورة المائدة .
(٤) أى موسم الحج .
(٥) متفق عليه .

فقال لى : ما تقول أنت ؟ فقلت : إن أصحابنا يقولون :

لو أن السباع والأفاعى عن يمينك ويسارك ما تحرك لذلك سرك .

فقال أبو يزيد : نعم ، هذا قريب ، ولكن لو أن أهل الجنة فى الجنة يتنعمون وأهل النار فى النار يعذبون : ثم وقع لك تمييز عليهما(١) خرجت من جملة التوكل .

وقال سهل بن عبد الله : أول مقام فى التوكل : أن يكون العبد بين يدى الله عزَّ وجل كالميت بين يدى الغاسل ، يقلبه كيف شاء ، لا يكون له حركة ولا تدبير .

وقال حمدون : التوكل : هو الاعتصام(٢) بالله تعالى .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا بكر محمد بن أحمد البلخى يقول : سمعت محمد ابن حامد يقول : سمعت أحمد خضرويه يقول : قال رجل لحاتم الأصمَّ : من أين تأكل ؟ فقال : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ والْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾(٣) .

واعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافى التوكل بالقلب ، بعد ما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى ، فإن تعسر شىء فبتقديره ، وإن اتفق شىء فبتيسيره .

أخبرنا على بن أحمد بن عبدان قال : حدثنا أحمد بن عبيد البصرى قال : حدثنا غيلان بن عبد الصمد قال : حدثنا إسماعيل بن مسعود الجحدرى قال : حدثنا خالد بن يحيى قال : حدثنى عمى المغيرة بن أبى قرة ، عن أنس بن مالك قال : « جاء رجل على ناقة له ، فقال : يارسول الله ، أَدَعها(٤) وأتوكل ؟ . فقال : اعقلها وتوكل » .

وقال إبراهيم الخواص : من صحَّ توكله فى نفسه ، صحَّ توكله فى غيره .

وقال بشر الحافى : يقول أحدهم : توكلت على الله ، ويكذب على الله تعالى ، لو توكل على الله لرضى بما يفعله الله به .

وسئل يحيى بن معاذ : متى يكون الرجل متوكلاً ؟

فقال : إذا رضى بالله تعالى وكيلاً .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن على بن الحسين يقول : سمعت عبد الله بن محمد بن الصامت يقول : سمعت ابراهيم الخواص يقول :

---

(١) أى ميزت أحدهما على الآخر .

(٢) الاعتماد عليه .

(٣) آية ٧ من سورة المنافقون .

(٤) اتركها .

بينما أنا أسير فى البادية ، وإذا بهاتف يهتف ، فالتفت إليه ، فإذا أعرابى يسير فقال لى : يا إبراهيم : التوكل عندنا : أقم عندنا حتى يصح توكلك ، ألم تعلم أن رجاءك لدخول بلد فيه أطعمة يحملك ؟[١] ، اقطع رجاءك عن البلدان وتوكل .

وسمعته يقول سمعت محمد بن أحمد الفلاسى يقول : سمعت ابن عطاء ، وقد سئل عن حقيقة التوكل ، فقال : أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها ، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج يقول : شرط التوكل ما قاله أبو تراب النخشبى ، وهو : طرح البدن فى العبودية ، وتعلّق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية ، فإن أعطى شكر وإن منع صبر .

وكما قال ذو النون : التوكل : ترك تدبير النفس ، والانخلاع[٢] من الحول والقوة ، وإنما يقوى العبد على التوكل إذا علم أن الله سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا الفرج الورثانى يقول : سمعت أحمد بن محمد القرمسينى يقول : سمعت الكتانىَّ يقول : سمعت أبا جعفر بن أبى الفرج يقول : رأيت رجلاً يعرف بـ « جمل عائشة » مع الشطار يضرب بالسياط ، فقلت له :

أىّ وقت يكون ألم الضرب عليكم أسهل ؟ فقال :

إذا كان من ضربنا لأجله يرانا .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله بن محمد يقول : قال الحسين بن منصور لإبراهيم الخواص : ماذا صنعت فى هذه الاسفار ، وقطع هذه المفاوز ؟

قال بقيت فى التوكل أصحح نفسى عليه .

فقال الحسين : أفنيت عمرك فى عَمران باطنك ، فأين الفناء فى التوحيد .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج يقول : التوكل : ما قاله أبو بكر الدقاق ، وهو : رد العيش[٣] إلى يوم واحد ، واسقاط همَّ غد .

قال : وهو ، كما قال سهل بن عبد الله ، التوكل : الاسترسال مع الله ، تعالى ، على ما يريد .

---

(١) أى على الإقامة فيه .
(٢) أى التبرى .
(٣) أى : هم العيش .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن جعفر بن محمد يقول سمعت أبا بكر البرذعى يقول ، سمعت أبا يعقوب النهر جورى يقول :

التوكل على الله تعالى بكمال الحقيقة[١] ، ما وقع لإبراهيم ، عليه السلام ، فى الوقت الذى قال لجبريل ، عليه السلام : أما إليك فلا ، لأنه غابت نفسه بالله تعالى ، فلم يرمع الله غير الله عزَّ وجلَّ .

وسمعتهُ يقول ، سمعت سعيد بن أحمد بن محمد يقول سمعت محمد بن أحمد بن سهل يقول ، سمعت سعيد بن عثمان الخياط يقول ، سمعت ذا النون المصرى ، وسأل رجل فقال ، ما التوكل . فقال : خلع الأرباب[٢] وقطع الأسباب .

فقال السائل : زدنى .

فقال : إلقاء النفس فى العبودية وإخراجها من الربوبية .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله بن محمد المعلم يقول . سمعت عبد الله بن المبارك يقول : سمعت حمدون القصار ، وسئل عن التوكل ، فقال :

إن كان لك عشرة آلاف درهم ، وعليك دانق[٣] دين ، لم تأمن أن تموت ويبقى ذلك فى عنقك ، ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين ، من غير أن تترك لها وفاء ، لاتيأس من الله تعالى أن يقضيه عنك .

وسئل أبو عبد الله القرشى عن التوكل فقال : التعلق بالله تعالى فى كل حال .

فقال السائل : زدنى . فقال : ترك كل سبب يوصّل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولّى لذلك .

وقال سهل بن عبد لله التوكل حال[٤] النبى ﷺ ، والكسبُ سنته ، فمن بقى على حاله ، فلا يتركن سنتهً :

وقال أبو سعيد الخراز : التوكل : اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب[٥] .

وقيل : التوكل : أن يستوى عندك الإكثار والتقلل .

---

(١) أى : على الحقيقة الكاملة .

(٢) ترك الاعتماد على ما سوى الله .

(٣) الدانق : سدس الدرهم .

(٤) أى صفته وخلقه ومقامه .

(٥) أى جرى وراء الأسباب بلا سكون إليها وسكون إلى الله بلا اضطراب .

وقال ابن مسروق : التوكُّل : الاستسلام لجريان القضاء والأحكام .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت عبد الله الرازى يقول : سمعت أبا عثمان الحيرى يقول : التوكل : الاكتفاء بالله ، تعالى ، مع الاعتماد عليه .

وسمعته : يقول : سمعت محمد بن غالب يحكى عن الحسين بن منصور قال :

توكل المحق لا يأكل شيئا وفى البلد من هو أحق به منه .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله بن على يقول : سمعت منصور بن أحمد الحربى يقول حكى لنا ابن أبى شيخ قال : سمعت عمر بن سنان يقول :

اجتاز بنا إبراهيم الخواص ، فقلنا له : حدثنا بأعجب ما رأيته فى أسفارك ، فقال : لقينى الخضر عليه السلام ، فسألنى الصحبة ، فخشيت أن يفسد علىَّ توكلى بسكونى إليهِ . ففارقته .

وسئل سهل بن عبد الله عن التوكل ، فقال : هو قلب عاش مع الله تعالى بلا علاقة[1] .

سمعت الاستاذ أبا على الدقاّق ، رحمه الله ، يقول : للمتوكل ثلاث درجات :

التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض .

فالمتوكل يسكن إلى وعده[2] ، وصاحب التسليم يكتفى بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه .

وسمعته يقول : التوكل : بداية ، والتسليم : واسطة ، والتفويض نهاية

وسئل الدقاق عن التوكل ، فقال : الأكل بلا طمع .

وقال يحيى بن معاذ :

لبس الصوف[3] حانوت[4] ، والكلام فى الزهد حرفة ، وصحبة القوافل تعرض ، وهذه كلها علاقات[5] .

وجاء رجل إلى الشبلى يشكو إليه كثرة العيال ، فقال :

أرجع إلى بيتك ، فمن ليس رزقه على الله ، تعالى ، فاطرده عنك .

---

(١) أى بلا تعلق بغيره .

(٢) إلى وعده تعالى فى قوله ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها﴾ آية ٦ من سورة هود.

(٣) أى : زى الصالحين .

(٤) بسبب .

(٥) أى تعلقات بالأسباب .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبد الله بن على يقول : سمعت أحمد بن عطاء يقول : قرأت على محمد بن الحسين ، قال سهل بن عبد الله :

من طعن فى الحركة[١] فقد طعن فى السنة ، ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان .

وسمعته يقول : سمعت أحمد بن على بن جعفر يقول : سمعت جعفرًا الخلدى يقول : قال إبراهيم الخواص : كنت فى طريق مكة ، فرأيت شخصا وحشيًا .. فقلت : جنى أم إنسى ؟ فقال : جنى . فقلت . إلى أين ؟ فقال : إلى مكة . فقلت : بلا زاد ؟ فقال : فينا أيضًا من يسافر على التوكل فقلت : إيش التوكل ؟ فقال : الأخذ من الله تعالى .

وسمعته يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت الفرغانى يقول : كان إبراهيم الخواص مجردا فى التوكل ، يدقق فيه ، وكان لا يفارقه إبرة وخيوط وركوة[٢] . ومقراض[٣] فقيل له : يا أبا اسحاق ، لم تحمل هذا وأنت تمتنع من كل شىء ؟

فقال : مثل هذا لا ينقض[٤] التوكل ، لأن لله ، سبحانه ، علينا فرائض ، والفقير لا يكون عليه إلا ثوب واحد ، فربما يتخرق[٥] ثوبه ، فإن لم يكن معه إبرة وخيوط تبدو عورته ، فتفسد عليه صلاته ، وإذا لم يكن معه ركوة تفسد عليه طهارته ، فإذا رأيت الفقير بلا ركوة ولا إبرة ، ولا خيوط ، فاتهمه فى صلاته .

وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

التوكل : صفة المؤمنين ، والتسليم : صفة الأولياء ، والتفويض : صفة الموحِّدين ، فالتوكل : صفة العوامِّ ، والتسليم : صفة الخواص : والتفويض صفة خواص الخواص .

وسمعته يقول ، التوكل صفة الأنبياء ، والتسليم صفة إبراهيم عليه السلام ، والتفويض : صفة نبينا محمد ﷺ .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول سمعت محمد بن عبد الله الفرغانى يقول : سمعت أبا جعفر الحدَّاد يقول : مكثت بضع عشرة سنة أعتقد التوكل[٦] وأنا أعمل فى السوق ، وآخذ كل يوم أجرتى ، ولا أنتفع منها بشربة ماء ، لا بدخلة حمام ولكن كنت أجىء بأجرتى إلى الفقراء فى « الشونزية » وأكون مستمرا على حالى .

---

(١) أى الكسب .
(٢) دلو صغيرة .
(٣) مقص .
(٤) أى لا ينافض .
(٥) وفى نسخة : « يتمزق »
(٦) أى عقدته على نفسى .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت الخواص يقول : سمعت الحسين أخاسنان يقول :

حججت أربع عشرة حجة ، حافيًا ، على التوكل ، فكان يدخل فى رجلى شوكة فأذكر أنى قد اعتقدت على نفسى التوكل ، فأحكها فى الأرض وأمشى .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن عبد الله الواعظ يقول : سمعت خيرا النساج يقول : سمعت أبا حمزة يقول : إنى لأستحى من الله تعالى أن أدخل البادية وأنا شبعان ، وقد اعتقدت[1] التوكل ، لئلا يكون سعيى على الشبع زاداً أتزود به .. وسئل حمدون التوكل ، فقال :

تلك درجة لم أبلغها بعد ، وكيف يتكلم فى التوكل من لم يصح له حال الإيمان ؟ .

وقيل : المتوكل كالطفل ، لا يعرف شيئا يأوى إليه إلا ثدى أمه ، كذلك المتوكل لا يهتدى إلا إلى ربه تعالى .

وعن بعضهم قال ؟ كنت فى البادية فتقدمت القافلة فرأيت قدامى واحدا .

فتسارعت حتى أدركته ، فإذا هى امرأة بيدها عكاز ، تمشى على التؤدة .. فظننت أنها أعيت ، فأدخلت يدى فى جيبى ، فأخرجت عشرين درهما ، فقلت : خذيها وامكثى حتى تلحقك القافلة فتكترى بها . ثم ائتينى الليلة حتى أصلح أمرك .

فقالت : بيدها هكذا فى الهواء ، فإذا فى كفها دنانير ، فقالت : أنت أخذت الدراهم من الجيب ، وأنا أخذت الدنانير من الغيب .

ورأى أبو سليمان الدارانى رجلاً بمكة ، لا يتناول شيئا إلا شربة من ماء زمزم . فمضى عليه أيام ، فقال له سليمان يوما :

أرأيت لو غارت زمزم إيش كنت تشرب ؟.

فقام ، وقبل رأسه ، وقال : جزاك الله خيرًا ، حيث أرشدتنى ، فأنى كنت أعبد[2] زمزم منذ أيام . ومضى

وقال إبراهيم الخواص : رأيت فى طريق الشام شابًا حدثًا ، حسن المراعاة ، فقال لى : هل لك فى الصحبة ؟ فقلت : إنى أجوع . فقال : إن جعت جعت معك .

---

(١) أى : عزمت عليه .
(٢) أى متعلقًا بها ساكنًا إلى غير الله .

فبقينا أربعة أيام ، ففتح علينا بشىء ، فقلت : هلم .. فقال : اعتقدت[١] أنى لا آخذ بواسطة فقلت : ياغلام دققت[٢] . فقال : يا إبراهيم ، لا تتبهرج[٣] ، فأن الناقد بصير ، مالك والتوكل ؟ ثم قال : أقل التوكل : أن ترد عليك موارد الفاقات[٤] فلا تسمو نفسك إلا إلى من إليه الكفايات .

وقيل : التوكل : نفى الشكوك ، والتفويض إلى ملك الملوك .

وقيل : دخل جماعة على الجنيد رحمه الله ، فقالوا : أين نطلب الرزق ؟

فقال : إن علمتم فى أى موضع هو ، فاطلبوه منه ، قالوا : فنسأل الله تعالى ذلك .

فقال : إن علمتم أنه ينساكم فذكروه . فقالوا : ندخل البيت فنتوكل ؟ فقال : التجربة شك[٥] .

قالوا : فما الحيلة ؟ فقال : ترك الحيلة .

وقال أبو سليمان الدارانى لأحمد بن الحوارى :

يا أحمد ، إن طرق الآخرة كثيرة ، وشيخك عارف بكثير منها إلا هذا التوكل المبارك ، فإنى ما شممت منه رائحة .

وقيل : التوكل : الثقة بما فى يد الله تعالى ، واليأس عما فى أيدى الناس .

وقيل التوكل : فراغ السر عن التفكر فى التقاضى فى طلب الرزق .

وسئل الحارث المحاسبى ، رحمه الله ، عن المتوكل : هل يلحقه طمع ؟

فقال : يلحقه من طريق الطباع خطرات ، ولا تضره شيئًا ، ويقويه على إسقاط الطمع اليأس مما فى أيدى الناس .

وقيل : جاع النورى فى البادية ، فهتف به هاتف : أيما أحبُّ إليك سبب أو كفاية[٦]

فقال : الكفاية ليس فوقها نهاية ، فبقى سبعة عشر يومًا لم يأكل .

---

(١) عزمت .
(٢) أى فى الكلام على التوكل .
(٣) لا تمدحنى .
(٤) جمع فاقة . وهى الحاجة .
(٥) أى إن فعلتم ذلك مجربين هل يرزقكم الله أم لا ، يكون ذلك بمثابة الشك فى أن الله ضامن الأرزاق .
(٦) أى قوة تغنيه عن الطعام والشراب .

وقال أبو على الروذبارى : إذا قال الفقير بعد خمسة أيام : أنا جائع ، فالزموه السوق ، ومروه بالعمل والكسب .

وقيل : نظر أبو تراب النخشبى إلى صوفى مد يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام .

فقال له : لا يصلح لك التصوف الزم السوق .

وقال أبو يعقوب الأقطع البصرى :

جعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفًا . فحدثتنى نفسى . فخرجت إلى الوادى ، لعلى أجد شيئًا يسكن ضعفى .. فرأيت « سلجمة[1] » مطروحة .. فأخذتها .. فوجدت فى قلبى منها وحشة .. وكأن قائلاً يقول لى : جعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة ، فرميت بها ودخلت المسجد فقعدت ، فإذا أنا برجل أعجمى ، جلس بين يدى ووضع « قمطرة »[2] ، وقال : هذه لك .

فقلت : كيف خصصتنى بها ؟ . فقال : أعلم أنا كنا فى البحر منذ عشرة أيام . وأشرفت السفينة على الغرق .. فنذر كل واحد منا : إن خلصنا الله ، تعالى ، أن يتصدق بشىء ، ونذرت أنا : إن خلصنى الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع بصرى عليه من المجاورين[3] وأنت أول من لقيته .

فقلت : افتحها . ففتحها ، فإذا فيها : كعك سميد[4] مصرى ، ولوز مقشور ، وسكر كعاب[5] فقبضت قبضة من ذا ، وقبضة من ذا ، وقبضة من ذا .

وقلت ردَّ الباقى إلى صبيانك ، هو هدية منى لكم ، وقد قبلتها[6] .

ثم قلت فى نفسى : رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادى ..

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : كنت عند ممشاد الدينورى ، فجرى حديث الدَّين ، فقال :

كان على دين فاشتغل قلبى . فرأيت فى النوم كأن قائلا يقول :

يابخيل ، أخذت علينا هذا المقدار ، خذ ، عليك الأخذ ، وعلينا العطاء

فماحاسبت بعد ذلك بقالا ، ولا قصابا ، ولا غيرهم .

---

(١) وهو النبات المعروف بـ « اللفت » .
(٢) القمطرة ، والقمطرة : ما يحفظ فيه الكتب .
(٣) أى المجاورين للحرم .
(٤) الدقيق الجيد .
(٥) معقود .
(٦) أى القمطرة بما فيها ، فاقبل هديتى للباقى .

ويحكى عن بنان الحمال ، قال : كنت فى طريق مكة حرسها الله أجىء من مصر ، ومعى زاد ، فجاءتنى امرأة ، وقالت لى : يابنان ، أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد ، وتتوهم أنه لا يرزقك ؟؟ . قال فرميت بزادى . ثم أتى على ثلاث « لم آكل » فوجدت خلخالاً فى الطريق .. فقلت فى نفسى : أحمله حتى يجىء صاحبه ، فربما يعطينى شيئًا فأرده عليه فإذا أنا بتلك المرأة ، فقالت لى : أنت تاجر ؟؟ تقول : حتى يجىء صاحبه فآخذ منه شيئًا ؟ ثم رمت إليه شيئًا من الدراهم ، وقالت: أنفقها فاكتفيت بها إلى قريب من مكة[1] .

ويحكى عن بنان أنه احتاج إلى جارية تخدمه ، فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له ثمنها ، وقالوا : هو ذا ، يجىء النفر فتشترى ما يوافقك .

فلما ورد النفر ، اجتمع رأيهم على واحدة ، وقالوا : إنها تصلح له .

فقالوا لصاحبها : بكم هذه ؟ فقال : إنها ليست للبيع : فألحوا عليه ، فقال : إنها لبنان الحمال ، أهدتها إليه امرأة من « سمرقند » فحملت إلى بنان ، وذكرت له القصة .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن الحسين المخزومى يقول : حدثنا أحمد بن محمد بن صالح قال : حدثنا محمد بن عبدون ، قال : حدثنا الحسن الخياط قال :

كنت عند بشر الحافىّ ، فجاء نفر فسلموا عليه ، فقال : من أين أنتم .

قالوا : نحن من الشام جئنا لنسلم عليك ، ونريد الحج .

فقال : شكر الله تعالى لكم فقالوا : تخرج معنا . فقال : بثلاثة شرائط لا نحمل معنا شيئا ، ولا نسأل أحدًا شيئًا ، وإن أعطانا أحد شيئًا لا نقبله ؟ قالوا : أما أن لا نحمل ، فنعم . وأما أن لا نسأل ، فنعم ، وأما أن لا نقبل إن أعطينا ، فهذا لا نستطيعه .

فقال : خرجتم متوكلين على زاد الحجيج : ثم قال : ياحسن ، الفقراء ثلاثة ؛

فقير لا يسأل ، وإن أعطى لا يأخذ ، فذاك من جملة الروحانيين .

وفقير لا يسأل ، وإن أعطى قبل ، فذاك مما يوضع له موائد فى حظائر القدس[2] .

وفقير يسأل ، وإن أعطى قبل قدر الكفاية ، فكفارته صدقة .

وقيل لحبيب العجمى : لم تركت التجارة ؟ فقال : وجدت الكفيل ثقة .

وقيل : كان فى الزمن الأول رجل فى سفر ومعه قرص ، فقال : إن أكلت مت .

---

(١) وفى نسخة « من مصر » .

(٢) أى الطهر .

فوكل الله تعالى به ملكا ، وقال : إن أكله فارزقه ، وإن لم يأكله فلا تعطه غيره .. فلم يزل القرص معه حتى مات ، ولم يأكل ، وبقى عنده القرص .

وقيل : من وقع فى ميدان التفويض يزف إليه المراد كما نزف العروس إلى أهلها ، والفرق بين التضييع والتفويض : أن التضييع فى حق الله تعالى ، وذلك مذموم ، والتفويض فى حقك ، وهو محمود .

وقال عبد الله بن المبارك : من أخذ فلساً من حرام فليس بمتوكل .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى ، رحمه الله ، يقول سمعت نصر بن أبى نصر العطار يقول : سمعت عليا بن محمد المصرى يقول : سمعت أبا سعيد الخراز يقول : دخلت البادية مرة بغير زاد ، فأصابتنى فاقة ، فرأيت المرحلة[1] من بعيد ، فسررت بأنى وصلت ، ثم فكرت فى نفسى : أنى سكنت واتكلت على غيره ، فآليت أن لا أدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها فحفرت لنفسى فى الرمل حفرة ، وداريت جسدى فيها إلى صدرى ، فسمعوا صوتًا فى نصف الليل عاليًا ، يقول :

يا أهل المرحلة ، إن لله تعالى وليًا ، حبس نفسه فى هذا الرمل ، فألحقوه .

فجاءنى جماعة فأخرجونى وحملونى إلى القرية .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن الحسين المخزومى يقول : سمعت أبن المالكى يقول : قال أبوحمزة الخراسانى :

حججت سنة من السنين ، فبينما أنا أمشى فى الطريق ، إذ وقعت فى بئر فنازعتنى نفسى أن أستغيث ، فقلت : لا والله ، لا أستغيث فما استتمت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان : فقال أحدهما للآخر : تعالى حتى نسد رأس هذه البئر ، لئلا يقع فيها أحد .. فأتوا : بقصب وبارية[2] ، وطموا[3] رأس البئر ، فهممت أن أصيح ثم قلت فى نفسى : أصيح[4] إلى من هو أقرب منهما !! وسكنت ، فبينما أنا بعد ساعة ، إذ أنا بشىء جاء .. وكشف عن رأس البئر ، وأدلى رجله ، وكأنه يقول لى : تعلق بى ، فى همهمة[5] له كنت أعرف ذلك منه ، فتعلقت به ..

---

(١) أى نهاية المرحلة أى القرية .

(٢) بارية حصير خشن .

(٣) طم البئر بالتراب أى : ملأها حتى استوت مع الأرض .

(٤) وفى نسخة أشكو .

(٥) وفى نسخة بهمهمة .

فأخرجنى ، فإذا هو سبع ، فمر[1] وهتف بى هاتف : يا أبا حمزة ، أليس هذا أحسن !! نجيناك من التلف بالتلف[2] فمشيت وأنا أقول :

أهابك أن أبدى إليك الذى أخفى
وسرى يبدى ما يقول له طرفى[3]
نهانى حيائى منك أن أكتم الهوى
وأغنيتنى بالفهم منك عن الكشف
تلطفت فى أمرى . فأبديت شاهدى[4]
إلى غائبى[5] واللطف يدرك باللطف
تراءيت لى بالغيب ، حتى كأنما
تبشرنى فى الغيب أنك فى الكف
أراك وبى من هيبتى لك وحشة
فتؤنسنى باللطف منك وبالعطف
وتحيى محبا أنت فى الحب حتفه
وذا عجب كون الحياة مع الحتف[6]

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت أبا سعدان التاهرتى يقول : سمعت حذيفة المرعشى يقول ، وكان قد خدم إبراهيم بن أدهم ، وصحبه ، فقيل له : ما أعجب ما رأيت منه ؟ فقال :

بقينا فى طريق مكة أيامًا لم نجد طعامًا ، ثم دخلنا الكوفة ، فأوينا إلى مسجد خراب ، فنظر إلى إبراهيم بن أدهم ، وقال : ياحذيفة ، أرى بك أثر الجوع !! فقلت : هو ما رأى الشيخ فقال علىَّ بدواة ، وقرطاس .

فجئت به ، فكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أنت المقصود إليه بكل حال ، والمشار إليه بكل معنى :

---

(١) وأى جاوزنى .
(٢) وفى نسخة « نجيناك بالتلف من التلف » أى خلصناك بسبب التلف من سبب التلف أى خلصناك بالسبع من تغطية البئر .
(٣) وبعض النسخ سقط فيها هذا البيت الأول .
(٤) حاضر الحاضر .
(٥) حالى الغائب عنى .
(٦) الموت .

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر　　أنا جائع أنا نائع[1] أنا عارى
هى ستة وأنا الضمين لنصفها　　فكن الضمين لنصفها يابارى[2]
مدحى لغيرك لهب[3] نار خضتها　　فأجر عبيدك من دخول النار[4]
والنار عندى كالسؤال فهل ترى　　أن لا تكلفنى دخول النار[5]

ثم دفع إلى الرقعة : قال :

اخرج ، ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى ، وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك .

قال : فخرجت .. فأول من لقينى رجل كان على بغلة ، فدفعتها إليه ، فأخذها وبكى ، وقال : ما فعل صاحب هذه الرقعة ؟ فقلت : هو فى المسجد الفلانى .

فدفع إلى صرة فيها ستمائة دينار .

ثم لقيت رجلا آخر ، فقلت له : من صاحب هذه البغلة ؟ فقال لى : هو نصرانى فجئت إلى ابراهيم بن أدهم ، وأخبرته بالقصة ، فقال :

لا تمسها[6] ، فإنه يجىء الساعة .

فلما كان بعد ساعة ، وافى النصرانى ، وأكب على رأس إبراهيم بن أدهم وأسلم :

---

(١) عطشان .
(٢) وفى نسخة يا جارى أى يا قريبًا .
(٣) وفى نسخة وهج .
(٤) أى : من مدح غيرك .
(٥) وسقط هذا البيت الأخير فى بعض النسخ .
(٦) أى الصرة .

باب الشكر

قال الله عز وجل : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[١]

وحدثنا أبو الحسن على بن أحمد بن عبدان الأهوازى قال : أخبرنا أبو الحسن الصفار ، قال حدثنا الإسقاطى قال : حدثنا منجاب قال : حدثنا يحيى بن يعلى ، عن أبى خباب ، عن عطاء ، قال :

دخلت على عائشة ، رضى الله عنها ، مع عبيد بن عمير ، فقلت :

أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ .

فبكت ، وقالت :

وأى شأنه لم يكن عجبًا ؟ .. إنه أتانى فى ليلة .. فدخل معى فى فراشى ، أو قالت : فى لحافى : حتى مس جلدى ، ثم قال : يابنت أبى بكر ، ذرينى أتعبد لربى .

قالت : قلت : إنى أحب قربك[٢] فأذنت له فقام إلى قربة من ماء . فتوضأ . وأكثر صب الماء .. ثم قام يصلى . فبكى ، حتى سالت دموعه على صدره .. ثم ركع فبكى ، ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى .. فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه[٣] بالصلاة .

فقلت له : يارسول الله ، ما يبكيك ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟!

فقال : أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟ ولم لا أفعل : وقد أنزل الله على : ﴿ إِنَّ فى خَلْقِ السَّمواتِ وَالْأَرْضِ ... الآية ﴾ .

قال الأستاذ :

حقيقة الشكر عند أهل التحقيق : الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع ، وعلى هذا القول : يوصف الحق سبحانه ، بأنه : شكور ، توسعًا[٤] ، ومعناه : أنه يجازى العباد على

---

(١) آية ٧ من سورة إبراهيم .

(٢) فى ابن كثير : إنى أحب قربك وأحب أن تعبد ربك والحديث رواه ابن مردويه وعبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن حبان فى صحيحه وابن أبى الدنيا فى كتاب التفكر والاعتبار ..

(٣) أعلمه .

(٤) وفى نسخة « فوصف الحق بأنه شكور توسع » .

الشكر ، فسمى جزاء الشكر شكرًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾[١].

وقيل : شكره تعالى : إعطاؤه الكثير من الثواب على العمل اليسير ، من قولهم : دابة شكور : إذا أظهرت من السمن فوق ما تعطى من العلف .

ويحتمل أن يقال : حقيقة الشكر : الثناء على المحسن بذكر إحسانه فشكر العبد لله تعالى : ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه ، وشكر الحق ، سبحانه ، للعبد : ثناؤه عليه بذكر إحسانه[٢] له ، ثم إن إحسان العبد : طاعته لله تعالى ، وإحسان الحق : إنعامه على العبد بالتوفيق للشكر له ، وشكر العبد على الحقيقة ، إنما هو : نطق اللسان ، وإقرار القلب بإنعام الرب . والشكر ينقسم إلى :

شكر باللسان : وهو اعترافه بالنعم بنعت الاستكانة .

وشكر بالبدن والأركان : وهو اتصاف بالوفاء والخدمة .

وشكر بالقلب وهو اعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة .

ويقال : شكر هو شكر العالمين ، يكون من جملة أقوالهم .

وشكر : هو نعت العابدين ، يكون نوعًا من أفعالهم .

وشكر : هو شكر العارفين ، يكون باستقامتهم له فى عموم أحوالهم .

وقال أبو بكر الوراق : شكر النعمة مشاهدة[٣] المنة ، وحفظ الحرمة[٤] .

قال حمدون القصار شكر النعمة : أن ترى نفسك فيه طفيليا .

وقال الجنيد : الشكر فيه علة ، لأنه[٥] طالب لنفسه المزيد ، فهو واقف مع الله ، سبحانه ، على حظ نفسه .

وقال أبو عثمان : الشكر : معرفة العجز عن الشكر .

ويقال : الشكر على الشكر أتم من الشكر ، وذلك بأن ترى شكرك بتوفيقه ، ويكون ذلك التوفيق من أجل النعم عليك ، فتشكره على الشكر ثم تشكره على شكر الشكر ، إلا ما لا يتناهى .

وقيل : الشكر : إضافة النعم إلى موليها بنعت الاستكانة .

---

(١) آية ٤٠ من سورة الشورى .
(٢) طاعته .
(٣) أى معرفة .
(٤) أى معرفة قدرها .
(٥) أى الشاكر .

وقال الجنيد : الشكر : أن لا ترى نفسك أهلًا للنعمة .

وقال رويم : الشكر : استفراغ الطاقة[1] .

وقيل : الشاكر : الذى يشكر على الموجود ، والشكور : الذى يشكر على المفقود .

ويقال : الشاكر : الذى يشكر على الرفد[2] ، والشكور : الذى يشكر على الرد .

ويقال الشاكر : الذى يشكر على النفع ، والشكور : الذى يشكر على المنع .

ويقال : الشاكر : الذى يشكر على العطاء ، والشكور : الذى يشكر على البلاء .

ويقال : الشاكر : الذى يشكر عند البذل ، والشكور : الذى يشكرْ عند المطل .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمة الله ، يقول : سمعت الأستاذ أبا سهل الصعلوكى يقول : سمعت المرتعش يقول : سمعت الجنيد يقول :

كنت بين يدى السرىِّ ألعب ، وأنا ابن سبع سنين ، وبين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر ، فقال لى : يا غلام ، ما الشكر ؟ فقلت : ألا تعصى الله بنعمه .

فقال : يوشك أن يكون حظك من الله لسانك .

قال الجنيد ، رحمه الله ، فلا أزال أبكى على هذه الكلمة التى قالها السرى .

وقال الشبلى : الشكر : رؤية المنعم ، لا رؤية النعمة .

وقيل الشكر : قيد[3] الموجود ، وصيد المفقود .

وقال أبو عثمان : شكر العامة على المطعم والملبس ، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعانى .

وقيل : قال داود ، عليه السلام ، إلهى ، كيف أشكرك ، وشكرى لك نعمة من عندك ؟ .

فأوحى الله إليه : الآن قد شكرتنى .

وقيل : قال موسى عليه السلام فى مناجاته :

إلهى ، خلقت آدم بيدك ، وفعلت .. وفعلت . فكيف شكرك ؟ .

فقال : علم أن ذلك منى ، فكانت معرفته بذلك شكره لى .

وقيل . كان لبعضهم صديق ، فحبسه السلطان ، فأرسل إليه ، فقال له صاحبه :

---

(١) استفراغ الطاقة فى الشكر .

(٢) العطاء .

(٣) أى حفظ .

اشكر الله تعالى ، فضرب الرجل ، فكتب إليه ، فقال :

اشكر الله تعالى ، فجيء بمجوسى مبطون ، وقيد ، وجعلت حلقة من قيده على[1] رجل هذا وحلقة على رجل المجوسى ، فكان يقوم المجوسى بالليل مرات وهذا يحتاج أن يقوم على رأسه حتى يفرغ ، فكتب إلى صاحبه ، فقال :

اشكر الله تعالى فقال : إلى متى تقول ، وأى بلاء فوق هذا ؟ .

فقال له صاحبه : لو وضع الزنار الذى فى وسطه فى وسطك ، كما وُضع القيد الذى فى رجله فى رجلك ، ماذا كنت تصنع ؟ .

وقيل : دخل رجل على سهل بن عبد الله ، فقال له : إن اللص دخل دارى ، وأخذ متاعى !! فقال له اشكر الله تعالى ، لو دخل اللص قلبك - وهو الشيطان - وأفسد التوحيد ، ماذا كنت تصنع !.

وقيل : شكر العينين : أن تستر عيبا تراه بصاحبك . وشكر الأذنين : أن تستر عيبًا تسمعه فيه .

وقيل : الشكر : التلذذ بثنائه على ما لم يستوجبه عن عطائه .

سمعت السلمى يقول : سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت الحسن بن يحيى يقول : سمعت جعفرًا يقول سمعت الجنيد يقول : كان السرى إذا أراد أن ينفعنى يسألنى ، فقال لى يوماً : يا أبا القاسم ، ما الشكر ! فقلت له : أن لا يستعان بشىء من نعم الله ، تعالى ، على معاصيه .

فقال : من أين لك هذا ! فقلت : من مجالستك .

وقيل : التزم الحسن بن على الركن وقال : إلهى . نعمتنى فلم تجدنى شاكرًا !.

وابتليتنى فلم تجدنى صابراً ، فلا أنت سلبت النعمة بتركى الشكر ولا أدمت الشدة بتركى الصبر ، إلهى ما يكون من الكريم إلا الكرم .

وقيل : إذا قصرت يدك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر .

وقيل : أربعة لا ثمرة لأعمالهم :

---

(١) أى فى .

مسارة الأصم ، وواضع النعمة عند من لا يشكر ، والباذر فى السبخة ، والمسرج فى الشمس .

وقيل : لما بُشر إدريس ، عليه السلام ، بالمغفرة سأل الحياة[1] ، فقيل له فيه ، فقال لأشكره فإنى كنت أعمل قبله للمغفرة ، فبسط الملك جناحه وحمله عليه إلى السماء .

وقيل ، مر بعض الأنبياء عليهم السلام بحجر صغير يخرج منه الماء الكثير ، فتعجب منه ، فأنطقه الله معه ، فقال : مذ سمعت الله ، تعالى يقول : ﴿ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾[2] وأنا أبكى من خوفه قال ، فدعا ذلك النبى أن يجير الله ذلك الحجر ، فأوحى الله تعالى إليه أنى قد أجرته من النار ، فمر ذلك النبى ، فلما عاد وجد الماء يتفجر منه مثل ذلك ، فعجب منه فأنطق الله ذلك الحجر معه ، فقال له لم تبكى ، وقد غفر الله لك ؟ فقال : ذلك كان بكاء الحزن والخوف ، وهذا بكاء الشكر والسرور .

عقيل : الشاكر مع[3] المزيد ، لأنه فى شهود النعمة[4] ، قال الله تعالى : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[5] والصابر مع الله تعالى ، لأنه بشهود المبتلى[6] ، قال الله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ :

وقيل : قدم وفد على عمر بن عبد العزيز ، رضى الله عنه ، وكان فيهم شاب .. فأخذ يخطب ، فقال عمر : الكبر . الكبر . فقال له الشاب : يا أمير المؤمنين ، لو كان الأمر بالسنّ ، لكان فى المسلمين من هو أسنّ منك !! فقال : تكلم فقال :

لسنا وفد الرغبة ، ولا وفد الرهبة . أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك وأما الرهبة فقد أمننا منها عدلك . فقال له : فمن أنتم ؟ فقال : وفد الشكر ، جئناك نشكرك وننصرف . وأنشدوا :

ومن الرزية أن شكرى صامت عما فعلت وأن برك ناطق
أرى الصنيعة منك ثم أسرها[7] إنى إذن ليد[8] الكريم لسارق

وقيل : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : ارحم عبادى : المبتلى ، والمعافى . فقال : ما بال المعافى ؟ فقال : لقلة شكرهم على عافيتى إياهم .

---

(١) أى إطالتها .
(٢) من آية ٦ سورة التحريم .
(٣) أى كائن .
(٤) أى حضورها .
(٥) آية ٧ من سورة إبراهيم .
(٦) وفى نسخة « المبلى له » .
(٧) أخفيها .
(٨) لنعمته .

وقيل : الحمد على الأنفاس ، والشكر على نعم الحواس .

وقيل الحمد : ابتداء منه ، والشكر : اقتداء منك .

وفى الخبر الصحيح : « أول من يدعى إلى الجنة الحامدون لله على كل حال » :

وقيل : الحمد .. على ما دفع ، والشكر : على ما صنع .

وحكى عن بعضهم أنه قال : رأيت فى بعض الأسفار شيخًا كبيرًا قد طعن فى السن ، فسألته عن حاله ، فقال : إنى كنت فى ابتداء عمرى أهوى ابنة عم لى ، وهى كذلك كانت تهوانى ، فاتفق أنها زوجت منى ، فليلة زفافها قلنا : تعال : حتى نحيى هذه الليلة شكرًا لله تعالى على ما جمعنا فصلينا تلك الليلة ، ولم يتفرغ أحدنا لصاحبه فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك فمنذ سبعين ، أو ثمانين سنة ، نحن على تلك الصفة كل ليلة : أليس كذلك يا فلانة ، فقالت العجوز : كما يقول الشيخ .

باب اليقين

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[١] .

حدثنا الاستاذ الإمام أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك ، قال : حدثنا أبو بكر أحمد بن محمود بن خرزاذ الأهوازى بها قال : حدثنا أحمد بن سهل بن أيوب قال : حدثنا خالد ، يعنى « ابن زيد » قال . حدثنا سفيان الثورى ، وشريك بن عبد الله وسفيان بن عيينة ، عن سليمان التيمى ، عن خيثمة ، عن عبد الله بن مسعود، عن النبى ﷺ أنه قال :

« لا ترضين أحدًا بسخط الله تعالى ، ولا تحمدن أحدًا على فضل الله عز وجل ، ولا تذمن أحدًا على ما لم يؤتك الله تعالى ، فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص ولا يرده عنك كراهة كاره ، وإن الله تعالى - بعدله وقسطه - ، جعل الرَّوْح[٢] والفرح فى الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط »[٣] .

أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى قال : أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن سعيد الرازى قال : حدثنا عياش بن حمزة قال : حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، قال : قال أبو عبد الله الأنطاكى :

إن أقل اليقين إذا وصل إلى القلب يملأ القلب نورا ، وينفى عنه كل ريب ، ويمتلئ القلب به شكرًا ، ومن الله تعالى خوفًا .

ويحكى عن أبى جعفر الحداد قال : رآنى أبو تراب النخشبى ، وأنا فى البادية جالس على بركة ماء ، ولى ستة عشر يوما لم آكل ولم أشرب فقال لى : ما جلوسك ؟ فقلت : أنا بين العلم واليقين أنتظر ما يغلب فأكون معه ، يعنى « إن غلب على العلم شربت ، وإن غلب اليقين مررت » فقال لى : سيكون لك شأن .

وقال أبو عثمان الحيرى اليقين : قلة الاهتمام لغد .

---

(١) آية ٤ من سورة البقرة .

(٢) أى الراحة .

(٣) رواه القضاعى فى المسند بسند ضعيف .

وقال سهل بن عبد الله : اليقين : من زيادة الإيمان ، ومن تحقيقه .

وقال سهل أيضا : اليقين : شعبة من الإيمان ، وهو دون التصديق .

وقال بعضهم : اليقين : هو العلم المستودع فى القلوب ، يشير هذا القائل إلى أنه غير مكتسب .

وقال سهل : ابتداء اليقين : المكاشفة ، ولذلك قال بعض السلف : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا ، ثم المعاينة والمشاهدة .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : اليقين تحقق الأسرار بأحكام المغيبات .

وقال أبو بكر بن طاهر : العلم : بمعارضة الشكوك ، واليقين : لاشك فيه ، أشار إلى العلم الكسبى وما يجرى مجرى البديهى ، وكذلك علوم القوم فى الابتداء كسبى ، وفى الانتهاء بديهى .

سمعت محمد بن الحسين يقول : قال بعضهم : أول المقامات[١] . المعرفة ، ثم اليقين ، ثم التصديق ، ثم الإخلاص ، ثم الشهادة[٢] ، ثم الطاعة ، والإيمان اسم يجمع هذا كله ، أشار هذا القائل إلى أن أول الواجبات ، هو المعرفة بالله سبحانه ، والمعرفة لا تحصل إلا بتقديم شرائطها ، وهو النظر الصائب ، ثم إذا توالت الأدلة ، وحصل البيان ، صار بتوالى الأنوار ، وحصول الإستبصار، كالمستغنى عن تأمل البرهان وهو حال اليقين ، ثم تصديق الحق ، سبحانه ، فيما أخبر عند إصغائه إلى إجابة الداعى فيما يخبر من أفعاله ، سبحانه فى المستأنف[٣] ، لأن التصديق إنما يكون فى الإخبار ثم الإخلاص فيما يتعقبه من أداء الأوامر ، ثم بعد ذلك إظهار الإجابة بجميل الشهادة ، ثم أداء الطاعات بالتوحيد فيما أمر به ، والتجرد عما زجر عنه .

وإلى هذا المعنى أشار الإمام أبو بكر محمد بن فورك ، فيما سمعته ، يقول ذكر اللسان فضيلة يفيض بها[٤] القلب .

وقال سهل بن عبد الله : حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله تعالى :

وقال ذو النون المصرى : اليقين داع إلى قصر الأمل ، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد ، والزهد يورث الحكمة ، والحكمة تورث النظر فى العواقب .

---

(١) درجات الإيمان .

(٢) أى الإقرار باللسان مع الشكر .

(٣) المستقبل .

(٤) فى نسخة . عليها .

وسمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت ذا النون المصرى يقول :

ثلاثة من أعلام اليقين :

قلة مخالطة الناس فى العشرة ، وترك المدح لهم فى العطية ، والتنزه عن ذمهم عند المنع :

وثلاثة من أعلام يقين اليقين .

النظر إلى الله تعالى فى كلِّ شىء ، والرجوع إليه فى كلِّ أمر ، والاستعانة به فى كل حال .

وقال الجنيد ، رحمه الله اليقين : هو استقرار العلم الذى لا ينقلب ولايحول ولا يتغير فى القلب .

وقال ابن عطاء : على قدر قربهم من التقوى أدركوا ما أدركوا من اليقين .

وأصل التقوى : مباينة النهى ، ومباينة النهى مباينة النفس ، فعلى قدر مفارقتهم النفس وصلوا إلى اليقين .

وقال بعضهم : اليقين : هو المكاشفة ، والمكاشفة على ثلاثة أوجه :

مكاشفة بالإخبار ، ومكاشفة بإظهار القدرة ، ومكاشفة بحقائق الإيمان .

واعلم أن المكاشفة فى كلامهم ، عبارة ، عن ظهور الشىء للقلب باستيلاء ذكره من غير بقاء للريب ، وربما أرادوا بالمكاشفة ما يقرب مما يراه الرائى بين اليقظة والنوم ، وكثيرًا ما يعبر هؤلاء عن هذه الحالة بـ « الثبات » .

سمعت الإمام أبا بكر بن فورك يقول : سألت أبا عثمان المغربى ، فقلت : ما هذا الذى تقول ؟ .

قال الأشخاص أراهم كذا .. وكذا ، فقلت : تراهم معاينة أو مكاشفة فقال : مكاشفة .

وقال عامر بن عبد قيس : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا .

وقيل : اليقين : رؤية العيان بقوة الإيمان .

وقيل : اليقين : زوال المعارضات .

وقال الجنيد ، رحمه الله ، اليقين : ارتفاع الريب فى مشهد الغيب .

سمعت الاستاذ أبا علىٍ الدقاق ، يقول ، فى قول النبى ﷺ ، فى عيسى ابن مريم عليه السلام : « لو ازداد يقينا لمشى فى الهواء كما مشيت فيه » .

قال رحمه الله : أنه أشار بهذا إلى حال نفسه ، ﷺ ، ليلة المعراج ، لأن فى لطائف المعراج أنه ، ﷺ قال : « رأيت البراق قد بقى ومشيت » .

سمعت محمد الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أحمد بن على بن جعفر يقول : سمعت إبراهيم بن فاتك يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرىَّ يقول ، وقد سئل عن اليقين ، فقال :

اليقين : سكونك عند جولان الموارد فى صدرك ، لتبينك أن حركتك فيها لا تنفعك ولا ترد عنك مقضيا .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله بن على يقول : سمعت أبا جعفر الأصبهانى يقول : سمعت على بن سهل يقول : الحضور أفضل من اليقين ، لأن الحضور وطنات[1] ، واليقين خطرات .

كأنه جعل اليقين ابتداء الحضور ، والحضور دوام ذلك . فكأنه جوَّز حصول اليقين خاليًا من الحضور ، وأحال جواز الحضور بلا يقين ، ولهذا قال النورى : اليقين : المشاهدة . يعنى أن فى المشاهدة يقينًا لاشك فيه ، لأنه لا يشاهده ، تعالى من لا يثق بما منه .

وقال أبو بكر الوراق : اليقين : ملاك القلب ، وبه كمال الإيمان ، وباليقين عرف الله تعالى ، وبالعقل عقل عن الله تعالى .

وقال الجنيد : قد مشى رجال باليقين على الماء ، ومات بالعطش أفضل منهم يقينًا .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت الحسين بن يحيى يقول : سمعت جعفرًا يقول : قال إبراهيم الخواص :

لقيت غلامًا فى التيه[2] ، كأنه سبيكة فضة ، فقلت : إلى أين يا غلام ؟ فقال : إلى مكة : فقلت : بلا زاد ، ولا راحلة ، ولا نفقة ! فقال لى : ياضعيف اليقين ، الذى يقدر على حفظ السموات والأرضين لا يقدر أن يوصلنى إلى مكة بلا علاقة[3] قال : فلما دخلت مكة إذا أنا به فى الطواف وهو يقول :

يـا عـين سحى أبدا ... يـا نفس موتى كمدا
ولا تحبى أحدًا ... إلا الجليل الصمدا

فلما رآنى قال لى : ياشيخ ، أنت بعد على ذلك الضعف من اليقين ؟!.

وسمعته يقول سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت النهر جورى يقول : إذا استكمل

---

(١) من توطن : أى أقام واستوطن .

(٢) التيه : الصحراء التى يتاه فيها .

(٣) العلاقة : ما يتبلغ به العيش ، قال ذلك لقوة يقينه ، ولطف ربه ، وإن كانت السنة حمل الزاد فى السفر ، ولا يدل حمله على ضعف اليقين مطلقًا ، فإن الانبياء والأئمة حملوه فى السفر ، لكنهم لم يعتمدوا عليه وإنما اعتمدوا على ربهم .

العبد حقائق اليقين صار البلاء عنده نعمة ، والرخاء مصيبة .

وقال أبو بكر الوراق : اليقين على ثلاثة أوجه :

يقين خبر ، ويقين دلالة ، ويقين مشاهدة .

وقال أبو تراب النخشبى : رأيت غلامًا فى البادية يمشى بلا زاد ، فقلت : إن لم يكن معه يقين فقد هلك ، فقلت : يا غلام ، فى مثل هذا الموضع بلا زاد ؟ فقال : ياشيخ ارفع رأسك هل ترى غير الله عزَّ وجلَّ ؟ فقلت :الآن اذهب حيث شئت .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا نصر الاصبهانى يقول سمعت محمد بن عيسى يقول : قال أبو سعيد الخراز : العلم ما استعملك[1] واليقين : ما حملك[2] .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا عثمان الآدمى يقول : سمعت إبراهيم الخواص يقول : طلبت المعاش لأكل الحلال فاصطدت السمك ، فيومًا وقعت فى الشبكة سمكة ، فأخرجتها ، وطرحت الشبكة فى الماء فوقعت أخرى فيها ، فرميت بها ثم عدت ، فهتف بى هاتف لم تجد معاشًا إلا أن تأتى من يذكرنا فتقتلهم ..!

قال : فكسرتُ القبصة ، وتركت الاصطياد[3] .

---

(١) أى ما قادك إلى العمل .

(٢) أى بعثك على الجد فى طاعة الله والرضا بقضائه .

(٣) يقول الشيخ زكريا الأنصارى : « ليس ذلك إنكارًا للاصطياد ، ولا لطلب الحلال ، بل عادة الله تعالى أن يؤدب أولياءه بخواطر ينبههم بها على أنهم لا يسكنون إلى غيره تعالى ، فمتى علم تعالى من أحدهم سكونا إلى غيره نبهه ليرجع إليه ويعتمد عليه دون الأسباب » .

باب الصبر

قال الله ، عزَّ وجلَّ : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَاصَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾[١] .

وأخبرنا عليُّ بن أحمد الأهوازى ، قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصرى ، قال : حدثنا أحمد ابن على الخراز قال : حدثنا أسيد بن زيد قال : حدثنا مسعود بن سعد ، عن الزيات ، عن أبى هريرة ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، رفعته[٢] ، قال رسول الله ﷺ : « إن الصبر عند الصدمة الأولى »[٣] .

وأخبرنا على بن أحمد قال : أخبرنا أحمد بن عبيد قال : حدثنا أحمد بن عمر ، قال : حدثنا محمد بن مرداس قال : حدثنا يوسف بن عطية ، عن عطاء بن أبى ميمونة ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الصبر عند الصدمة الأولى »[٤] .

ثم الصبر على أقسام :

صبر على ما هو كسب للعبد ، وصبر على ما ليس بكسب له .

فالصبر على المكتسب ، على قسمين :

صبر على ما أمر الله تعالى به ، وصبر على ما نهى عنه .

وأما الصبر على ما ليس بمكتسب للعبد : فصبره على مقاساة ما يتصل به من حكم الله فيما يناله فيه مشقة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت الحسين بن يحيى يقول سمعت جعفر ابن محمد يقول : سمعت الجنيد يقول : المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن ، وهجران الخلق فى جنب[٥] الله تعالى شديد ، والمسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد ، والصبر مع الله أشد .

وسئل الجنيد عن الصبر ، فقال : هو تجرع المرارة من غير تعبيس .

وقال على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

---

(١) آية ١٢٧ من سورة النحل .

(٢) أى إلى النبى ﷺ .

(٣ ، ٤) متفق عليه .

(٥) أى فى طاعته .

وقال أبو القاسم الحكيم : قوله تعالى : « واصبر » أمر بالعبادة ، وقوله « وما صبرك إلا بالله » عبودية ، فمن ترقى من درجة « لك »[1] إلى درجة « بك » ، فقد انتقل من درجة العبادة إلى درجة العبودية .

قال ﷺ : « بك أحيا وبك أموت » .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، يقول : سمعت أبا جعفر الرازى يقول : سمعت عياشًا يقول : سمعت أحمد يقول : سألت أبا سليمان عن الصبر ، فقال :

والله ما نصبر على ما نحب ، فكيف على ما نكره ؟ .

وقال ذو النون : الصبر : التباعد عن المخالفات ، والسكونُ عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة .

وقال ابن عطاء : الصبر : الوقوف مع البلاء بحسن الأدب .

وقيل : هو الفناء فى البلوى بلا ظهور شكوى .

وقال أبو عثمان : الصبار : الذى عَوَّدَ نفسه الهجوم على المكاره .

وقيل : الصبر : المقام مع البلاء بحسن الصحبة ، كالمقام مع العافية .

وقال أبو عثمان : أحسن الجزاء على عبادة : الجزاء على الصبر ، ولاجزاء فوقه ، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2] .

وقال عمرو بن عثمان : الصبر . هو الثبات مع الله سبحانه وتعالى ، وتلقى بلائه بالرحب والدعة .

وقال الخوَّاص : هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة .

وقال يحيى بن معاذ : صبر المحبين أشدُّ من صبر الزاهدين ، واعجبًا ، كيف يصبرون ؟ وأنشدوا :

الصبر يحمد فى المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يحمد

وقال رويم . الصبر : ترك الشكوى .

---

(١) أشار إلى التفرقة بين الصبر لله ، والصبر بالله . فالصبر لله تشعر بالاستقلال بالفعل ، والصبر بالله تؤذن بالتبرى من الحول والقوة .

(٢) آية ٩٦ من سورة النحل .

وقال ذو النون : الصبر : هو الاستعانة بالله تعالى .

سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول : الصبر كاسمه .

وانشدنى الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، قال : أنشدنى أبو بكر الرازى قال : أنشدنى ابن عطاء لنفسه :

سأصبر ، كى ترضى ، وأتلف حسرة
وحسبى أن ترضى ويتلفنى صبرى

وقال أبو عبد الله بن خفيف : الصبر على ثلاثة أقسام ، متصبر ، وصابر ، وصبار .

وقال عليٌّ بن أبى طالب ، رضى الله عنه : الصبر مطية لا تكبو .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت على بن عبد الله البصرى يقول : وقف رجل على الشبليِّ فقال : أى صبر أشد على الصابرين ؟.

فقال : الصبر فى الله عزَّ وجلَّ ، فقال : لا ، فقال : الصبر لله ، قال : لا . قال : الصبر مع الله ، قال : لا . قال : فأى شىء ؟ قال : الصبر عن الله .

قال : فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه أن تتلف .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان ، يقول : سمعت أبا محمد الجريرى يقول :

الصبر : أن لا يفرق بين حال النعمة والمحنة ، مع سكون الخاطر فيهما ، والتصبر : هو السكون ، مع البلاء ، مع وجدان أثقال المحنة .

وأنشد بعضهم :

صبرت ولم أطلع هواك على صبرى
وأخفيت ما بى منك عن موضع الصبر
مخافة أن يشكو ضميرى صبابتى
إلى دمعتى سرًّا فتجرى ولا أدرى

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

فاز الصابرون بعزِّ الدارين ، لأنهم نالوا من الله تعالى معيته : قال الله تعالى ﴿ إنَّ الله مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[1] .

وقيل فى معنى قوله تعالى : ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾[2] الصبر : دون المصابرة ، والمصابرة : دون المرابطة .

وقيل : اصبروا بنفوسكم على طاعة الله تعالى ، وصابروا بقلوبكم على البلوى فى الله ، ورابطوا بأسراركم على الشوق إلى الله .

وقيل : اصبروا فى الله ، وصابروا بالله ، ورابطوا مع الله .

وقيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : تخلق بأخلاقى ، وإنَّ من أخلاقى أننى أنا الصبور .

وقيل : تجرَّع الصبر ، فإن قتلك قتلك شهيدًا ، وإن أحياك أحياك عزيزا .

وقيل : الصبر لله : عناء ، والصبر بالله : بقاء ، والصبر فى الله : بلاء والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله : جفاء .

وأنشدوا:

والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر فى سائر الأشياء محمود

وأنشدوا :

وكيف الصبر عمن حلٍ منى ... بمنزلة اليمين من الشمال

إذا لعب الرجال بكلِّ شىء ... رأيت الحب يلعب بالرجال

وقيل : الصبر على الطلب عنوان الظفر ، والصبر فى المحن علامة الفرج .

سمعت منصور بن خلف المغربى ، رحمه الله ، يقول : جُرِّد واحد للسياط ، فلما ردَّ إلى السجن دعا ببعض أصحابه فتفل على يده ، وألقى من فمه دقاق الفضة على يده فسئل ، فقال : كان فى فمى درهمان ، وكان على حاشية الحلقة لى عين ، فلم أرد أن أصيح لرؤيته إياى .. فكنت أعض على الدرهمين .. فتكسرا فى فمى .

---

(١) آية ٤٦ من سورة الأنفال .

(٢) آية ٢٠٠ من سورة آل عمران .

وقيل : حالك التى أنت فيها رباطك ، وما دون الله تعالى أعداؤك ، فأحسن المرابطة فى رباط حالك .

وقيل : المصابرة هى الصبر على الصبر ، حتى يستغرق الصبر فى الصبر فيعجز الصبر عن الصبر ، كما قيل :

صابر الصبر فاستغاث به الصبر   فصاح المحب بالصبر صبرًا

وقيل : حبس الشبلى وقتًا فى المارستان ، فدخل عليه جماعة ، فقال : من أنتم ؟ .

فقالوا . أحباؤك جاءوك زائرين .

فأخذ يرميهم بالحجر ، وأخذوا يهربون .

فقال : ياكذابون ، لو كنتم أحبائى لصبرتم على بلائى .

وفى بعض الأخبار . بعينى ما يتحمل المتحملون من أجلى .

وقال الله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فإنَّك بأعْيُنِنَا ﴾[1] .

وقال بعضهم : كنت بمكة .. فرأيت فقيرًا طاف بالبيت ، وأخرج من جيبه رقعة ، ونظر فيها ، ومر ، فلما كان بالغد ، فعل مثل ذلك ، فترقبته أيامًا وهو يفعل مثل ذلك ، فيومًا من الأيام طاف ونظر فى الرقعة ، وتباعد قليلاً . وسقط ميتًا ، فأخرجت الرقعة من جيبه ، فإذا فيها :

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّك فَإنَّكَ بِأعْيُنِنَا ﴾[2] .

وقيل : رؤى حدَث يضرب وجه شيخ بنعله ، فقيل له . ألا تستحى !! تضرب حروجه شيخ بمثل هذا ؟ : فقال : جرمه عظيم . فقيل : وماذاك ؟

فقال : هذا الشيخ يدَّعى أنه يهوانى ، ومنذ ثلاث ما رآنى .

وقال بعضهم : دخلت بلاد الهند ، فرأيت رجلاً بفرد عين « يسمى فلانا الصبور » فسألت عن حاله ، فقيل : هذا فى عنفوان شبابه سافر صديق له ، فخرج فى وداعه ، فدمعت إحدى عينيه ولم تبك الأخرى ، فقال لعينه التى لم تدمع : لِمَ لَمْ تدمعى على فراق صاحبى ؟ لأحرمنك النظر إلى الدنيا وغمض عينه ، فمنذ ستين سنة لم يفتح عينه .

---

(١) آية ٤٨ من سورة الطور .
(٢) آية ٤٨ من سورة الطور .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾[١] : الصبر الجميل : أن يكون صاحب المصيبة فى القوم لا يدرى من هو .

وقال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، لو كان الصبر والشكر بعيرين ، لم أبال أيهما ركبت .

وكان ابن شبرمة ، رحمه الله ، إذا نزل به بلاء قال : سحابة ثم تنقشع .

وفى الخبر ، أن النبى ﷺ ، سئل عن الإيمان فقال : « الصبر والسماحة »[٢]

أخبرنا الشيخ أبو عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، قال أخبرنا محمد بن أحمد بن طاهر الصوفى قال : حدثنا محمد بن على التيجانى قال : حدثنا محمد بن اسماعيل البخارى قال : حدثنا موسى بن أسماعيل قال : حدثنا سويد بن حاتم قال : حدثنا عبد الله بن عبيد ، عن عمير ، عن أبيه ، عن جده ، قال : سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان ، فقال : « الصبر والسماحة »[٣] .

وسئل السرِّى عن الصبر ، فجعل يتكلم فيه ، فدب على رجله عقرب وهى تضربه بإبرتها ضربات كثيرة ، وهو ساكن : فقيل له : لِمَ لَمْ تنحها ؟ .

فقال : استحييت من الله تعالى أن أتكلم فى الصبر ، ولم أصبر .

وفى بعض الأخبار : الفقراء الصبر هم جلساء الله تعالى يوم القيامة .

وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : أنزلت بعبدى بلائى ، فدعانى ، فماطلته بالإجابة ، فشكانى ، فقلت : ياعبدى ، كيف أرحمك من شىء به أرحمك .

وقال ابن عيينة فى معنى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يهدُون بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾[٤] ، قال :

لما أخذوا برأس الأمر[٥] جعلناهم رؤساء[٦] .

سمعت الأستاذ أبا علىٍّ الدقاق يقول : إن الصبر حده أن لا تعترض على التقدير ، فأما إظهار البلاء على غير وجه الشكوى فلا ينافى الصبر ، قال الله تعالى فى قصة أيوب : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّه أَوَّابٌ ﴾[٧] مع ما أخبر عنه تعالى أنه قال ﴿ مَسَّنِىَ الضُّرُّ ﴾[٨] .

---

(١) آية ٥ من سورة المعارج .
(٢) رواه أبو يعلى والطبرانى .
(٣) رواه أبو يعلى والطبرانى .
(٤) السجدة : ٢٤ .
(٥) أى الصبر .
(٦) أى أئمة .
(٧) آية ٤٤ من سورة ص .
(٨) آية ٨٣ من سورة الأنبياء .

وسمعته يقول : استخرج الله منه هذه المقالة : يعنى قوله : ﴿ مسنى الضر ﴾ لتكون متنفسا لضعفاء هذه الأمة .

وقال بعضهم : إنا وجدناه صابرًا ، ولم يقل « صبورا » لأنه لم يكن جميع أحواله الصبر ، بل كان فى بعض أحواله يستلذ البلاء ، ويستعذبه ، فلم يكن فى حال الاستلذاذ صابرًا ، فلذلك لم يقل : « صبورًا » .

سمعت الأستاذ أبا على ، رحمه الله ، يقول : حقيقة الصبر : الخروج من البلاء على حسب الدخول فيه ، مثل أيوب عليه السلام فإنه قال فى آخر بلائه : ﴿ مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فحفظ أدب الخطاب حيث عرض بقوله : ﴿ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ولم يصرح بقوله « ارحمنى » .

واعلم أن الصبر على ضربين : صبر العابدين ، وصبر المحبين .

فصبر العابدين ، أحسنه : أن يكون محفوظًا[1] ، وصبر المحبين أحسنه : أن يكون مرفوضًا[2]. وفى معناه أنشدوا :

تبين يوم البين أن اعتزامه
على الصبر من إحدى الظنون الكواذب

وفى هذا المعنى سمعت الأستاذ أبا على ، رحمه الله ، يقول : أصبح يعقوب ، عليه السلام ، وقد وعد الصبر من نفسه ، فقال : « فصبر جميل أى : فشأنى صبر جميل ، ثم لم يمس حتى قال : يا أسفا على يوسف » .

---

(١) أى دائمًا .
(٢) أى متروكًا .

باب المراقبة

قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللهُ على كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾[١] .

أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن بن محمد ابن إسحق ، قال : حدثنا أبو عوانة يعقوب ابن إسحق ، قال : حدثنا يوسف بن سعيد بن مسلم ، قال : حدثنا خالد بن يزيد قال : حدثنا إسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم ، عن جرير بن عبد الله البجلى ، قال : « جاء جبريل إلى النبى ﷺ فى صورة رجل ، فقال : يامحمد ، ما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والقدر : خيره وشره ، وحلوه ومره . قال : صدقت .. قال : فتعجبنا من تصديقه النبى ﷺ وهو يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرنى ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . قال : صدقت . قال فأخبرنى ما الإحسان ؟ قال : الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : صدقت ..» الحديث[٢] .

قال الشيخ : هذا الذى قاله ﷺ : « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » إشارة إلى حال المراقبة ، لأن المراقبة ، علم العبد باطلاع الرب سبحانه عليه ، فاستدامته لهذا العلم مراقبة لربه ، وهذا أصل كل خير له ، ولا يكاد يصل إلى هذه المرتبة إلا بعد فراغه من المحاسبة ، فإذا حاسب نفسه على ما سلف له ، وأصلح حاله فى الوقت ، ولازم طريق الحق ، وأحسن بينه وبين الله تعالى مراعاة القلب ، وحفظ مع الله تعالى الأنفاس ، وراقب الله تعالى فى عموم أحواله ، فيعلم أنه سبحانه ، عليه رقيب ، ومن قلبه قريب ، يعلم أحواله ، ويرى أفعاله ، ويسمع أقواله ، ومن تغافل عن هذه الجملة فهو بمعزل عن بداية الوصلة ، فكيف عن حقائق القربة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت الجريرى يقول : من لم يحكم بينه وبين الله تعالى التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة .

---

(١) آية ٥٢ من سورة الأحزاب .

(٢) رواه الشيخان وغيرهما .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق . رحمه الله ، يقول :

كان لبعض الأمراء وزير ، وكان بين يديه يومًا ، فالتفت الى بعض الغلمان الذين كانوا وقوفًا ، لا لريبة ، ولكن لحركة أو صوت أحس به منهم ، فاتفق أن ذلك الأمير نظر إلى هذا الوزير فى تلك الحالة فخاف الوزير أن يتوهم الأمير أنه نظر إليهم ، فجعل ينظر إليه كذلك ، فبعد ذلك اليوم كان هذا الوزير يدخل على هذا الامير ، وهو أبدًا ينظر إلى جانب ، حتى توهم الأمير أن ذلك خلقه ، وحول فيه ، فهذه مراقبة مخلوق لمخلوق ، فكيف مراقبة العبد لسيده ؟.

سمعت بعض الفقراء يقول : كان أمير له غلام يقبل عليه أكثر من إقباله على غيره من غلمانه ، ولم يكن أكثرهم قيمة ، ولا أحسنهم صورة ، فقالوا له فى ذلك ، فأراد الامير أن يبين لهم فضل الغلام فى الخدمة على غيره . فيومًا من الأيام كان راكبا ، ومعه الحشم ، وبالبعد منهم جبل عليه ثلج ، فنظر الأمير إلى ذلك الثلج وأطرق رأسه ، فركض الغلام فرسه ، ولم يعلم القوم لماذا ركض ! فلم يلبث إلا يسيرًا حتى جاء ومعه شىء من الثلج . فقال له الامير : ما أدراك أنى أردت الثلج ؟ فقال الغلام : لأنك نظرت إليه ، ونظر السلطان إلى شىء لا يكون عن غير قصد صحيح فقال الامير : إنما أخصه بإكرامى وإقبالى ، لأن لكل أحد شغلًا ، وشغله مراعاة لحظاتى ، ومراقبة أحوالى .

وقال بعضهم : من راقب الله تعالى فى خواطره ، عصمه الله فى جوارحه .

وسئل أبو الحسين بن هند : متى يهش الراعى غنمه بعصا الرعاية عن مراتع الهلكة ؟ فقال : إذا علم أن عليه رقيبًا .

وقيل : كان ابن عمر ، رضى الله عنه ، فى سفر ، فرأى غلاما يرعى غنمًا ، فقال له : تبيع من هذه الغنم واحدة ؟ .

فقال : إنها ليست لى فقال : قل لصاحبها إن الذئب أخذ منها واحدة ، فقال العبد : فأين الله !! فكان ابن عمر يقول بعد ذلك إلى مدة : قال ذلك العبد : فأين الله .

وقال الجنيد : من تحقق[1] فى المراقبة خاف فوت حظه من ربه عز وجل لا غير .

وكان بعض المشايخ له تلامذة .. فكان يخص واحدا منهم بإقباله عليه أكثر مما يقبل على غيره ، فقالوا له فى ذلك ، فقال : أبين لكم ذلك .. فدفع إلى كل واحد من تلامذته طائرًا ،

---

(١) ثبت .

وقال له : إذبحه بحيث لا يراه أحد ، ودفع إلى هذا أيضا ، فمضوا ، ورجع كل واحد منهم وقد ذبح طائره ، وجاء هذا بالطائر حيا فقال : هلا ذبحته ؟ فقال : أمرتنى أن أذبحه بحيث لا يراه أحد ، فقال : لهذا أخصه بإقبالى عليه .

وقال ذو النون المصرى : علامة المراقبة : إيثار ما آثر الله تعالى ، وتعظيم ما عظم الله تعالى ، وتصغير ما صغر الله تعالى .

وقال النصراباذى : الرجاء : يحركك إلى الطاعات ، والخوف : يبعدك عن المعاصى ، والمراقبة : تؤديك إلى طرق[1] الحقائق .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سألت جعفر بن نصير عن المراقبة ، فقال : مراعاة السر ، لملاحظة نظر الحق سبحانه مع كل خطوة .

وسمعته يقول : سمعت أبا الحسين الفارسى يقول : سمعت الجريرى يقول : أمرنا هذا مبنى على فصلين وهو[2] أن تلزم نفسك المراقبة لله تعالى ، ويكون العلم على ظاهرك قائما .

وسمعته يقول : سمعت أبا القاسم البغدادى يقول : سمعت المرتعش يقول : المراقبة : مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة .

وسئل ابن عطاء ما أفضل الطاعات ؟ فقال : مراقبة الحق على دوام الأوقات .

وقال إبراهيم الخواص : المراعاة تورث المراقبة ، والمراقبة تورث خلوص السر والعلانية لله تعالى .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول سمعت أبا عثمان المغربى يقول :

أفضل ما يلزم به الإنسان نفسه فى هذه الطريقة : المحاسبة ، والمراقبة وسياسة عمله بالعلم .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله الرازى يقول سمعت أبا عثمان : يقول : قال لى أبو حفص إذا جلست للناس فكن واعظا لقلبك ولنفسك ، ولا يغرنك اجتماعهم عليك ، فإنهم يراقبون ظاهرك ، والله يراقب باطنك .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن عبد الله يقول : سمعت أبا جعفر الصيدلانى يقول :

---

(١) درجات .

(٢) الأولى أن يقول : « وهما » .

سمعت أبا سعيد الخراز يقول : قال لى بعض مشايخى : عليك ، بمراعاة سرك والمراقبة ، قال : فبينا أنا يوما أسير فى البادية ، إذ أنا بخشخشة خلفى ، فهالنى ذلك .. وأردت أن ألتفت فلم ألتفت .. فرأيت شيئا واقفًا على كتفى .. فانصرف ، وأنا مراع لسرى . ثم ألتفت ، فإذا أنا بسبع عظيم .

وقال الواسطى : أفضل الطاعات حفظ الأوقات . وهو : أن لا يطالع العبد غر حده ، ولا يراقب غير ربه ، ولا يقارن غير وقته .

* * *

انتهى الجزء الأول ويلية الجزء الثانى وأوله « باب الرضا »

فهرس محتويات الجزء الأول

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع	١٩٩٥/٧٧٤٧	
الترقيم الدولى	977-02-5015-5	ISBN

١/٩٠/١٠٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

